البيزنطيون والعرب

(٦٤١ - ٧١١م / ٢٠ - ٩٣هـ)

عمر يحيى محمد



المجلس الأعلى للثقافة

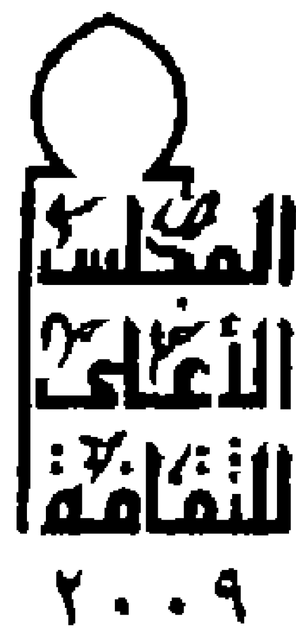
المجلس الأعلى للثقافة

البيزنطيون والعرب

(٦٤١-٧١١م)

(٢٠-٩٣هـ)

عمر يحيى محمد



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محمد ، عمر يحيى .
البيزنطيون والعرب (٦٤١-٧١١م) (٢٠-٩٣هـ) /
تأليف : عمر يحيى محمد ؛
ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٩
٣٤٤ ص ، ٢٤ سم
١ - الإمبراطورية البيزنطية
٢ - العنوان ٩٤٩,٥٠٢

رقم الإيداع ٤٠١٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 - 977- 479 - 066 - 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

مقدمة

حُكمت الإمبراطورية البيزنطية – والتى تعتبر الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية القديمة – بنظام حكم ملكى عبر أسر إمبراطورية توالت على العرش. فمنذ انتقال العاصمة من روما، وتأسيس العاصمة الجديدة القسطنطينية وخلال تاريخها الطويل؛ الذى امتد أحد عشر قرنا، توالت على العرش ثلاث عشرة أسرة حاكمة.

كانت الأسرة "الهرقلية" (٦١٠–٧١١م) والتى أسسها الإمبراطور البيزنطى "هرقل" هى إحدى هذه الأسر التى حكمت الإمبراطورية طوال قرن من الزمان، وكان لها دورها الكبير والخطير فى تاريخ الإمبراطورية، وفى مسيرتها والتغيرات التى تعرضت لها والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية التى ألمت بها.

ففى بداية تأسيس هذه الأسرة، استطاع مؤسسها تحقيق انتصار كبير وحاسم على دولة الفرس التى قامت قبيل قيام الأسرة الهرقلية بالاستيلاء على أجزاء كبيرة من أراضى الإمبراطورية البيزنطية فى بلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر، وتكبيدها هزائم وخسائر فادحة. وكان لهذا الانتصار الكبير أثره فى إحياء الإمبراطورية وإنقاذها من هذه الأزمة الخطيرة والإطالة فى عمرها، وانتشالها من الخطر الكبير الذى كان يتهددها بالفناء. كما كان له أثره فى تغيير ميزان القوى بالمنطقة فى تلك الفترة التاريخية الحرجة من العصور الوسطى، وتحجيم قوة الدولة الفارسية، العدو اللدود والتقليدى للإمبراطورية الرومانية القديمة ووريثتها الإمبراطورية البيزنطية.

كما أن هذه الأسرة تزامنت مع قيام الدولة الإسلامية وظهور حركة الفتوح الإسلامية حيث وقع الصدام بين الدولتين وكان نتيجته أن خسرت الإمبراطورية البيزنطية معظم تلك الأراضى التى استطاعت استعادتها من الفرس بعد حرب ضروس، لتصبح جزءًا من الممتلكات والأراضى الإسلامية.

لقد استطاعت الدولة الإسلامية التى بنت وجودها وانتصاراتها على حساب القوتين السابقتين اللتين أرهقتهما الحروب والصراعات، أن تصبح قوة جديدة بارزة على مسرح الأحداث، وعندما اختفت الدولة الفارسية حلَّت مكانها الدولة الإسلامية، ليتركز الصراع بين القوتين العظميين الجديدتين (الإسلامية والبيزنطية) طوال قرون عديدة.

ومن هنا يكتسب القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى بأحداثه وصراعاته، والأسرة الهرقلية بالدور الذى لعبته خلال هذا الصراع، أهميتها وأحقيتها بالدراسة والبحث.

والبحث الذى بين أيدينا يقوم بدراسة الأوضاع التى كانت عليها الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل، وما تطورت إليه الأوضاع بعد وفاته سنة (٦٤١م / ٢٠ هـ) حتى نهاية حكم خلفائه من أسرته سنة (٧١١م / ٩٣ هـ)، فقد شهدت الإمبراطورية خلال هذه الفترة تطورات سياسية واقتصادية وعسكرية، تركت آثارها – فيما بعد – على الأوضاع الداخلية للإمبراطورية وعلى علاقتها بالمسلمين وبالقوى الأخرى من لاتين وبلغار وخزر، وكل ذلك تم تناوله بالتفصيل فى إطاره التاريخى.

ويركز البحث على دراسة فترة الأباطرة الذين خلفوا الإمبراطور هرقل فى حكم الدولة البيزنطية من أبنائه وأحفاده، ومنهم الإمبراطور قنسطانز الثانى الذى استطاع السيطرة على العرش بعد فترة الفوضى التى أعقبت وفاة الإمبراطور هرقل وإصرار زوجته مارتينا على المشاركة فى الحكم، رغم عدم اعتراف الكنيسة ورجال السناتو بشرعيتها أو بشرعية زواجها من الإمبراطور هرقل.

وكذلك دراسة الصراع المرير الذى خاضته الإمبراطورية مع المسلمين فى عهد هذا الإمبراطور، والذى كاد أن يقع أسيراً فى يد المسلمين خلال مشاركته لقواته فى القتال أثناء موقعة ذات الصوارى البحرية الشهيرة سنة ٦٥٥م / ٣٤هـ.

ثم فترة الإمبراطور قنسطنطين الرابع والذى شهدت الإمبراطورية البيزنطية انتعاشاً فى عهده، بعد أن بلغ الصراع مع المسلمين مداه حين قاموا بمحاصرة عاصمة الإمبراطورية القسطنطينية للمرة الأولى وفشل هذا الحصار لعدة أسباب تناولها الباحث بالتفصيل والتحليل من خلال كافة المعطيات التى رافقت هذا الحصار.

وكذلك فترة الإمبراطور جستنيان الثانى والذى تجدد الصراع مع المسلمين فى فترة حكمه الأولى، ولعب العامل الاقتصادى دورا كبيرا فى قيام هذا الصراع وتشعبه، وكانت إحدى نتائجه المباشرة تصميم المسلمين على سك عملة إسلامية خاصة بهم، والتحرر من دائرة الاقتصاد البيزنطى وعملته ونظمه الإدارية.

كما أن فترة الإمبراطور جستنيان الثانى شهدت حدثا خطيرا فقد أدت ثورة فى العاصمة البيزنطية إلى إقصاء الإمبراطور وعزله وجدع أنفه، ثم قام ثلاثة من القادة البيزنطيين باغتصاب العرش على التوالى، إلا أن جستنيان الثانى تمكن من الهرب من منفاه، واستطاع بمعونة من البلغار استعادة عرشه، وكانت عودته وما اتخذه من سياسات موغلة فى التطرف والانتقام حافزا لقيام ثورة جديدة عليه ليتم قتله وولى عهده، وإنهاء حكم البيت الهرقلى للإمبراطورية.

والبحث فى مجمله يتناول فترة هامة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، فبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية فإن الدراسة تشمل الفترة التى أعقبت وفاة الإمبراطور هرقل، حيث انحسرت الأراضى التى كانت تسيطر عليها الإمبراطورية البيزنطية بفقدانها لأهم أراضيها، من الناحية السياسية والاقتصادية والدينية، وتعرضت فيها الإمبراطورية لهزات سياسية وعسكرية أثرت كثيرا فى أوضاعها.

كما أن القرن السابع الميلادى، والذى حكمت خلاله الأسرة الهرقلية، يشكل أهمية خاصة فى تاريخ هذه الإمبراطورية، مما جعل كثيرا من المؤرخين يذهبون إلى أن هذا القرن شهد تبلور فكرة الإمبراطورية البيزنطية الإغريقية، وبروزها

بعيدا عن التأثيرات الرومانية واللاتينية والغربية بصفة عامة، حيث ساهمت الفتوحات الإسلامية وما ترتب عليها من انكماش الدولة فيما تبقى لها من أراضٍ فى آسيا الصغرى وبلاد اليونان والبلقان فى أتباعها لسياسات جديدة وانحيازها إلى ثقافة مغايرة وتفكير سياسى يختلف عما سبق.

أما بالنسبة للدولة الإسلامية فإن فترة البحث لا تقل أهمية عن سابقتها حيث شهدت هذه الفترة توطيد الحكم الإسلامى فى الأراضى المفتوحة والتوسع شمالا وغربا فى أملاك الإمبراطورية البيزنطية وبداية التفكير فى إنشاء البحرية الإسلامية، وبروز الاقتصاد الإسلامى بعيدًا عن الارتباط بالعملة البيزنطية ودورة الاقتصاد البيزنطى وتعريب الدواوين.

كما أن تلك الفترة شهدت قيام عدة معاهدات سياسية بين الطرفين، وحدث فيها أول حصار إسلامى بشكل كثيف ومنظم للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

قسَّم الباحث دراسته إلى خمسة فصول رئيسية ناقش فيها عدة مواضيع، بادئا بتمهيد موجز عن أوضاع الإمبراطورية فى خواتيم القرن السادس، وأوائل السابع الميلاديين، مركزا على تلك الأسباب والعوامل التى ساعدت على بروز الأسرة الهرقلية وظهورها على مسرح الأحداث.

وتناول فى الفصل الأول الدور الذى لعبه الإمبراطور هرقل فى إقامة هذه الأسرة وتثبيتها على العرش البيزنطى من خلال الحروب التى خاضها، والسياسات التى اتبعها، والتغييرات التى أحدثها، والصورة التى ظهرت بها الإمبراطورية فى مختلف أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية فى عهده، وما أثمره كل ذلك من تمهيد العرش البيزنطى أمام أبنائه وأحفاده ليستمر حكم الأسرة الهرقلية للإمبراطورية البيزنطية على مدى قرن من الزمان.

وتناول الفصل الثانى وراثة العرش فى أعقاب موت الإمبراطور هرقل، وتم فيه تتبع موجز لنظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية منذ تأسيس القسطنطينية، وكيف ظهرت الإرهاصات الأولى لظهور هذا النظام حتى تبلورت فى بروز نظام وراثة العرش فى عهد الأسرة الهرقلية، وترسخه، وما هى الإجراءات والتغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل لترسيخ هذا النظام، وكيف أدت تلك الإجراءات إلى أن تُحكم الإمبراطورية فى أعقاب وفاته بثلاثة أباطرة، وما جره ذلك من صراعات وصدامات قادت فى ختامها إلى إنفراد حفيده الإمبراطور قنسطانز الثانى بالعرش البيزنطى.

وتناول الفصل الثالث أوضاع الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم الإمبراطور قنسطانز الثانى، ابتداء من بروز مجلس السناتو، واستعادته لنفوذه والدور الذى لعب فى وصول قنسطانز الثانى إلى العرش، وسياسات الإمبراطور الداخلية والدينية وتأثيراتها على الإمبراطورية. ثم صراعه مع المسلمين، وكانت قمة هذا الصراع فى موقعة ذات الصوارى التى كاد الإمبراطور أن يقع فيها أسيرا فى يد المسلمين، وكيف أن المسلمين لم يستفيدوا من نتائج موقعة ذات الصوارى العسكرية، وإنما دفعتهم الصراعات الداخلية إلى السعى لتوقيع معاهدة مع البيزنطيين صبت فى صالح الدولة البيزنطية، وأتاحت الفرصة للإمبراطور قنسطانز الثانى لإجراء بعض التحركات فى الغرب الأوروبى لاستعادة النفوذ البيزنطى هناك، ولكن ما لبثت هذه التحركات، متضامنة مع أحداث حدثت فى العاصمة البيزنطية، أن دفعت إلى قيام مؤامرة لاغتيال الإمبراطور فى سيراكوز عاصمة صقلية.

وتناول الفصل الرابع أوضاع الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم قنسطنطين الرابع الذى عرف بلقب ال"ملتحى"، وقد شهدت الإمبراطورية فى عهده تغيرات عديدة، وأحداث كبيرة كان أهمها الحصار الذى تعرضت له العاصمة البيزنطية لمدة سبع سنوات من الجيوش والأساطيل الإسلامية، وفشل هذا الحصار وكان لهذا الفشل أسباب عديدة.

وتناول الفصل الخامس والأخير الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم جستنيان الثانى، والذى تم فى عهده اتخاذ سياسات داخلية جديدة كما شهدت العلاقات مع الدولة الإسلامية تطورات جديدة كان من بينها تجديد المعاهدة مع المسلمين، إلا أن الأمور ما لبثت أن تطورت إلى الحرب بين الدولتين تحت تأثير العامل الاقتصادى.

وقد تعرض الإمبراطور جستنيان الثانى إلى ثورة أقصته عن الحكم ولكنه بعد عشر سنوات استطاع أن يستعيده، وخلال هذه السنوات العشر حكم الإمبراطورية ثلاثة أباطرة مغتصبين من خارج الأسرة، شهدت الإمبراطورية خلال فترة حكمهم تغيرات وتطورات كثيرة.

وخلال الفترة الثانية من حكم الإمبراطور جستنيان الثانى تسارعت الأحداث والتطورات التى كان سببها الروح الانتقامية التى سيطرت على الإمبراطور، ضد الذين اغتصبوا منه الحكم أو شاركوا فى إقصائه سواء رجال دين وأفراد أو قوى سياسية أو عسكرية أو مدن، مما أدى إلى تزايد التذمر الذى تصاعد إلى ثورة عارمة أدت إلى إقتلاعه من العرش ومقتله هو وولى عهده، وبالتالى القضاء على البيت الهرقلى، وقد تفاوتت النظرة إلى هذه الفترة الثانية من حكم جسنتيان الثانى حتى أن بعض المؤرخين طلب إلغائها من تاريخ الإمبراطورية وإغفالها باعتبارها فترة انتقام إرهابية كان لها أثرها السيئ على أوضاع الإمبراطورية.

ثم جاءت خاتمة هذا البحث وفيها حاول الباحث إبراز أهم النتائج التى توصل إليها من خلال فصول الدراسة الخمسة، وأهم التغييرات التى برزت خلال فترة حكم البيت الهرقلى للإمبراطورية – مع التركيز على مكانة الأسرة الهرقلية فى التاريخ البيزنطى، والدور الذى لعبته هذه الأسرة فى انتشال الإمبراطورية من أزماتها والمد فى عمرها – وكذلك تطورات العلاقة بين الدولتين البيزنطية والإسلامية وأثر هذه العلاقة والاحتكاك على الحضارتين، ونقاط التصادم والتأثر.

كما زود البحث ببعض الخرائط التى أعطت صورة عن أوضاع الإمبراطورية خلال فترة حكم البيت الهرقلى.

اعتمد الباحث فى دراسة الأوضاع البيزنطية فى عهد خلفاء هرقل، على عدد من المصادر والمراجع التى تناولت هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية، وأهم مصادر حولية ثيوفانيس Theophanes والتى خصصها للفترة من ٢٨٤ – ٨١٣م، أى منذ وصول دقالديانوس إلى الحكم وتفكيره فى نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق، حيث انتقل بها من روما إلى نيوقدميديا، ليقوم الإمبراطور قنسطنطين الأول (٣٠٥ – ٣٣٧م) فيما بعد بنقلها إلى القسطنطينية.

ولد ثيوفانيس فى الفترة من (٧٥٢ – ٧٦٠م) وقد دخل سلك الرهبنة وكان قريبًا من الأسرة الإمبراطورية الحاكمة، وتعتبر حوليته مصدرًا هامًا لتاريخى القرن السابع والثامن الميلاديين وترسم إطارًا للشئون البيزنطية فى هذين القرنين.

فقد ترجم هذه الحولية من اليونانية إلى اللاتينية أحد أمناء المكتبة البابوية واسمه انستاسيوس Anastasius، وقد قام باحثان إنجليزيان باختيار فترتين من فترات الحولية وترجماها إلى الإنجليزية.

فقد قام (H. Turtledove) بترجمة لتواريخ الفترة ٦٠٢ – ٨١٣م[١]، وقام (A. R. Santoro) بترجمة لتواريخ الفترة ٧١٧ – ٨٠٣م[٢]. ومن حسن الحظ أنه قد صدر مؤخرًا ترجمة كاملة للحولية إلى الإنجليزية، حفلت بالعديد من الهوامش والملاحظات والمقارنات مع مصادر أخرى، وهى الترجمة التى اعتمد عليها الباحث اعتماداً كليًا فى هذا البحث[٣].

---

(١) The chronicle of Theopanes, trans. By H. Turtladove, Philadelphia, 1982.

(٢) The chronicle of Theopanes, trans. By A. R. Santoro, Gorham, Me., 1982.

(٣) The chronicle of Theopanes, Confessor, Byzantine and near Eastern History (AD284-813) edited by Cyril Mango, and Roger Scott, Clarendon Press, Oxford, 1997.

ورغم محاولة ثيوفانيس أن تكون حوليته شـــاملة لأحـــداث الإمبراطوريـــة البيزنطية وجيرانها وبالذات المسلمين، إلا أنه يلاحظ أن هناك أخطاءً كثيـــرة فـــى التواريخ والمعلومات والأسماء عند تعرضه لتاريخ الدولة الإسلامية. وهو ما حاول مترجما الحولية توضيحه، وما قمنا بتصحيحه عند تناول بعض مروياته وبالـــذات فى الفترة التى تناولت زمن البحث وأحداثه .

وهناك مصدر آخر كتبه أحد نصارى بلاد الشام باللغة العربية هو أغابيوس ابن قنسطنطين المنبجى، من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، وقد اشـــتهر كتابه هذا باسم "العنوان" أو "تاريخ المنبجى" وقد قام الدكتور عمـــر عبـــد الـــسلام التدمرى بتحقيق أجزاء من هذا الكتاب تحت عنوان: (المنتخب من تاريخ المنبجى)(١).

والمنبجى كان أسقفًا لمدينة منبج، ويستمد الكتاب أهميته من أنه قـــد اعتمـــد على مصدر معاصر للأحداث هو توفيل بن وتما النصرانى المتوفى فى أوائل سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥م، وهـــو مـــؤرخ معاصـــر لسقوط الـــدولة الأمويـــة وقيـــام الـــدولة العباسية(٢).

والكتاب من المصادر الأولية التى اعتمد عليها كثير من المؤرخين المسلمين كالبلاذرى والمسعودى وابن العميد وغيرهم(٣). وقد استفاد الباحث من هذا المصدر فى تتبع العلاقات بين الدولتين البيزنطية و الإسلامية فى فترة البحـــث. كمـــا قـــام بتدارك بعض الأخطاء التى أوردها المحقق فى الهوامش.

كما اعتمد الباحث على العديد من المصادر الإسلامية التى تناولـــت فتـــرة البـــحث من أمثال كتاب الطبـــرى (تاريخ الـــرسل والملوك) وكتـــاب الـــبلاذرى (فتوح البلدان) وكتاب ابن الأثير (الكامل فى التاريخ).

---

(١) أغابيوس بن قنسطنطين المنبجى، المنتحب من تاريخ المنبجى، انتخبه وحققه أ.د عمـــر عبـــد الـــسلام التدمرى، دار المنصور، طرابلس، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ٥.

(٢) المصدر السابق، مقدمة المحقق، ص٦.

(٣) المصدر السابق، ص٧.

فكتاب الطبرى أفاد الباحث فى جانب هام وهو تتبع الفتوح والغزوات والحروب التى سادت بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية انطلاقا من بدايتها منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد الخلفاء الراشدين والجزء الذى يتصل بفترة البحث من الدولة الأموية. وقدم الطبرى معلومات وفيرة عن الجيوش الإسلامية وقادتها وربطها بالسنوات التى تمت فيها هذه الحملات، وعن الحالة التى غادر فيها الإمبراطور هرقل بلاد الشام بعد أن تأكدت هزيمة جيوشه، وفشلت محاولاته العديدة فى استعادة زمام الأمور أو السيطرة فى بلاد الشام.

واستفاد الباحث من كتاب البلاذرى (فتوح البلدان) فى إلقاء الضوء على قضية المردة التى شغلت جانبا كبيرًا من العلاقات والصراع بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، حيث انفرد البلاذرى بتقديم عرض تأريخى عن هؤلاء القوم وتأثيرهم فى الأحداث واستخدام الدولة البيزنطية لهم فى التجسس ومناوشة الدولة الإسلامية، وكيفية تخلص الدولة الإسلامية منهم عن طريق الاتفاق مع الدولة البيزنطية على نقلهم من تخوم الشام إلى الأرض الداخلية فى الإمبراطورية نظير مبالغ مالية، وتأثير ذلك على الصراع بين الدولتين.

كما استفاد الباحث من البلاذرى فى قضية النقود الإسلامية وتعريب الدواوين حيث قدم البلاذرى معلومات فى هذا الموضوع.

كما أفاد البلاذرى فى تقديم معلومات كثيرة عن فتح جزيرة قبرص وموقف الفقهاء المسلمين من أهلها حين تمردوا على الدولة الإسلامية وساعدوا البيزنطيين، فصمم المسلمون على إعادة فتحها.

ومن المصادر الإسلامية الهامة التى اعتمد عليها الباحث كتاب "الكامل فى التاريخ لابن الأثير" والذى قدم معلومات وافرة عن الفتوح الإسلامية وعن الصراع مع الدولة البيزنطية، كما قدم معلومات عديدة عن أوضاع الدولة الأموية وعن الأحداث التى ألمت بها فى الخارج والداخل، وأثرت على نشاطها العسكرى فى

التصدى للبيزنطيين. كما استفاد الباحث من كتاب ابن الأثير فى تتبع القادة الذين قادوا الحملات العسكرية ضد البيزنطيين حول مصر، اعتمد الباحث على مصدر هام هو كتاب ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) والذى قدم معلومات وفيرة فى هذا الجانب وأفاض فى ذكر الأسماء والروايات والأخبار التى أهملتها المصادر الأخرى.

كما اعتمد الباحث على مصادر إسلامية أخرى مثل اليعقوبى (تاريخ اليعقوبى)، خليفة بن خياط (تاريخ خليفة بن خياط) ابن كثير (البداية والنهاية)، الأزدى (فتوح الشام)، ابن الجوزى (المنتظم)، وغير ذلك من المصادر الإسلامية والتى قدمت معلومات كثيرة عن أخبار الفتوحات الإسلامية، الصراع والعلاقات مع الدولة البيزنطية.

كما اعتمد الباحث على عدد كبير من المراجع الأجنبية الحديثة التى تناولت تاريخه الإمبراطورية البيزنطية، أمثال مؤلفات: جيبون Gibbon، وفازييلف Vasiliev، وبيورى Bury، واستر وجورسكى Ostrogorosky، وأومان Oman، وشارل ديل Charles Diehl، وموسوعة كامبردج للعصور الوسطى (Camb. Med. Hist.) وعددٍ من البحوث المنشورة فى مجلة (Byzantion) لعدد من الباحثين فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وعدد آخر من الدراسات والمؤلفات العربية أو المعربة والتى تناولت تاريخ الإمبراطورية البيزنطية والعلاقات مع الدولة الإسلامية.

وعن الدراسات السابقة عاد الباحث إلى رسالة الدكتورة ليلى عبد الحميد بعنوان "الإمبراطورية البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل" ودراسة الدكتورة عائشة أبو الجدايل بعنوان "الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى" والأولى تتناول فترة الإمبراطور هرقل، والثانية التطورات والتغيرات الإدارية والتنظيمية، وقد استفاد منهما الباحث بشكل كبير.

ويرجو الباحث أن يكون قد وفق فى إعداد هذا البحث، وتغطية جوانبه المختلفة، باذلا الشكر لمن أعان فى جمع معلوماته سواء فى مكتبة جامعة الملك عبد العزيز، أو مكتبة جامعة القاهرة، أو دار الكتب فى القاهرة، أو الجامعة الأمريكية فى بيروت، أو لمن فتح مكتبته الخاصة وسمح باستعارة بعض الكتب والمراجع منها أو مدَّ يد العون فى ترجمة بعض النصوص.

تمهيد

أوضاع الإمبراطورية البيزنطية
فى مطلع القرن السابع الميلادى

شهدت الإمبراطورية البيزنطية أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين انهيارًا فى أوضاعها شمل مختلف نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية. على أن هذا التدرج نحو الانهيار كان قد بدأ مبكرًا لتكتمل صورته فى مطلع القرن السابع الميلادى.

ففى عهد الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧ – ٥٦٥م) رغم أن الدولة شهدت انتعاشًا وانتصارات عسكرية استطاعت من خلالها استعادة أجزاء من الأراضى والممالك التى كانت قد فقدتها خلال غزوات الجرمان وسيطرتهم واستقرارهم فى هذه الأراضى، وإنشاء دول خاصة بهم بعيدًا عن سيطرة وسلطة القسطنطينية، إلا أن هذه الانتصارات قد كلفت ثمنًا باهظًا، وتطلبت سياسات أثرت كثيرًا على أوضاع الإمبراطورية ومستقبلها(١). فالجيوش التى حركها الإمبراطور جستنيان إلى شمال أفريقيا حيث الوندال، وإلى إيطاليا حيث القوط الشرقيين، وإلى أسبانيا حيث القوط الغربيين، وإلى فارس معقل العدو التقليدى للإمبراطورية البيزنطية، قد تطلبت إنفاقًا باهظًا استنفد جزءًا كبيرًا من خزينة الدولة ورصيدها المالى، وأكملت المشروعات المعمارية والحصون والقلاع التى توسع الإمبراطور

---

(١) Vasiliev, A.A: History of the Byzantine Empir, the University of Wisconsin Press, 1958, Vol. I,P.140.

وعادة يطلق اسم الجرمان على الشعوب المتبربرة التى انثالت ابتداء من القرن الميلادى على أنحاء الإمبراطورية ومنهم القوط الشرقيون والغربيون والهون والأفار والسلاف وسواهم ولمزيد من التفصيل عنهم انظر: تاكيتوس والشعوب الجرمانية، ترجمة د. إبراهيم طرخان، دار الضياء للطباعة، القاهرة ١٩٥٩م.

جستنيان فى إنشائها فى بعض من أنحاء الإمبراطورية على الجزء الباقى[1]، وكل ذلك دفع الإمبراطور إلى التوسع فى الضرائب وتبع ذلك انهيار اقتصادى وتدهور فى التجارة، وزاد الأمر سوءًا ذلك الخلاف المذهبى الذى أخذ يسود أنحاء الإمبراطورية وخاصة فى جزئها الشرقى، وكان نتيجة ذلك أن حدث تباعد وتنافر بينها وبين القسطنطينية، نتيجة للاضطهاد والقمع اللذين تعرضت لهما هذه الأجزاء[2].

لقد أظهرت الأحداث فيما بعد أن مخططات جستنيان ومشروعاته قد فشلت فشلاً ذريعًا، وتأكد هذا الفشل بعد وفاته مباشرة حيث دخلت الإمبراطورية فى نفق مظلم من الأزمات والصراعات، فقد تسلم من جاء بعده من الأباطرة دولة متداعية ذات اقتصاد ومالية منهارة، وأقاليم متناحرة، وأوضاع متردية، ولذلك فإن المؤرخ بيورى Bury لا يتجرأ على الحقيقة حين يقرر أنه "إذا كان هناك رجل يمكن اعتباره مسئولا عن تفكك الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية) على هذا النحو فإن هذا الرجل هو الإمبراطور – العظيم – جستنيان"[3]. فقد أثار سخط الشرق بسبب المسائل المذهبية نتيجة لسياسته الدينية، وأودى بموارد الإمبراطورية، لدرجة أن خلفاءه لم يجدوا ما يكفى من الرجال والمال للحفاظ عليها والدفاع عنها.

لقد تلى جستنيان سلسلة من الأباطرة الضعاف الذين لم يستطيعوا النهوض بالإمبراطورية أو معالجة المشاكل التى أحاطت بها، وعجلت بوصولها إلى حافة التراجع والانهيار.

وفى خضم هذا الواقع المرير للإمبراطورية البيزنطية، استهل القرن السابع أحداثه.

---

(١) Ostrogorosky, G.; History of the Byzantine state, secenod Edition, Basil Blackwell, London 1968. P.65

(٢) نورمان كانتور: العصور الوسطى الباكرة، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٦)، ص ٢٢٧.

(٣) Bury, J.B. The History of the later Roman, Empir, from Arcadius to Irene, London, 1989, Vol. I, P. 362

اعتلى الإمبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢ – ٦١٠م) العرش بعد أن قاد انقلابًا عسكريًا ضد الإمبراطور موريس Moris (٥٨٢ – ٦٠٢م) وأعدم الإمبراطور السابق مع عدد من أفراد أسرته[(١)]. ولم يستطع فوكاس مواجهة الأزمات المتتالية التى أحاطت بالإمبراطورية، فقضى أيامه بين اضطرابات داخلية وهزائم خارجية أمام الأعداء التقليديين للإمبراطورية سواء على الجبهة الشرقية فى مواجهة الفرس أو على جبهة البلقان فى الغرب أمام الصقالبة والآفار[(٢)].

ورافق هذه الهزائم أزمة اقتصادية طاحنة تمثلت فى زيادة الأموال التى كانت الدولة مضطرة لدفعها للصقالبة لضمان عدم تقدمهم لمهاجمة العاصمة، وفى انتشار المجاعة بسبب تلف محصول القمح لعامى (٦٠٨، ٦٠٩م) بسبب الشتاء القارس، وتوقف إمدادات القمح من إفريقيا ومصر خلال هذين العامين[(٣)].

وفشل الإمبراطور فوكاس فى التصدى لهذه الأوضاع ومعالجتها وتعاظمت نذر الثورة على حكمه فى الداخل، بدأت القسطنطينية تتطلع إلى إمبراطور منقذ يستطيع وقف هذا الانهيار والتصدى لهذه الأوضاع.

ظهر هذا المنقذ فى شخص هرقل[(٤)]، الذى جاء من شمال إفريقيا، وسرعان ما استطاع السيطرة على الأمور فى القسطنطينية ليعلن فى الخامس من أكتوبر عام (٦١٠م) بموافقة الشعب ومجلس السناتو والكنيسة إمبراطورًا على الدولة البيزنطية[(٥)].

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P 67

(٢) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٢م) ص ١١٣.

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٦م) ص ٢٤٣.

(٤) هرقل Heraclies هو ابن أرخون (والى) إفريقيا والذى كان يسمى بنفس الاسم، وكان هذا الوالى أحد رجال الإمبراطور موريس، وسبق أن قاتل الفرس معه، ومكافأة له على جهوده أعطى له حكم شمال إفريقيا، وبدأ " الأرخون " مقاتلته لفوكاس حين منع تصدير القمح وأوقف إرسال جيشين بقيادة ابنه هرقل وابن أخيه نيكتاس. وقد ولد هرقل (الذى أصبح فيما بعد إمبراطورا) سنة ٥٧٥م، وحين تولى العرش كان عمره خمسة وثلاثين عاما، وتمثلت أهم مواهبه فى القيادة العسكرية والخطابة. وهناك خلاف بين المؤرخين حول أصول أسرة هرقل، فالبعض يرى أنها أرمينية، وتنتسب إلى بيت أرمنى مشهور هو بيت الأراشكة Arsacids، فى حين يرى آخرون أنها تنتسب إلى أصل قبادوقى، مما جعل البعض يلجأ إلى الصفات الجسمانية لهرقل مثل لون شعره ولون عينيه وبشرته لتحديد أصل أسرته. انظر أيضًا: Vasiliev, Op. Cit., I,P.235، وأيضًا: Theophanes, the chronicle of the theophanes confessor. Byzantin and near Esrten History (AD 284 – 813) Edited by Cyril Mango and Roger scott, Oxfordm 1997. P. 427

(٥) د. أسد رستم، الروم، الطبعة الثانية، (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٨٨م) ج١، ص ٢٢١.

الفصل الأول

التغيرات التى طرأت على الإمبراطورية
البيزنطية فى أواخر عهد الإمبراطور هرقل

- التطورات السياسية والاقتصادية
- تطورات الصراع مع الفرس
- محاولة إصلاح الأوضاع الدينية
- نشأة الصراع مع المسلمين

التطورات السياسية والاقتصادية:

باعتلاء هرقل للعرش فى القسطنطينية، بدأت الإمبراطورية البيزنطية طورًا جديدًا من تاريخها وأوضاعها، وبدأت حركة الإصلاح التى شملت مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ففى الجانب السياسى شرع الإمبراطور هرقل يعمل بطاقة وجهد من أجل تثبيت سلطته وسلطة أسرته، وكان أول ما ركز عليه إنهاء نزاعات الأحزاب وصراعاتها والتى كانت تشغل جانبًا كبيرًا من أحداث الفوضى فى جميع أنحاء الإمبراطورية حيث استطاع أن يقلم أظافر هذه الأحزاب[1] وأن يقضى على

---

(١) تعود حركة الأحزاب فى الإمبراطورية إلى فترة مبكرة من انتقالها من الغرب إلى الشرق، فقد ظهرت هذه الأحزاب فى بداية تأسيس القسطنطينية على يد الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٠٥ – ٣٣٧م) وكانت فى بداية أمرها تنحصر فى فرق رياضية تمارس الرياضة وبالذات سباق الخيل والعربات ثم ما لبثت هذه الفرق والتى عرفت بالألوان التى اتخذتها شعارا لها، وهى اللون الأزرق والأخضر والأحمر والأبيض، ولكن الشهرة ذهبت إلى فريق الزرق والخضر لأن أنصارهما كانا مصدرًا للقلاقل والاضطرابات، وسرعان ما نمى التنافس بين أنصار الفريقين، وتحول إلى تنافس سياسى هام قادر على التأثير على مصير الإمبراطورية، وأصبح على الأباطرة أخذه بعين الاعتبار، ويتضح الدور الشعبى الذى لعبه أهل القسطنطينية من خلال حزبى الزرق والخضر فى المشاركة فى الحياة السياسية واختيار الأباطرة وعزلهم، وهناك من يعتقد أن حزب الزرق هو حزب الحكام وأبناء الطبقة العليا، وأن حزب الخضر هو حزب المعارضة ممثلا فى عامة الناس، وأن حزب الزرق يمثل مذهب كنيسة القسطنطينية الذى أقره مجمع خلقدونية وأن حزب الخضر يمثل المذهب المونوفيزتى (مذهب الطبيعة الواحدة) الذى أدانه مجمع خلقدونية سنة (٤٥١م) على أن هناك من يعتقد أن جموع أنصار وأعضاء حزبى الزرق والخضر كانت تنتمى للطبقة الاجتماعية الدنيا، وأن الاختلاف بين الحزبين يرجع إلى اختلاف قيادة وزعامة كل حزب، فقيادة حزب الزرق كانت فى يد أبناء الطبقة العليا من شاغلى المناصب العليا فى الحكومة والقصر، أما زعامة حزب الخضر فكانت فى أغلب الأحوال فى يد كبار التجار وأصحاب البضائع والمحلات الكبيرة، أى فى يد الفئات الغنية من الطبقة الوسطى، وعلى هذا فإن مجموع أنصار وأعضاء الحزبين كانت تنتمى للطبقة الدنيا، إلا أنها خضعت لقيادة الدوائر العليا فى المجتمع. ولا شك أن الخلاف المذهبى قد لعب دورًا كبيرًا فى الصراع بين الحزبين وفى تغذية التنافس بينهما.

لمزيد من التفاصيل عن أحزاب فى الإمبراطورية البيزنطية راجع الدراسة الموسعة للدكتور وسام فرج بعنوان: أضواء على مجتمع القسطنطينية، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين، فى كتاب: دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، الصفحات: ٣ – ٥٣.

المنازعات التى كانت تنشب بينها، ويوجه، نشاطها وتنافسها إلى ميـــادين جديـــدة تحتاجها الإمبراطورية. ولقد ساعدت الإصلاحات الإدارية التى نهض بها لإصلاح النظام الإدارى فى الدولة، والسياسة التى انتهجها فى التعامل مع هذه الأحزاب فى الحد من أثرها وفاعليتها السياسية، فعلى الرغم من أن الخضر ساندوه بكـــل قـــوة، ولعبوا دورا كبيرا فى تسهيل دخوله وسيطرته على القسطنطينية، إلا أنه لم يـــذهب بعيدًا فى محاباتهم أمام الزرق – الذين أظهروا ميلاً لفوكاس – واكتفى بأن أحـــرق علمهم كعقاب لهم. وأظهر هرقل الحذر فى تعامله مع الأحزاب فلم يفضل علانيـــة أحد الحزبين على الآخر، حتى لا يثير استياء وسخط الحزب الآخـــر(١). كـــذلك لا شك أن شخصية الإمبراطور هرقل وعسكريته والـــدور الـــذى لعبـــه فـــى إنقـــاذ العاصمة، والانتصارات التى حققها فيما بعد أمام الفرس والآفار قد أكدت مكانتـــه وجعلت هذه الأحزاب تعود تدريجيا إلى حجمها الحقيقى ودورها القديم فى الاكتفاء بالتنافس فى سباقات الخيل فـــى ملعـــب الهيبـــدروم Hippodrome وإلـــى تنظـــيم الاحتفالات والمهرجانات فى المناسبات، وأن تتراجع عن المـــشاركة فـــى الحيـــاة السياسية وهو الدور الذى اكتسبته فى عهود الأباطرة الضعاف(٢).

إلى جانب ذلك فإن الإمبراطور هرقل قد أوجد عـــدة إصـــلاحات إداريـــة ساعدت فى تثبيت حكمه وحكم أسرته، وفى الانتقال بالإمبراطورية إلـــى مرحلـــة جديدة، وكان من هذه الإصلاحات، التعيينات الجديدة التى أدخلها فى الجيش وفـــى أجهزة الدولة أصحاب الثقة والخبرة من أسرته وأشـــقائه وأبنـــائهم، والمتعـــاونين معه(٣). فقد قام بتعيين ابن عمه نيكتاس Nicetas فى منصب أميـــر أحـــدى فـــرق الحرس الإمبراطورى Cont of Excubitors كما منحه لقب بطريـــق Patrice مـــع

---

(١) Theopanes Op.Cit., P.429.

(٢) ستيفن رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (سلـــسلة الألـــف كتـــاب رقـــم (٣٧٩)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١م) ص ٧٧.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.89.

احتفاظه بمنصب حاكم مصر(١)، وعين أخاه ثيودور Theodor فى منصب عميد القصر Curopalares وعمل قائدًا للجيوش البيزنطية فى حروبه ضد الفرس والمسلمين(٢).

وقام الإمبراطور هرقل بإلغاء منصب الوالى البريتورى Praetoeio Praeterus، وكان يقيم بجانب الإمبراطور فى القسطنطينية ويليه فى أهميته وفى مكانته، وتتركز مسئوليته فى إدارة شئون الإمبراطورية من النواحى المدنية والقضائية، ومسئولاً أيضا عن حكام الأقاليم والإدارات التابعة لهم، وكان فى الواقع بمثابة الوزير الأول(٣). ولذلك يرى استروجورسكى أن الإقدام على إلغاء هذه الوظيفة نقطة تحول لها خطورتها فى النظام الإدارى الإمبراطورى ويعود ذلك إلى أن نظام الثيمات الذى جاء به هرقل حل محل الولايات البريتورية التابعة للوالى البريتورى وتحولت إلى قائد الثيم الكثير من اختصاصه، كما أن الولاية البريتورية وكانت من أهم ما تميزت به النظم الإدارية البيزنطية السابقة قد تقلصت أهميتها عندما حل محلها نظام الثيم كنظام إدارى جديد(٤).

كذلك قام الإمبراطور هرقل بإنقاذ الإمبراطورية من الحالة الاقتصادية المتردية التى وصلت إليها، فقد واجه عند اعتلائه عرش الإمبراطورية اقتصادًا منهارا، بلغت ذروته تلك المجاعة الشديدة التى تعرضت لها الإمبراطورية فى السنة الأولى من حكمه "إذ عرض بالروم جوع شديد حتى أكل الناس الجيف وجلود البهائم"(٥)، وتزامن مع هذه المجاعة هزة أرضية عنيفة ذمرت فيها منازل كثيرة، وانتشر مرض الطاعون(٦).

---

(١) رانسيمان، مرجع سابق، ص ٩٢، ١٦٤.

(٢) أسد رستم، الروم / ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل: الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى (دار المفرد الرياض، ١٤١٥م) ص ٢٢٥.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.100 ولمزيد من التفاصيل عن نظام الثيمات انظر الصفحات (١١ – ١٣).

(٥) اغابيوس بن قسطنطين المنبجى: المنتخب من تاريخ المنبجى، انتخبه وحققه د. عمر عبد السلام تدمرى (دار المنصور، طرابلس – لبنان، ١٩٨٦م) ص ٢٦.

(٦) Finaly, History of Greece, Vol. I, Oxford, 1977, Vol. I, P. 230

وساهمت التطورات العسكرية فى زيادة هذه الأزمة الاقتصادية فالفرس واصلوا تقدمهم فى سوريا ومصر، والآفار زادوا ضغطهم على الأراضى البيزنطية، مما أدى إلى توقف حركة التجارة، يضاف إلى كل ذلك أن الإمبراطور هرقل قد تسلم دولة خاوية الخزينة، محملة بأعباء مالية ضخمة وجيش جرار من موظفى البلاط(١)، وكانت تهدئة الفرس والآفار تحتاج إلى مبالغ طائلة من الأموال.

ولهذا سعى الإمبراطور للتعامل مع الأزمة الاقتصادية مبكرًا حتى يستطيع إنقاذ اقتصاد الإمبراطورية المنهار واتخذ لمواجهة ذلك عدة إجراءات منها: تحديد عدد الموظفين ورجال الدين فى كنيسة آيا صوفيا، وذلك لتوفير رواتبهم(٢). وقام بإصدار عملة فضية جديدة تزن ستة جرامات وقيمتها المعلنة ضعف قيمتها الحقيقية واستخدمها لدفع مرتبات الجند والموظفين، وتبع ذلك تنظيم دور سك العملة ودمج عدد من الإدارات المالية التى كانت قائمة وتحقيق مزيد من الإشراف المركزى للدولة وتحكمها فى كل ما يتصل بدخلها من حيث مواردها ونفقاتها(٣). وكان أخطر تلك الإجراءات هى قيام الإمبراطور هرقل بفرض ضريبة قدرها ثلاث قطع من الذهب على كل من يكون له الحق فى الحصول على الخبز المحلى، ثم تطور الأمر إلى إلغاء توزيع الخبز المجانى(٤)، وهو الخبز الذى كان يحصل عليه سكان القسطنطينية مجانًا منذ فترة حكم الإمبراطور قنسطنطين الأول، مما أدى إلى حدوث اضطرابات فى القسطنطينية وتأثر عدد واسع من قطاعات المجتمع بهذه الخطوة خاصة الخبَّازون وملاك السفن الذين ينقلون الغلال وأصحاب المصلحة فى الحصول على هذا الخبز المجانى(٥). وهذا دفع الإدارة البيزنطية إلى بذل جهود واسعة لحل الأزمة بالسعى إلى إنتاج محصول القمح بمساعدة المنتجين فى تراقيا

---

(١) مورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، ومحمود يوسف، القاهرة ١٩٥٠م، ص ١٥٧.

(٢) Stratos, A.N., Byzantum in the seventh century, (602 – 634) Trans by, Marco Ogilvie – Grant, Amaterdam, 1968, Vol. I, P. 123

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

(٤) Finaly, Op. Cit., Vol. I, P.319

(٥) الباز العرينى: كتاب والى المدينة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م١٩. (مايو ١٩٥٧م) ص ١٤٣.

وآسيا الصغرى وعلى ساحل البحر الأسود، وعلى هذا أدت الأزمة إلى ازدهار زراعة القمح فى هذه المناطق(١).

وأحدث الإمبراطور هرقل تغييرا جذريا فى نظام الطوائف المهنية والتجارية العاملة فى الإمبراطورية، إذ أن النظام الموروث عن الحكومة الرومانية كان ينص على إلزام الابن بممارسة مهنة أبيه، وأن تكون هناك طوائف خاصة خاضعة لسلطان الدولة تضم التجار والحرفيين فى سائر أنحاء الإمبراطورية، فلم تعد عضوية الطوائف وراثية، وأضحى قبول الأعضاء بالطائفة اختياريا بعد أن كان إجباريا، فلا يشغل الوظائف الخالية بالطائفة إلا من يجتاز امتحاناً يعقده رؤساء الحرف وموظفون من قبل الدولة، مما أعطى الدولة مزيدًا من السيطرة والسلطان على هذه الطوائف(٢).

كما تم التوسع فى مكاتب التجارة الخارجية بعد أن كانت تجارة الدولة الخارجية تخضع لموظف إمبراطورى واحد يدعى Commericiarii وكانت مهمته مراقبة التجارة الخارجية من خلال أسواق دولية خاصة تقام بصفة دورية، وأصبح هناك عدد كبير من المكاتب التجارية فى كل مرفأ أو ميناء هام وكل طريق ينتهى إلى الإمبراطورية(٣)، لتحقيق الانتعاش التجارى وإحكام الرقابة الجمركية.

ومن أهم الإصلاحات التى تنسب إلى عصر هرقل نظام الثيمات Themes وهو نظام عسكرى وإدارى استدعته الظروف التى أصبحت عليها الإمبراطورية فى مطلع القرن السابع الميلادى، فقد كانت معظم أراضى الإمبراطورية – وبالذات الغنية منها – خارج سلطة الدولة، وبما أن خزائن الإمبراطورية خاوية لا تستطيع الدفع للجنود المرتزقة مقابل خدماتهم، فقد فكر الإمبراطور هرقل فى نظام إدارى وعسكرى جديد يحقق إمكانية الصمود وتوفير الجند الوطنيين الذين يدينون بالولاء

(١) Stratos, Op. Cit., Vol. I. P. 125

(٢) الباز العرينى: كتاب والى المدينة، مرجع سابق، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠م) ص ٧٤.

لبلادهم، وقرر أن ينزل بعضًا من الفرق العسكرية فى الأقاليم المهددة بالخطر، ومنح جنودها قطعًا من الأراضى يستغلونها مقابل أدائهم الخدمة العسكرية، وذلك لترغيبهم فى الاستقرار، وتشجيعهم على الاستماتة فى الدفاع عنها، وبذلك نشأ نظام الثغور والثيمات[1].

وقد كثر الجدل حول نشأة نظام الثيمات، وهل ظهر فى عهد الإمبراطور هرقل أم قبله أم بعده؟!

فقد قيل إن كلمة "ثيم" تعنى فى الأصل حامية أو فرقة عسكرية، وكان الاصطلاح يطلق فى الأساس للدلالة على القائمة التى يدرج فيها أسماء أولئك الذين من واجبهم الخدمة فى الجيش وبمرور الوقت استخدم للدلالة على جزء من الجيش، يقيم بطريقة دائمة فى إقليم ما، ويتولى الدفاع عنه، ثم أخذت الكلمة تستعمل للدلالة ليس فقط على الفرقة العسكرية ولكن أيضا على الإقليم أو المنطقة التى تتمركز بها[2].

وهناك من يرى أن أصل كلمة "ثيم" وتاريخها وتفسيرها ظل موضوعًا غامضًا، فى حين يرى آخرون أن كلمة "ثيم" كلمة دخيلة تعود إلى الفترة المبكرة من القرن السابع وأنها مشتقة من كلمة Tumen فى لغة الخزر التركية وتعنى تشكيلاً مكونًا من عشرة آلاف جندى[3].

ويعتمد عدد من المؤرخين على ما ذكره الإمبراطور قنسطنطين السابع بورفير جينتوس (٩٤٤ – ٩٥٩م) فى كتابه الثغور Thematibus على أن نظام الثغور يعود إلى عهد الإمبراطور هرقل[4] وعلى أن أولى الثيمات أسسها هرقل لمواجهة خطر الفرس، وأن وظيفة قائد الثيمات ما هى إلا تطوير لوظيفة Magister

(١) الباز العرينى: أجناد الروم (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦م) ص٥، إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون، الطبعة الثانية (الدار القومية للطباعة والنشر) القاهرة ١٩٦٣م، ص ١٥٨.

(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I.P.275

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 273

Militum (الرئيس العسكرى) التى زود صاحبها بسلطات عسكرية وإدارية واسعة وهى أصل وظيفة الاكسرخونية Axarchatc (الوالى العسكرى) التى استحدثها موريس[1].

وأيا كان الخلاف بين المؤرخين حول بداية هذا النظام وتشكيلاته، إلا أن الأمر المؤكد أن الإمبراطور هرقل كان عاجزًا عن دفع رواتب الجنود المرتزقة الذين كانت تعتمد عليهم العسكرية البيزنطية، كما أن هرقل من واقع خبرته العسكرية وتجربته كان يعلم أن الجنود المرتزقة هم أردأ العناصر العسكرية، وقد كان نظام توطين المواطنين فى الأرض فى مقابل الخدمة العسكرية نظامًا معروفًا لديه ومعمولاً به فى الولاية التى جاء منها وهى شمال إفريقيا[2]. كل هذه العناصر دفعت الإمبراطور هرقل إلى تطوير الأنظمة العسكرية التى كانت موجودة والاستفادة منها فى الوصول إلى التنظيم الذى يعينه على تحقيق النهضة العسكرية التى تطلبتها الظروف التى كانت محيطة بالإمبراطورية، وهذا لا يعنى أن النظام ظهر كاملاً ابتداءً من فترة الإمبراطور هرقل ولكن لا مفر من الإقرار أنه قد تم وضع لبنته الرئيسية فى هذه الفترة، ليأتى خلفاء الإمبراطور هرقل من بعده ويسهمون فى تطويره مع ما يتفق مع مستلزمات الأحداث وتطوراتها فى عهودهم[3].

ومن المؤرخين من يرى أن هرقل قد استفاد نظام الثغور أو الثيمات من أعدائه وجيرانه الفرس[4]، وأن إعادة تنظيم الإمبراطورية فى القرن السابع كان محاكاة لذلك التنظيم الذى تم فى فارس فى القرن السادس حين قسمت البلاد إلى أربعة أقسام كبيرة تخضع لسلطان أربعة من القادة العسكريين هم الأصبهبذون

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. 2,P.341.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit.. P.97

(٣) د. ليلى عبد الجواد، الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل (دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٨٥م) ص١٨٠، ١٢١.

(٤) ارثر كريستنس: إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت ١٩٥٧م) ص ٥٦٧.

ونوابهم المرازبة[1]. ولا يستبعد أن الإمبراطور هرقــل فــى محاولــة لمواجهــة الظروف الإدارية والعسكرية التى أضحت عليها الإمبراطورية قام بدراســة نظــم الحكم لدى أعدائه قبل أن تبدأ حملاته على فارس، وحاول أن يستفيد منهــا حــين سعى إلى دمج السلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى يقــوم علــى رأس الجيش فى منطقة معينة، مما يعتبر نواة لظهور نظامه الجديد وهو نظام الثيمات[2].

على أية حال لقد تمثل النظام الجديد فى دمج جيش الأطراف أو الحدود مــع نظام الإرخونيات، وبمقتضى النظام الجديد استقر الجند فى الأراضى مثلمــا كــان شائعا فى الإرخونيات وتغلب العامل العسكرى، وأصبح حاكم الثغر والــذى كــان يسمى بالاستراتيجوس Strategus ويقابل من كان معروفا بالأرخون؛ هو المــسيطر على هذا الثغر أو الإقليم[3].

ويعين الاستراتيجوس من قِبَل الإمبراطور مباشرة، وهو عضو فى الــبلاط الإمبراطورى، ومسؤول عن جميع شؤون إقليمه العــسكرية والإداريــة والماليــة والاقتصادية والقضائية[4]، ويخضع لسلطته عدد من الموظفين العسكريين والمدنيين مهمتهم إدارة هذا المزيج من الواجبات العسكرية والمدنية والقضائية والمالية التــى تدخل فى نطاق وظيفتهم، ومن هؤلاء الموظفين الــProtomandator وهــو أكثــر الموظفين أهمية، وكان يعمل قاضيا للثغر[5] وإلى جانب مسؤوليته عــن النــواحى المالية والإدارية، له حق مخاطبة الإمبراطور مباشــرة. وهنــاك ال Chartularius وهو المشرف على التجنيد والمؤن ومرتبات الجند[6].

---

(١) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ١٢١. والأصبهبذون هم أصحاب تدبير الملك، وقد عهد لكل واحد منهم بتدبير جزء من أجزاء المملكة، والمرازبة هم أصحاب الثغور، ليلى عبد الجواد، مرجع سابق، ص١٢٥.

(٢) Baynes and moss, Byzantium, Oxford 1948, P. 285، واسد رستم: الروم، ج ١، ص٢٧٨.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.87

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 276

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.277

(٦) Baynes and moss, Byzantium, P. 291

وكانت نواة التنظيم العسكرى فى كل ثيم هى الفصيلة Bandon، والتى تعتبر الوحدة الأساسية فى التنظيم ويتولى قيادتها قائد يحمل لقب كوميس Komes، وكانت كل مجموعة من الفصائل (ما بين فصيلتين إلى ثمانية) تشكل كتيبة عسكرية تعرف باسم Tama يتولى قيادتها قائد يعرف باسم تورماخ Tormach(١) أو طرماخ كما تطلق عليه المصادر العربية(٢).

وبالإضافة إلى الوحدات العسكرية الكبيرة المعروفة بالثيمات كانت هناك وحدات إدارية عكسرية أصغر تسمى كليزورات Kleisourachia ترابط على الحدود، ولقائدها نفس سلطات وصلاحيات قائد الكتيبة، لأن معظم قادة الكليزورات كانوا قبل ذلك قادة كتائب، ثم انفصلوا عن سلطة الاستراتيجوس فى الثيم الذى كانوا ينتمون إليه أصلا(٣).

ولا شك أنه كان لظهور وتطبيق نظام الثغور فى الإمبراطورية فوائد جمة عادت بالنفع على الإمبراطورية ومنها: توفير جيش مقاتل من داخل الإمبراطورية بدلا من اللجوء للجند المرتزقة الأجانب الذين اعتمدت عليهم الإمبراطورية لفترة طويلة، حيث قامت الدولة بتقسيم الأراضى التى ينزل بها الجند إلى ضياع ووزعتها عليهم بشرط أداء الخدمة العسكرية، وأصبح الفلاحون المجندون المستقرون فى الثغور عنصرًا أساسيًا فى القوات المسلحة، وكانت أراضيهم تمد الجيش بالتموين اللازم، وأفاد ذلك من ناحيتين هما: وجود جيش جاهز للقتال، وتخفيف الأعباء المالية على خزانة الإمبراطورية(٤).

---

(١) د. عبد الرحمن العبد الغنى: الحدود الإسلامية البيزنطية (حوليات كلية الآداب الكويتية رقم (١١). الكويت ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) ص٢٧.

(٢) ابن حوقل (أبو قاسم النصيبى): صورة الأرض، بيروت ١٩٧٩م، ص ١٧٨.

(٣) عبد الرحمن العبد الغنى، مرجع سابق، ص٢٩.

(٤) حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٠م) ص٧٧.

وأفاد ذلك أيضا فى نمو الفلاحة الحرة، وبروز طبقة الفلاحين الأحرار الذين أوجدوا التوازن فى ملكية الأراضى وفى البناء الاقتصادى للدولة، وحدُّوا من سيطرة طبقة النبلاء الأقوياء فى آسيا الصغرى ومناطق الثغور، وكانت مصالحهم لا تتعارض مع مصالح الإمبراطورية بعكس الطبقة الأرستقراطية القديمة من كبار ملاك الأراضى، واشتهر هؤلاء بالحرص الشديد والغيرة القوية فى الدفاع عن ممتلكاتهم، فضلا عما يدفعونه من ضرائب للدولة، وأصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعدل أهميتهم العسكرية، وشدَّ من أزرهم قانون الفلاح الذى يرجح أنه يعود إلى هذه الفترة[١].

كما أن هذا النظام شجع الجنود على الاندماج فى الإقليم الذى يقيمون فيه وحدوث التزاوج بينهم وبين السكان المحليين[٢]. على أن أهم ما استفادته الإمبراطورية من هذا التنظيم كان توفير الجند الوطنيين التى كانت فى أمس الحاجة إليهم للدفاع عن نفسها أمام الظروف والأعداء الذين أحاطوا بها، وتجديد دماء الإمبراطورية وهى تستهل قرنًا جديدًا من تاريخها حفل بالكثير من الأحداث والتغيرات.

---

(١) هس: العالم البيزنطى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد (دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٨٤م) ص١٢٢.

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 272.

تطورات الصراع مع الفرس:

استفاد الإمبراطور هرقل من هذه التغييرات والإصلاحات في التصدى للخطر الداهم الذى كان يواجهه، وهو الخطر الفارسي[١]، فقد كان الفرس قد بدأوا هجماتهم على الأراضى البيزنطية قبل أن يستحوذ الإمبراطور هرقل على عرش بيزنطة. ورغم أن هرقل حاول أن يوقف التقدم الفارسي عن طريق الرسائل والهدايا، والتقرب من ملك فارس، وإعلامه بأنه تم الانتقام من قتلة الإمبراطور موريس، إلا أن كل ذلك لم يكن كافيًا لتهدئة الفرس، ووقف تقدمهم فى الأراضى البيزنطية[٢].

تركزت خطة الفرس فى بداية حكم الإمبراطور هرقل على انتزاع الجناح الشرقى من الإمبراطورية، مستغلة الظروف السيئة التى كانت تمر بها الإمبراطورية، فبادر القائد الفارسى شهرباراز Shrbaraz[٣] بالتقدم نحو أنطاكية[٤]، والتى كانت من أجلّ وأكبر المدن البيزنطية فى أعالى بلاد الشام وأكثرها حصانة ولكنها سقطت فى يده، وقتل بطريركها وأخذ الفرس عددًا من الأسرى، ثم واصلوا تقدمهم حيث استولوا على أبامية Apamea وحمص سنة ٦١١م[٥].

---

(١) هـ. ايدرسن بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح المصرى، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، ط الثالثة (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م) ص١٩٢.

(٢) Theopanes, Op. Cit., P.431. والمعروف أن موريس هو الإمبراطور البيزنطى السابق لفوكاس وكان قد أقام علاقات جيدة ومصاهرة مع كسرى الفرس وسيرد عنه فى صفحة ٦٥ حاشية ٢ تفاصيل أكثر.

(٣) شهرباراز هو اللقب الذى أطلق على القائد الفارسى رومزان Romizan، وتعنى بالفارسية خنزير الملك، وكان الخنزير رمزا للقوة والرجولة فى فارس، آرثركريستنس، مرجع سابق ن ص ١٢٧.

(٤) تكتسب أنطاكية أهمية خاصة فهى أول مدينة تقام بها كنيسة نصرانية، وكانت تتمتع بحصانة طبيعية وأسوار منيعة ولكنها سقطت هذه المرة بسهولة لأن هناك موجة من الاضطرابات والشغب شغل المدينة وقادة اليهود فى بداية حكم هرقل، تاريخ المنبجى، مصدر سابق، ص٢٥.

(٥) أسد رستم، الروم، ج ١، ص٢٢٤، وأبامية مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص وتسمى أحيانا فامية انظر: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧.

وفى نهاية عام ٦١٢م كان الفرس قد حققوا انتصارات هامة باستيلائهم على الجزء الأكبر من سوريا مما جعل البيزنطيين يفقدون اتصالهم البرى بولايتهم فـــى فلسطين ومصر وإفريقيا[١].

إزاء هذا الوضع الجديد المتدهور فى الجانب البيزنطـــى بـــدأ الإمبراطـــور هرقل فى التحرك، فقرر استدعاء القائد فيليبكوس Philippicus صهر الإمبراطـــور السابق موريس، والذى كان له سابق خبرة فى قيادة الجيوش البيزنطية، وكان قـــد ارتدى ثياب الرهبان، وترك خدمة الجيش ليخدم فى الكنيسة، واستطاع الإمبراطور إقناعه بقيادة الجيش الذى قرر إرساله لمحاولة استرداد سوريا[٢]. وقاد الإمبراطور هرقل وابن عمه نيكياس وأخوه ثيودور جيشًا آخر خاض معارك دامية أمام أبواب أنطاكية عام ٦١٣م، إلا أنهم أصيبوا بهزيمة فادحة، مثلما أصيب جيش فيليبكـــوس، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام الفرس للاستيلاء على باقى سوريا وفلـــسطين، حيـــث نجح شهرباراز فى الاستيلاء على دمشق سنة ٦١٣م، ودخل فلـــسطين واســـتولى على جميع المدن الساحلية دون مقاومة[٣].

وتابع القائد الفارسى شهرباراز سيره تجاه بيت المقدس، والتـــى كـــان لهـــا وضعها الخاص عند النصارى، فإضافة إلى قداستها ومكانتها، فقد تجمعـــت فيهـــا ثروات ضخمة أثارت دائما شهية الفرس، ثم إن سقوطها كان ذا معنى اســـتراتيجيًا كبيرًا، وأثرًا نفسيًا وعقديًا مدمرًا على الإمبراطورية البيزنطية.

ويذكر فازيليف أن الفرس أرادوا الاستيلاء على المدينة سلمًا حتى يتمتعـــوا بخيراتها، حيث أرسل شهرباراز سنة ٦١٤م من مقره فى قيسارية إلى أهل بيـــت المقدس يدعوهم إلى الاستسلام والتسليم على أن ينعموا بالسلام والرخاء، وخـــضع أهل المدينة واستسلموا بعد أن قدموا هدايا كثيرة للقائد الفارسى وللأمراء الفـــرس، وغادر شهرباراز المدينة بعد أن وضع فيها حامية لحراستها[٤].

---

(١) Stratos, Op. Cit., P. 105

(٢) أسد رستم: الروم، ج١، ٢٢٤.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.85

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.237

وبعد عدة شهور وثب أهل المدينة وشبابها على الحامية الفارسية وقتلوهم، ثم أغلقوا باب المدينة، وحدث قتال بين النصارى واليهود، وأباد فيه النصارى اليهود الذين كانوا يقفون إلى جانب الفرس(١).

عاد شهرباراز وشرع فى حصار مدينة بيت المقدس، بعد أن فشلت خطة الاستيلاء السلمى عليها، ونصب آلاته ومعداته وأقام المنجنيق وبدأ الحصار، وخلال فترة الحصار التى استمرت عشرين يوما ضرب المدينة دون هوادة، ورغم البسالة التى أبداها أهل المدينة، إلا أن الفرس استطاعوا حفر سراديب أسفل الأسوار، ودعموها بالخشب وأشعلوها بالنيران، فانهارت الأسوار ودخل الفرس المدينة(٢).

وخلال ثلاثة أيام أباد الفرس عددًا كبيرًا من أبناء القدس، ولم يتورعوا عن قتل كل من يلقونه من أهلها بحقد شديد، ثم أشعلوا فيها النار، وعملوا على تخريب الكنائس وأشعلوا النار فى كنيسة القيامة وسلبوا كنوزها، وقدر عدد القتلى بما يزيد عن ٥٧ ألفا، وعدد الأسرى بـ ٣٥ ألفا(٣).

كما أسروا بطريرك المدينة " زكريا " وأجبروا عددًا من رجال الدين على الإدلاء بمكان صليب الصلبوت وهو أثمن المقدسات النصرانية. وجمعوا الأموال والمجوهرات والأسرى وأرسلوها إلى كسرى(٤).

وكان لسقوط مدينة بيت المقدس أثره الكبير ليس على الإمبراطورية البيزنطية بل على النصارى بشكل عام، فبهذا السقوط أنزل الفرس بالإمبراطورية هزيمة كبيرة ولطمة قاسية، وعم القسطنطينية شعور عميق بالأسى والحزن، كما تسبب ذلك فى إضعاف هيبة الإمبراطورية بشكل لم يسبق أن فعلته كل الهزائم السابقة(٥).

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.86

(٢) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٢١٤، نقلا عن سيبوس Sebeos الذى كتب تاريخ هرقل Histoired, Hercalius, P.68

(٣) أسد رستم: الروم، ج١، ٢٢٤.

(٤) Theopanes, Op. Cit., P.431

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.237

وبالاستحواذ على القدس استكمل الفرس استيلائهم على سوريا، وبدأوا يتحركون لموقع آخر من أراضى الإمبراطورية البيزنطية ليطبقوا عليه ويعرضوها لمزيد من الهزائم، وكانت نقطتهم التالية هى مصر أهم أراضى الإمبراطورية من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية، حيث انطلقت جيوشهم ابتداء من ٦١٦م عبر غزة والصحراء فاستولوا على العريش (رينو قولورا Rhinokulura) ثم على الفرما وممفيس فى طريقهم إلى بابليون حتى وصلوا إلى الإسكندرية[١].

وبعد حصار طويل استطاعوا الاستيلاء على الإسكندرية عن طريق الخيانة من داخلها، وكان أن عاملوا أهلها بقسوة وعنف، حيث يذكر سايروس ابن المقفع فى تاريخه عن بطاركة الإسكندرية أن الوالى الفارسى أمر كل رجل فى مدينة الإسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ – ٥٠ عاما أن يخرجوا ليأخذوا عشرين دينارا، وعندما اجتمع شباب المدينة ورجالها، كتب أسماءهم وهم يظنون أنهم سيأخذون العطية التى وعدهم بها، ولكن عند خروجهم أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعا بالسيف وبلغ عددهم ثمانية آلاف رجل[٢].

أحدث الاستيلاء على مصر أثرًا بالغًا فى عالم ذلك العصر، فقد عادت مصر إلى السيطرة الفارسية بعد فترة تزيد على التسعة قرون، وكان ملوك الفرس الساسانيين يطمعون دائمًا إلى أن يمدوا حدودهم إلى ما كانت عليه فارس أيام إمبراطورية الأخمينيين[٣].

---

(١) الفريد بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد (المركز العربى للنشر والتوزيع، والقاهرة، ١٩٨٩م) ص٥٣. والفرما مدينة على الساحل، وهى مدينة قديمة بين العريش والفسطاط وشرق منيس على ساحل البحر. ياقوت الحموى، ج ٤، ص٢٥٦.

(٢) سايروس ابن المقفع: تاريخ بطاركة الإسكندرية، سلسلة التراث العربى المسيحى (مطبعة دار العالم العربى، القاهرة، ١٩٧٨م) ص٢٢١.

(٣) طه باقر وآخرون: تاريخ إيران القديمة (مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٢م) ص٥١. والأخمينيون Achaemenides هم حكام فارس قبل الأسرة الساسانية ويعودون إلى القرن الثانى قبل الميلاد، لمزيد من التفصيل عن دولتهم انظر: حسن برينيا، تاريخ إيران القديم، ترجمة محمد نور الدين، والسباعى محمد السباعى، القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٢٢.

وقد اعتبروا ذلك انتصارًا وفخرًا كبيرًا، كما أن خسارة الإمبراطورية البيزنطية كانت كبيرة. فقد كانت مصر مركزًا ثقافيًا كبيرًا، وذات أهمية إستراتيجية فى البحر المتوسط، ومخزن غلال الإمبراطورية، وبضياعها توقفت إمدادات القمح المصرى، مما كان له أبلغ الأثر فى زيادة الأزمة الاقتصادية الطاحنة فى بيزنطة(١).

وفى الوقت نفسه الذى سقطت فيه مصر فى يد الفرس، كان جيش فارسى آخر يتقدم فى آسيا الصغرى، وينجح فى عام ٦١٦م فى الوصول إلى كريسبوليس Chrysoupolis (سكوتارى حاليا) ويقيم معسكره فى خلقدونية التى تقع على بحر مرمرة بالقرب من البوسفور فى مواجهة العاصمة البيزنطية التى أصبحت على مرمى النظر من المعسكر الفارسى(٢).

كان وصول الفرس إلى هذه النقطة الهامة، ونقلهم الصراع إلى مشارف العاصمة البيزنطية، رسالة تحمل كل معانى التهديد للإمبراطورية البيزنطية ولإمبراطورها. وقد عاش شعب بيزنطة أيامًا مرعبة وهم يتوقعون الهجوم الفارسى عليهم، خاصة وأن آثار حرائقهم وتدميرهم بدت واضحة على الشاطئ المجاور. لقد أصبحت الإمبراطورية البيزنطية قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، فولاياتها الغنية فى الشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى قد استبيحت للفرس، والآفار والصقالبة يهاجمونها من الغرب، والأزمة الداخلية فيها طاحنة، وما زال حكم هرقل فى الداخل يعانى من الاضطراب والصراع رغم مرور عدة سنوات على تسلمه العرش(٣).

---

(١) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م) ص٧١.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.87

(٣) عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، (الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٧٧) ص٩١.

بدأ الإمبراطور يشعر بالضيق والملل والرعب، وأخذ يفكر فى البحث عن وسائل تنقذه وتنقذ عاصمته. وقبل أن يفعل ذلك فكر فى اللجوء إلى الدبلوماسية، وطلب عقد لقاء مع القائد الفارسى شاهين، حيث زوده بالهدايا وعرض عليه عقد معاهدة سلام مع الفرس(١). وانتهت المفاوضات بأن يقوم وفد بيزنطى بحمل رسالة إلى كسرى للتفاوض معه حول معاهدة سلام، وأعد البيزنطيون سفارة تكونت من البطريق أوليمبوس Olympius، ووالى المدينة ليونتيوس Leontius والقس أناستاسيوس Anstasius وسنيكلوس Syncellus قيّم كنيسة القديسة صوفيا والمسؤول عنها، وقد حملت السفارة معها خطابًا إلى كسرى من رجال السناتو(٢).

وسرعان ما انقلب شاهين على السفارة البيزنطية، بعد أن عبرت الأراضى البيزنطية، أصدر أوامره بتقييدهم بالسلاسل، وأرسلهم إلى كسرى حيث أساء كسرى معاملتهم(٣).

وكان كسرى فارس ينتظر من شاهين أن يرسل إليه هرقل مقيدا بالسلاسل، بدلاً من إجراء مفاوضات معه، مما أسخطه على شاهين(٤). ومن ثم أصدر أوامره إلى جنوده المعسكرين فى خلقدونية لمهاجمة العاصمة البيزنطية، وكانوا قد جهزوا

---

(١) تختلف المراجع فى ذكر من الذى طلب عقد اللقاء، فبعضها يذكر ذلك والبعض الآخر يذكر أن شاهين هو الذى طلب عقد لقاء مع الإمبراطور وقدم له فروض الطاعة، لتوضيح ذلك انظر: ليلى عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٢) اختلف المؤرخون فى السبب الذى جعل السناتو (مجلس الشيوخ) وليس الإمبراطور يكتب الرسالة، فيرى البعض أن السبب هو أن السناتو كانت له اليد الطولى على هرقل وعلى الحكم فى بيزنطة، وأن هرقل كان مشغولا مع المعارضين له، ومنهم من يرى أن كسرى لم يكن يعترف بهرقل، وأنه سبق وأن نفى الاعتراف بشرعية خلفاء موريس، وهناك من يرى أن السناتو قد حمل على عاتقه مهمة إنقاذ العاصمة البيزنطية، كما أن سيطرة السناتو كانت بارزة فى بداية حكم هرقل، خاصة وأنهم هم الذين استدعوه وبايعوه على العرش بعد سقوط فوكاس، عن هذه التبريرات انظر: Finely, Op. Cit., Vol. I, P.343

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.87

(٤) طه باقر: تاريخ إيران، مرجع سابق، ص ٦٤.

سنة ٦١٩م عددًا كبيرًا من السفن استعدادًا لمهاجمة القسطنطينية[١]، وقد دارت معركة بحرية بين الطرفين، هُزم فيها الفرس بعد أن تكبدوا آلاف القتلى ودمرت سفنهم[٢].

وتعود أسباب هذه الهزيمة إلى أن الفرس لم يكونوا بحارة أو مدربين على القتال البحرى، على أن نتيجة هذه المعركة فتحت آفاقًا جديدة فى الصراع بين الدولتين[٣]. وعلى الرغم من نشوة النصر المحدود الذى حققه البيزنطيون على الفرس فى أعقاب حملة سنة ٦١٩م البحرية، إلا أن الإمبراطور هرقل شعر أنه لا يستطيع أن يبقى مكتوف اليدين وهو يشاهد الجموع الفارسية على مد النظر من عاصمته، تهدده من ناحية البحر، وجموع الآفار الذين عبروا تراقيا وبدأوا تهديد العاصمة من ناحية البر[٤]. فأخذ يفكر فى أسلوب عملى يستطيع به رد الأعداء والتعامل معهم بنفس وسائلهم، وفى لحظة يأس فكر الإمبراطور هرقل فى ترك عاصمته ونقل مقر حكمه إلى شمال إفريقيا، ليستطيع من هناك إعداد جيش كالذى جاء به لتخليص بيزنطة من فوكاس عام ٦١٠م، وصارح الإمبراطور بهذه الفكرة البائسة بطريرك القسطنطينية سرجيوس الأول Sergius I (٦١٠ – ٦٣٨م) وأهل الرأى والمشورة فى عاصمته، فصدموا لهذه الفكرة وأخذوا يضغطون عليه وطالبه البطريرك بأن يقسم يمينًا فى كنيسة آيا صوفيا بأنه لن يترك عاصمته[٥].

بدأ الإمبراطور والبطريرك يفكران بشكل عملى للخروج من هذا المأزق، وقرر الإمبراطور أنه لابد من السعى لبناء جيش قادر على رد الأعداء الذين يحيطون بالعاصمة، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتوفر الأموال اللازمة، واتخذ

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.104

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.285

(٤) د. وسام فرج: دراسات فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، مطبعة مصنع الإسكندرية للكراس، الإسكندرية ١٩٨٣م، ص١٥١.

(٥) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥. الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص١١٦.

البطريرك سرجيوس قرارا كبيرًا وخطيرًا حين عرض أن تضع كنيسته والكنائس الأخرى ذخائرها وأموالها ومجوهراتها تحت تصرف الإمبراطور، وذلك على سبيل القرض حيث تتعهد الحكومة – ممثلة فى الإمبراطور – بإعادة قيمة هذا القرض عقب انتهاء الحرب(١).

وقد دل هذا الموقف على سعة أفق البطريرك، بعمله للوصول إلى حل موفق لإخراج الإمبراطورية من أزمتها(٢)، إذ أنه لو سقطت العاصمة بيد الفرس أو الآفار لضاعت هذه الكنوز ولأصبحت نهبأ للغزاة، وكانت ثروة هائلة.

وابتداء من عام ٦١٩م بدأت هذه الكنوز تحوّل إلى دار سك العملات حيث لم يُضع الإمبراطور وقته وبدأ فى إعداد برنامجه الجديد لإنقاذ الإمبراطورية(٣)، والذى تفرع إلى اتخاذ خطوات أخرى للحد من النفقات، وكان من أهمها إلغاء توزيع الحصة المجانية من القمح التى يتسلمها سكان العاصمة، كما فرضت ضرائب باهظة على رجال الدين وخفضت رواتب الموظفين بنسبة ٥%(٤)، وبذلك تكون مشكلة المال قد حلت، وبعد ذلك ركز الإمبراطور هرقل جهوده على المشكلة الأكبر وهى توفير الجيش المقاتل، وهنا تبدأ أهمية إصلاحاته العسكرية، فقد هيأت له هذه الإصلاحات جيشاً مدربًا مواليًا، استطاع أن يخوض به غمار حروبه مع الفرس.

انسحب الإمبراطور هرقل ابتداء من شتاء ٦٢١م خارج أسوار القسطنطينية، حيث أقام فى أحد القصور الملكية على الشاطئ الآسيوى، وتفرغ تمامًا لدراسة الخطط العسكرية واحتياجاته وتنظيماته، ووضع كتيبًا للإرشادات والخطط الحربية ليسترشد بها ضباطه وجنوده سماه (معلم العلوم العسكرية)، ثم

---

(١) Stratos, Op. Cit., P. 127

(٢) Theopanes, Op.Cit., P.435

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.197

(٤) أومان: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥١م، ص١٠٤.

قضى عدة أشهر فى التدريب، ورفع الروح المعنوية للجنود، وإجراء مناورات عسكرية بينهم، وكان إشرافه على كل ذلك بنفسه كاملاً[١]. كما قرر قيادة الجيش بنفسه غير مصغٍ إلى المعارضات التى أبداها مستشاروه والتى كانت تستحسن عدم قيادة الإمبراطور للجيش حفاظًا على سلامته وسلامة الإمبراطورية[٢].

وقد رأى الإمبراطور هرقل ضرورة التأكيد على احترام معاهدة السلام التى سبق توقيعها مع خاقان الآفار، فأرسل خطابًا إلى الخاقان يذكره بالمعاهدة التى بينهما وأكثر فيه من مدحه، وأنه يعتبره كوصى وأب لابنه الشاب، كما جرت العادة، ووعده بمبلغ كبير من المال إذا هو التزم بالمعاهدة ولم يستغل الظروف القادمة[٣].

وفى الرابع من أبريل عام ٦٢٢م، عبرت سفن الإمبراطور إلى خلقدونية، ومنها أخذ الطريق الإمبراطورى والذى يؤدى إلى قيصريته حيث اتخذها نقطة للتجمع، واتخذ حصنها كمقر أساسى للإمدادات خلال فترة الحرب، وقضى هناك الصيف كله وهو يجمع الجيوش ويدربها ويحفزها للقتال[٤].

وقد شعر الفرس بالاستعدادات البيزنطية، فقاموا بحركة مضادة، إذ أحكموا قبضتهم على النصارى فى مملكتهم، وفرضوا عليهم ضرائب جديدة، كما قاموا باحتلال وتأكيد سيطرتهم على الطرق التى يتوقعون قدوم الجيش البيزنطى منها[٥].

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.90

(٢) المعروف أنه منذ عهد الإمبراطور انستاسيوس الأول (٤٩١ – ٥١٨م) لم يكن هناك إمبراطور يتولى قيادة الجيش بنفسه خاصة وأن بعض الأباطرة قتلوا خلال هذه الحروب مثل جوليان المرتد، وفالنس وغيرهم، وكان الاستثناء الوحيد قبل هرقل هو قيادة الإمبراطور موريس لأحد الجيوش ضد الفرس، قبل أن يعقد اتفاقًا للسلام معهم.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.241

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 132، وأيضا: أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٢٥. وقيصرته مدينة قديمة فى بلاد الروم واتخذت عاصمة فى عهد دولة السلاجقة الروم، ياقوت الحموى، ج٤، ص ٤٢١.

(٥) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٣١.

رأى الإمبراطور هرقل أنه من الأفضل - بدلا من أن يضيع وقته وجهده ومجهود جيشه فى استعادة الأراضى القريبة فى مصر وسوريا وفلسطين - أن ينقل مسرح المعركة إلى أراضى الفرس، فيقاتلهم فى عقر دارهم(١)، لذلك نجده يترك قيصريته فى خريف سنة ٦٢٢م، ويشق طريقه نحو أرمينية فى محاولة منه لإرغام الفرس على ترك آسيا الصغرى والتخلى عن مراكزهم فيها. وما إن دخل أرمينية حتى اصطدمت طليعة جيشه بفرقة من فرسان الفرس، فتصدى لهم البيزنطيون، وقبضوا على قائدهم وأتوا به مكبلاً أمام الإمبراطور، الذى فك قيوده ووعده بالحرية إذا انحاز إليه(٢).

وعند حلول الشتاء تقابل الجيش الفارسى مع جيش الإمبراطور وجهًا لوجه ولكنه لم يعبأ بهذا الجيش واستمر فى زحفه إلى الشرق حيث عرج إلى بونطس Pontus، وتظاهر أنه سوف يقضى الشتاء هناك فانخدع الفرس بذلك وبدأوا فى الانسحاب، ليواصل هو طريقه نحو فارس. وقد شعر القائد الفارسى شهرباراز بخطة الإمبراطور، فعاد وبدأت المناوشات بين الطرفين، والتى سرعان ما تطورت إلى حرب عنيفة حيث لقى الفرس هزيمة نكراء، وتكبدوا خسائر فادحة، واحتل البيزنطيون المعسكر الفارسى(٣).

هكذا حقق البيزنطيون أول انتصار على الفرس، وكان من أهم فوائده كسر حاجز الخوف والرهبة الذى كان عليه الجنود البيزنطيون إزاء الفرس، واستعادة آسيا الصغرى وإجلاء الفرس عنها دون حرب كبيرة وإنما بخدعة عسكرية ماهرة، حيث أجبروا الفرس على أن يقاتلوا فى الموقع الذى اختاروه وفى الزمن الذى حددوه.

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.91

(٢) Theopanes, Op.Cit., P.435

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.92

ترك الإمبراطور هرقل جيشه المنتصر فى أرمينية، بعد أن وصلته أخبار نقض الآفار للمعاهدة المعقودة معهم[١]، ومهاجمتهم للعاصمة البيزنطية. ويبدو أن الفرس أعادوا الاتصال بالآفار لتأليبهم على الإمبراطورية وعندما سمع كسرى بأنباء هزيمة جيشه انتابته حالة من القلق ولكنه سرعان ما شعر بالارتياح عندما علم برحيل الإمبراطور، وبدأ يرسل الإمدادات إلى شهرباراز لتقوية جيشه، وأمره بغزو الأراضى البيزنطية، ولكنه لم يستطع تنفيذ الأوامر إلا عام ٦٢٣م، بعد أن استغرق منه إعداد الجيش وقتًا طويلا[٢].

استطاع الإمبراطور تسوية الأمور مع الآفار، ورحل مجددًا إلى أرمينية سنة ٦٢٤م، حيث التحق بجيشه الذى بلغ قمة الاستعداد، ووصل عدده إلى ١٢٠,٠٠٠ مقاتل[٣]، وتوغل بهذا الجيش إلى أرمينية الفارسية، حيث وصل إلى عاصمتها " دوفين Dovin " واستولى عليها بالقوة ثم سلبها وأحرقها، واستمر فى تقدمه واستولى على مدينة نشقفان Naxcawn بالقوة، وأصبح على مقربة من الأراضى الفارسية، حيث جمع قواته وأخذ يبث فيهم روح الحماس بخطبة التى ألقاها عليهم[٤].

أذهلت الانتصارات البيزنطية كسرى، فقام على عجل بجمع ٤٠ ألف من رجاله، وسار بهم إلى مدينة كانزاك Canzac عاصمة إقليم أذربيجان، وعندما علم الإمبراطور بأمر هذا الجيش سار على عجل إلى كانزاك حيث دارت المعركة التى هزم فيها الفرس، واستسلمت المدينة وهرب كسرى بعد أن تكبد جيشه خسائر فادحة[٥].

---

(١) سيد أحمد الناصرى: الروم، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٦.

(٣) Theopanes, Op.Cit., P.442

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 402، ودوفين بلدة من نواحى فارس فى آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس، ياقوت الحموى، ج٢، ص٤٩١. أما مدينة نسقفان، فهى أقدم مدينة فى أرمينية، وتقع شمال نهر الكر ويقال أن مؤسسها سيدنا نوح عليه السلام وبها قبره، انظر: فايز نجيب اسكندر، الفتوحات الإسلامية لأرمينيا، ج ١، ص٩٧.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.294

علم الإمبراطور هرقل أن كسرى هرب إلى مدينة تبريز Thebarmes التى تقع فى الجزء الجنوبى من أذربيجان، وأنه أحرق جميع الأعشاب والمحاصيل فى طريقه حتى يعانى الجيش البيزنطى من نقص المؤن، وكان هذا هو التكتيك الفارسى المعتاد. ولكن هرقل استمر فى مطاردته من مكان إلى آخر فى هذه المناطق الوعرة(١).

وصل كسرى فى هروبه إلى إقليم ما بين النهرين، وبدأ فى حشد جديد بقيادة شاهين، وعاد شهرباراز إلى نينوى Niniveh على الشاطئ الشمالى لنهر دجلة، بينما قرر الإمبراطور أن يقضى الشتاء فى ألبانيا Albania التى تقع فى إقليم جورجيا، وهناك أطلق خمسين ألف من الأسرى الفرس الذين كانوا فى حالة يرثى لها حتى يخفف العبء عن جيشه(٢)، وبدأ فى مراسلة حكام الأقاليم فى بلاد الأبخاز ليمدوه بالمؤن ويشاركوا فى مجهوده الحربى(٣).

أراد كسرى أن يعوض خسائره السابقة، وأن يوقف تقدم هرقل، فلم ينتظر انتهاء فصل الشتاء، بل سارع إلى تكوين ثلاثة جيوش الأول بقيادة شهرباراز، والثانى بقيادة شاهين، والثالث بقيادة شاربلانجا Sarablanga (أى النمر الملكى)(٤). ورغم إحاطة هذه الجيوش الثلاثة بهرقل، وما تعرض له من خيانة حيث انسحب حلفاؤه من لازيقا والليريا، إلا أنه استطاع التصدى لها وتحقيق الانتصار عليهما، بعد أن أعاد توزيع جيشه وبث روح الحماس فيه(٥)، ثم استطاع أن يستولى على

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.94

(٢) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٣١.

(٣) Theopanes, Op.Cit., P.446

(٤) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٣٢.

(٥) Finely, Op. Cit., Vol. I, P.395، ولازيقا والليريا هما من المناطق الحدودية التى كان يقطنها الخزر على البحر الأسود وكانت تقع تحت النفوذ البيزنطى، قبل أن يستولى عليها الفرس.

مدينة Ali، وجمع جيوشه وقضى الشتاء فى منطقة بحيرة ڤان Van، وفى المعسكرات التى كان شهرباراز قد أعدها ليقضى بها فصل الشتاء لعام ٦٢٥م(١).

بعد ثلاث سنوات من القتال الضارى أصبح هرقل سيدًا على أرمينيا الفارسية، وعلى أذربيجان وجزء من فارس، ولكنه وجد أن عاصمته أصبحت فى خطر، بعد أن علم بالمفاوضات التى كانت تجرى بين الفرس والآفار، وتوجه شهرباراز بجيش إلى آسيا الصغرى، لذلك استدعى هرقل مجلس حربه حيث تقرر أن ينسحب بسرعة، واستمر فى انسحابه حتى وصل إلى آمد (ديار بكر) ومن هناك بعث برسالة طمأنة إلى القسطنطينية يقص عليهم ما حدث وما حققه من انتصارات(٢).

وعند الفرات التقى الإمبراطور بشهرباراز حيث دارت معركة عند أحد الجسور، تكبد فيها الفرس خسائر فادحة(٣).

وجمع الإمبراطور جيشه وتوجه إلى سيباستيا Sebastya فى آسيا الصغرى، أما كسرى فقد غضب لهذه الهزائم وأرسل رجالاً يسلبون كنوز جميع الكنائس الواقعة في تخومه، وأجبر النصارى على اعتناق مذهب النساطرة، نكاية فى الإمبراطور هرقل كما فرض عليهم ضرائب جديدة لدفعها إلى حلفائه الآفار(٤).

لم يستسلم كسرى لهذه الهزيمة الثقيلة، وإنما أصدر أوامره بالتعبئة العامة وكون جيشا من الأجانب، والغرباء والمواطنين، والخدم والعبيد ومن كل الأجناس والطبقات، إضافة إلى القوات النظامية، وسمى هذا الجيش "كتائب الذهب" وأسند

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.294

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 168

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.94

(٤) وسام فرج: دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، السلاف فى شبه جزيرة البلقان، ص٧٥.

قيادته إلى شاهين[1]. أما شهرباراز فتوجه إلى القسطنطينية لينسق مــع الآفــار[2]. وفى الجانب البيزنطى قام هرقل بتقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام: أرسل أولهــا إلــى القسطنطينية لحمايتها من الهجوم الآفار الفارسى، والثانى لمهاجمة شــاهين بقيــادة شقيقه ثيودور، وتولى هو قيادة القسم الثالث[3]، حيث توجه إلى منطقة لازيقا، وعقد تحالفاً مع الخرز والشعوب النصرانية فى منطقة القوقاز للتعاون معه فى شن هجوم ضد الفرس[4].

وقد عزم الإمبراطور على السير مباشرة إلى المدائن (طيسفون Ctsiphon)، وذلك سنة ٦٢٧م حيث غادر مدينة تفليس Tivlis عاصمة جورجيا ومعه حلفاؤه من الخزر، وفى أول ديسمبر من السنة نفسها (٦٢٧م) وصل بجيوشه إلى مدينة نينوى حيث عسكر بجوارها، ثم استطاع الاستيلاء عليها بعد معركة طاحنة مع الفرس[5]. وعندما علم الإمبراطــور أن كسرى يعسكر بجيــشه فــى داســتاجرد Dastagerd (المقر الصيفى لكسرى) سارع بمهاجمتها حيث استولى عليها فى ٤ ينــاير ٦٢٨م، واضطر كسرى إلى الهرب من داستاجرد إلى المدائن[6].

وفى داستاجرد وجد الإمبراطور ثروات هائلة، واضطر البيزنطيــون أمــام كثرتها وعدم استطاعتهم حملها إلى إحراق الكثير منها، كما اضطروا إلــى حــرق معسكر كسرى وعدد آخر من القصور الملكية. وكان الهدف من ذلك هــو إدخــال الرعب فى قلب كسرى وجنوده، وللانتقام من حرق الفرس للمدن البيزنطية[7].

---

(١) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٣٠.
(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٦.
(٣) Theopanes, Op.Cit., P.448
(٤) سيد الناصرى: الروم، مرجع سابق، ص١٧٧.
(٥) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص١٢٧.
(٦) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٥١
(٧) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص٢٦٣.

ورغم انتصارات هرقل المتتالية، فإنه عرض الصلح مع كسرى على أساس العودة إلى حدود عام ٦٠٢م، وإطلاق سراح الأسرى، إلا أن كسرى رفض هذا العرض المشرف له[١]. وقد برر بعض المؤرخين سبب إقدام هرقل على هذا العرض – رغم انتصاراته – إلى أن الإمبراطور الذى قضى خمس سنوات فى حروب مستمرة مع الفرس عبر آسيا الصغرى، وإقليم القوقاز والأراضى الفارسية، كانت حياته فى خطر دائم وجُرح فيها عدة مرات، كما أن تكاليف الحرب كانت باهظة، مما دعاه إلى طلب الصلح[٢]، ولكن كسرى لم يكن مستعدًا للتسليم بهذه النهاية، لذلك رفض وقف الحرب، مما كان سببًا فى احتقار أتباعه له، ونقمة شعبه وجيشه عليه[٣].

غادر الإمبراطور هرقل داستاجرد فى السابع من يناير ٦٢٨م، ثم عسكر على بُعد اثنى عشر ميلاً من قناة النهروان Nahr-wan حيث تجمهرت بقايا جيش الفرس، وهو على بعد عدة أميال من عاصمة الفرس (المدائن) التى يشطرها نهر دجلة إلى قسمين[٤]. وانعقد مجلس الحرب البيزنطى، حيث قرر الهجوم على المدائن، إلا أن هناك عدة أسباب حالت دون إقدامه على ذلك منها:

١- أن الفرس قطعوا الجسور، ولا توجد مخاضة أو مكان يمكن منه عبور قناة النهروان إلى المدائن[٥].

٢- الخطر الذى يشكله جيش شهرباراز الموجود فى خلقدونية، والذى استدعاه كسرى لمساعدته[٦].

---

(١) Theopanes; P.448

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 217

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.96

(٤) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٥٠.

(٥) Theopanes, Op.Cit., P.453

(٦) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص٢٦٧.

٣- يبدو أن البيزنطيين كانوا يراقبون عن كثب التطورات السياسية في فارس، فرأوا أن انتصارهم يكمن في تتبع وتغذية الانقسامات والنزاعات داخل دولة الفرس، وهذا أكثر فائدة من المخاطرة بالهجوم على عاصمتها الآهلة بالسكان(١).

وقد صح ما توقعه البيزنطيون، ذلك أنه في ربيع عام ٦٢٨م وقع ما جعل المضي في الحرب والقتال أمرًا لا داعي له، حيث اندلعت الثورة ضد كسرى، وانتهت بعزله(٢).

وكانت هناك أسباب كثيرة دعت إلى قيام هذه الثورة ضد كسرى، ومن أهمها استمرار الحرب بين الطرفين (البيزنطي والفارسي) لفترة طويلة، وما ترتب على ذلك من ضياع خيرة قواد وجنود فارس، وما وصل إليه اقتصادها من حالة سيئة، ولجوء كسرى إلى فرض ضرائب باهظة لتغطية نفقات الحرب، وانقلاب النصارى عليه ووقوفهم إلى جانب البيزنطيين، ثم أن هروب كسرى من داستاجرد ورفضه مقترحات السلام، وإصراره على مواصلة الحرب، ومعاملته السيئة للضباط الذين فروا أثناء الحرب، كلها أسباب تجمعت وأدت إلى الثورة عليه(٣).

قاد الثورة ضد كسرى أكبر أبنائه (شيرويه) من ماريا ابنة الإمبراطور البيزنطي موريس، التي زوجها لكسرى أثناء فترة السلام بينهما. حيث علم شيرويه أن اباه قد عزم على تجاوزه وتنصيب مردانشاه ابنه الأصغر من شيرين(٤). لذلك

---

(١) Finely, Op. Cit., Vol. I, P.345

(٢) آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٧٤.

(٣) Stratos, Op. Cit., P. 223، وأيضا آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص٤٧٥.

(٤) كانت شيرين معشوقة كسرى، ولقبها "روضة الحسن وضرة البدر" وقد اعتبرها كثير من المصادر الشرقية والغربية يونانية الأصل لأنها نصرانية، ولكن الاسم الذي عرفت به فارسي هو (الحلوة) وأصلها من خوزستان، وكانت قد تزوجت كسرى في أوائل حكمه، واحتفظت بأثرها فيه بالرغم من أنها كانت أقل مرتبة من ماريا، الأميرة البيزنطية التي تزوجها كسرى لأسباب سياسية. والمعروف أن كسرى كان زير نساء، وكان له عدة زوجات، وتذكر بعض المصادر أن شيرين قد دست السم لماريا، ولم يعلم بذلك أحد، وبعد سنة من موتها أعطى كسرى غرفة نومها الذهبية لشيرين، لمعرفة تفاصيل أخرى عن حياة وبذخ كسرى وزوجاته انظر: آرثر كريستنس: مرجع سابق، ص ٤٥٨.

قام شيرويه – دفاعا عن حقوقه في العرش – باستدعاء القائد العام للجيش كشنسب أسباد Gushnasp Aspodhp، ووعده أن يحترمه وسائر قواد الجيش، وأن يرفع رواتب الجند، وأن يسعى لعقد معاهدة سلام مع البيزنطيين، إذا ما قام الجيش وأعلنه ملكًا(١).

وبدأ قائد الجيش الفارسي يتصل بالبيزنطيين لإطلاعهم على التطورات السياسية في المدائن والتمهيد لإقرار السلام، فطلب هرقل – تأكيدًا لهذه الرغبة – بإطلاق سراح الأسرى البيزنطيين الذين لدى الفرس وتسليمهم، ليساعدوه في مهاجمة كسرى، فاستجاب شيرويه وفتح قلعة النسيان وأخرج منها عددًا كبيرًا من الأسرى البيزنطيين(٢).

نفذ شيرويه خطته ودخل المدائن، ومعه القادة والضباط والأسرى الذين أطلق سراحهم وحاول كسرى الهرب ولكنه لم ينجح إذ ألقى عليه القبض، وقيد بالسلاسل وأُلقى به في بيت مظلم، وبعد خمسة أيام قتل كسرى بناء على أوامر ابنه شيرويه، وتوج شيرويه ملكا على الفرس في ٢٥ فبراير ٦٢٨م في حضور كبار رجال الحكم(٣). وبعد الخلاص من كسرى انشغل بعقد اتفاقية سلام مع البيزنطيين(٤).

وقد نصت معاهدة الصلح بين الطرفين على إعادة الحدود إلى ما كانت عليه في عام ٥٩١م، والجلاء عن جميع الأراضي التى احتلها الفرس، وإطلاق سراح الأسرى، وعودة صليب الصلبوت الذى أخذه شهرباراز من بيت المقدس(٥).

---

(١) طه باقر: تاريخ إيران القديم، ص ٢١٠.
(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.263
(٣) المنبجي: مصدر سابق، ص٢٧.
(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.299
(٥) المنبجي: مصدر سابق، ص٢٧. أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٨. الناصري: الروم، ص١٧٧.

وبهذا الانتصار العسكرى الكبير الذى حققه الإمبراطور هرقل على الفرس، خطى الإمبراطور أهم خطواته فى إصلاح أوضاع الإمبراطورية، حيث إن هذا الانتصار عاد عليها بالكثير من المكاسب المعنوية والمادية، وأعطى للإمبراطورية شرعية ومكانة كبيرة، ونقل الدولة نقلة جديدة، وأعطى للنظام العسكرى (نظام الثيمات) دفعة أخرى من التطور، جعل الإمبراطور ينطلق إلى مجالات جديدة من محاولات الإصلاح والتغيير.

محاولة إصلاح الأوضاع الدينية:

وكانت الأوضاع الدينية إحدى المجالات التى عمل الإمبراطور هرقل على إصلاحها، فقد كان الخلاف المذهبى بين مواطنى الإمبراطورية كبيرًا ومستشريا ويهدد بانفصام عُرى الإمبراطورية، وبدأ الإمبراطور هرقل عمله فى محاولة التصدى لهذا الخلاف مبكرًا(١)، ولكن هذا الدور تركز وأخذ يتبلور فى أعقاب الانتصار على الفرس وعودة الأجزاء الشرقية إلى سلطة الإمبراطورية.

فقد كانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية تدين بالمذهب المونوفيزتى Monophysitism أو مذهب الطبيعة الواحدة، بينما كانت العاصمة تدين بمذهب الطبيعتين، ويسمى عادة بالمذهب الأرثونكسى أو الملكانى أو مذهب خلقدونية(٢)، وقد بلغ التنافر بين المذهبين حدًا كبيرًا كان يهدد بفصم عُرى الإمبراطورية وعقيدتها، وركز الإمبراطور هرقل جهوده لحصر هذا الخلاف عن طريق صديقه بطريرك القسطنطينية البطريرك سرجيوس(٣) Sergius الذى اجتهد فى الوصول إلى صيغة واحدة تتجاوز الخلاف الذى كان ناشبا، واهتدى البطريرك إلى مذهب الإرادة الواحدة عرف بالمونوثلستية(٤) Monothelism، والذى يتلخص فى أن للمسيح طبيعتين وهذا ما يدين به أصحاب المذهب الخلقدونى، ولكن لهاتين الطبيعتين فعل واحد – وهذا ما يدين به المونوفيتزتيون، فالمذهب الجديد التوحيدى يقوم على أن للمسيح طبيعتين، ومشيئة واحدة(٥)، وتبنى الإمبراطور هرقل الصيغة الجديدة وأعلنها فى مرسوم صدر سنة ٦٣٨م باسم الأكثيسيز Ecthesis، وبدأ

---

(١) أسد رستم: كنيسة أنطاكية، ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.55 ; Vasiliev, Op. Cit., Vol. I.P.105

(٣) يذكر المؤرخون ان سرجيوس الذى يعود إلى أصول سورية، ينسب إلى أبوين مونوفيزتيين، وهذا ما سهل له الوصول إلى هذه الصيغة انظر: Theopanes, Op. Cit.. P.460

(٤) إيدرسن بل: مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٢٥.

الإمبراطور والبطريرك يروجان لهذه الصيغة ويدعوان لها عبر لقاءات ورسائل متبادلة مع الزعامات الدينية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية[١]، وبالذات فى الأنحاء الشرقية ومع البابا فى روما الذى لم يعترض على الصيغة الجديدة[٢]. وحتى يضمن الإمبراطور هرقل النجاح لصيغته الجديدة فى مصر، عين فى الإسكندرية بطريركًا وحاكمًا أغسطسيًا (Praetetus Augustolis) على مصر وفى نفس الوقت أسقفًا يدعى قيرس Cyrus والذى عرف فى المصادر العربية باسم المقوقس، وهو من الذين اعتنقوا مذهب الإرادة الواحدة[٣]، ويبدو أن الإمبراطور لم يكن موفقا فى هذا التعيين، فقد كان رجلا ضيق الصدر، فلما وجد أنه من العسير استمالة المصريين إلى المذهب الجديد أخذ يضطهدهم اضطهادًا رهيبًا، مما نفر منه هؤلاء الذين أوفد ليعمل على استرضائهم[٤]، وبدأت معارضة شديدة للمذهب الجديد شملت مصر، وأنحاء من سوريا، وانضمت البابوية فى عهد البابا الجديد سفيرنيوس Severinus إلى معارضة المذهب الجديد[٥]، وكانت نهايته حينما أعلن الإمبراطور نفسه تبرأه منه – قبل وفاته – وإنه حين أقره كان خاضعًا لإملاء البطريرك سرجيوس[٦].

---

(١) Stratos, Op. Cit., P. 409

(٢) أسد رستم: كنيسة أنطاكية، ج ١، ص ٤٣٩.

(٣) د. محمد مرسى الشيخ: مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص٢٧٨. ويلاحظ أن العرب أطلقوا لقب المقوقس على حكام مصر البيزنطية قبل الفتح الإسلامى لها. وطبيعى أن " المقوقس " هذا ليس هو "المقوقس" الذى أرسل له النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام سنة (٦هـ – ٦٢٧م) انظر: موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، تاريخ مصر الإسلامية، ص٣٢.

(٤) إيدرسن بل: مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص١٩١.

(٦) جون لوريمر: تاريخ الكنيسة (دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٨م) ج ٤، ص١٩٥، وجاء هذا التبرؤ من خلال الرسالة التى بعثها الإمبراطور هرقل إلى البابا يوحنا الرابع Jean IV. وقد خلف سفيرنيوس الذى لم يمكث فى الكرسى البابوى إلا أقل من عام.

نشأة الصراع مع المسلمين:

لم تتح الفرصة للإمبراطور هرقل لأن يتمتع بتلك الانتصارات التى حققها على الفرس، أو على الآفار، أو جنى ثمار إصلاحاته وتغييراته، إذ ما لبث أن انبثق خصم جديد استطاع إحالة هذه الانتصارات إلى هزائم متتالية، ذلك أنه ما لبث أن ظهرت فى العام نفسه الذى تحقق فيه الانتصار على الفرس (٦٢٨م) الدعوة الإسلامية، حاملة آمالاً جديدة، وطموحات كبيرة ما لبث أن اصطدمت بالإمبراطورية البيزنطية وخططها للاحتفاظ بتلك الأراضى التى استعادتها من الفرس عبر حروب مريرة استمرت ست سنوات.

بدأ الاحتكاك الإسلامى البيزنطى دبلوماسيًا، وذلك عبر الرسالة التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإمبراطور هرقل[1]، ثم لبث الأمر أن تطور إلى احتكاك عسكرى عبر الحروب المريرة التى خاضها المسلمون ضد الدولة البيزنطية خلال أكثر من عشر سنوات حتى تم الاستحواذ على تلك الأراضى التى استعادها الإمبراطور هرقل من الفرس فى بلاد الشام وفلسطين ومصر.

---

(١) كانت هذه الرسالة واحدة من الرسائل التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة يعلمهم بالدعوة الجديدة ويدعوهم للدخول فيها، وكان سفير الرسول إلى هرقل دُحية ابن خليفة الكلبى، والذى سلم الرسالة إلى حاكم بصرى من قبل هرقل، والذى سلمها بدوره إلى الإمبراطور، وتتناقض الروايات حول موقف هرقل من هذه الرسالة، وعن أثرها ونصوصها، وهناك من المؤرخين من يذكروا أن هرقل تجاوب مع هذه الرسالة وكاد يسلم، لولا خوفه من انقلاب رعيته عليه، وهناك من يشكك في وجود هذه الرسالة أصلا وينفيها، وينفى حدوثها.

انظر: ابن الفراء (أبى حسين بن محمد): رسل الملوك، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ص ٤. اليعقوبى (أحمد بن يعقوب): تاريخ اليعقوبى، بيروت، ١٩٦٠م، ج ٢، ص ٧٨، عبد الجبار السامرائى،: الرسائل التى بعث بها النبى إلى ملوك الدول المجاورة، مجلة الفيصل، العدد ٥٥، الرياض ١٩٨١م، ص٧٤.

على أن الاحتكاك العسكرى الأول بين المسلمين والبيزنطيين بدأ سنة (٨ هـ/ ٦٢٩م) حين بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ما سمى بجيش الأمراء، لمحاربة النصارى العرب فى الحدود الجنوبية لبلاد الشام، والذين كانوا تابعين للإمبراطورية البيزنطية، والذين أساؤوا معاملة أتباعه ورسله وقتلوهم، وكانت عدة هذا الجيش ثلاثة آلاف مقاتل[١]، وأمَّر عليه زيد بن حارثة الكلبى، وفى حالة موته يكون القائد جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب يحل محله عبد الله بن رواحة، وقد استشهد هؤلاء القادة الثلاثة فى المعركة التى عرفت باسم "موقعة مؤتة"[٢] ثم تولى القيادة خالد بن الوليد، والذى استطاع إنقاذ بقايا الجيش الإسلامى وعاد به إلى المدينة[٣].

واختلف تقييم الطرفين لموقعة مؤتة، فبينما رأى فيها البيزنطيون حملة من حملات العرب القاطنين فى الصحراء التى طالما كانوا يشنونها على الحدود البيزنطية للنهب والسلب[٤]، رأى فيها المسلمون حملة استطلاع، وقصاصًا لقتلاهم، وحافزًا لما سيليها من حملات[٥]، حيث بدأت الخطوات العملية لإعداد جيش منظم لفتح بلاد الشام.

كانت أولى إرهاصات هذا الإعداد، حملة تبوك[٦] التى قادها الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه وذلك سنة (٩ هـ / ٦٣٠م)، وإن مرت الحملة دون قتال إلا أنه كان لها فوائد جمة بالنسبة للمسلمين، فقد تم التصالح مع أهل تبوك، ودومة الجندل

---

(١) ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) السيرة النبوية، تحقيق وتقديم طه عبد الرؤوف، القاهرة ١٩٧٤م، ج ٤، ص٨.

(٢) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٩م، ج ٣، ص ٤٠، وابن هشام، ج٤، ص ١٣.

(٣) ابن هشام، ج٤، ص ١٤.

(٤) Theopanes, Op.Cit., P.467

(٥) إبراهيم هلال: حديث هرقل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٨م، ص٧٠.

(٦) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٧٣ .

على دفع الجزية[1]. وتأمين طريق تجارتهم، ورفع روح المسلمين المعنوية، وإزالة هيبة البيزنطين من نفوس المسلمين.

ووضع الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته خطة حملة جديدة إلى بلاد الشام، جهز جيشا بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة[2] لغزو الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام، ولكن هذه الحملة ما لبثت أن تأجل خروجها بسبب مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثم وفاته[3] إلى قرابة الشهر، حيث أصر خليفة رسول الله أبو بكر الصديق على إنقاذ جيش أسامة فى أول ربيع الثانى سنة (١١ هـ / ٦٣٢م)، رغم كل المحاذير التى كانت تحيط بالدولة الإسلامية فى أعقاب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم[4].

ونجح أسامة بن زيد فى تحقيق المهمة التى بعث لها، حيث حقق انتصارا سريعًا وغنم بعض الغنائم، ولكنه لم يتورط فى التقدم فى الأراضى البيزنطية، حيث عاد إلى المدينة بعد أن قضى شهرين تقريبا فى غزواته.

ويبدو أن الظروف والأحوال السياسية والاقتصادية والدينية فى بلاد الشام كانت مهيأة لأن يحقق المسلمون انتصارات سريعة، ويحققوا تقاربًا مع العرب القاطنين هناك والذين كانوا يدينون بالولاء للإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت أزمة المذهب الدينى الموحد الذى أراد الإمبراطور فرضه على الولايات الشرقية متصاعدة[5]، وكانت الضرائب قد بدأت تعود بشكل كبير، فلم يجد الإمبراطور حلاً لأزماته المالية – فى أعقاب قيامه بتسديد ديون الكنيسة – سوى العمل على فرض

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٤، ص ١٢٤.

(٢) ابن هشام، مصدر سابق، ج٤، ص ١٩، والمعروف أن أسامة هو ابن أحد القادة الذين قتلوا فى الحملة السابقة.

(٣) توفى الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم الاثنين ٢ ربيع الأول ١١هـ / ٢٥ مايو ٦٣٢م.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ١٣٩.

(٥) ارشيبالد لويس: القوى البحرية، ص٧٨.

مزيد من الضرائب على الولايات الشرقية والتعسف في جمعها[1]، كما أن الزعامات في المناطق الحدودية والتى تعودت الحصول على مبالغ مالية من الإمبراطورية البيزنطية نظير ولائها، ودفاعها عن حدود الإمبراطورية، لم تعد تحصل على هذه الأجور، وقطعت عنهم[2].

فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق بدأ التخطيط لمهاجمة الفرس والبيزنطيين يأخذ مدى واسعا، وتركيزًا أشد، حيث اتضح لأبى بكر أن البيزنطيين – وأيضا الفرس – لن يتركوا الدولة الإسلامية الوليدة تنطلق انطلاقة طبيعية، ومستفيدًا من الاستقرار واستتباب الأمور فى الجزيرة العربية بدأ مشروعه للانطلاق خارجها غازيًا وحاملاً لواء تبليغ الدعوة الجديدة، انطلاقًا من الأسس التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته.

وبدأ أبو بكر مشروعه بأن عقد اجتماعًا فى المدينة المنورة شاور فيه كبار الصحابة ووجهاء الأنصار والمهاجرين، وبدأ فى إرسال الكتب إلى كافة أرجاء الجزيرة العربية ليمدوه بالمجاهدين والمقاتلين للانطلاق بمشروعه الكبير[3].

بنهاية عام (١٢ هـ / ٦٣٢م)، توافر لدى أبا بكر الصديق رضى الله عنه أربعة جيوش[4]، وبدأ يدفع بها إلى بلاد الشام، الواحد تلو الآخر، واستطاع أول هذه الجيوش وهو جيش يزيد بن أبى سفيان أن يهزم الجموع البيزنطية التى

---

(١) موس: ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٧م) ص ٢٤٩.

(٢) Theopanes, Op.Cit., P.469

(٣) الازدى: تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م) ص٥، ٨–١١.

(٤) كانت هذه الجيوش هى: جيش بقيادة يزيد بن سفيان ووجهته دمشق، وجيش بقيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن، وجيش بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين، وجيش بقيادة عبيده عامر بن الجراح ووجهته حمص. انظر عن تكوين هذه الجيوش وتعليمات الخليفة لها: الأزدى: فتوح الشام، ص ٤٥، ٤٨. ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٢.

تصدت له في وادى عربة – جنوب البحر الميت – بقيادة سرجيوس Sergius حاكم فلسطين، والذى لقى مصرعه بعد هزيمة جيشه[(١)].

شعر الإمبراطور هرقل فى أعقاب المصير الذى لقيه سرجيوس وجيشه – وكان يتواجد فى تلك الأثناء فى بلاد الشام – بجدية الأمر، وأن التحركات العربية تتجاوز ما كان يعتقد أنه غزوات للنهب والسلب وبدأ مجددًا يعد جيشًا بعد أن سرح كثيرًا من المقاتلين الذين رافقوه فى قتاله مع الفرس، نتيجة للأزمة المالية التى وجد نفسه فيها بعد أن قام بالسداد الفورى لديون الكنيسة[(٢)]، واستطاع الإمبراطور هرقل أن يجمع على عجل جيشًا، جعل على قيادته ثيودور Theodorus[(٣)] والذى توجه إلى جنوب فلسطين لمواجهة المسلمين.

وكان الجيش الإسلامى الثانى بقيادة عمرو بن العاص قد بدأ تحركه إلى جنوب فلسطين، وعندما شعر عمرو بن العاص باقتراب جيش ثيودور كتب إلى الخليفة يعلمه بتحرك البيزنطيين ويطلب منه المدد[(٤)]، فكتب الخليفة إلى خالد بن الوليد الذى كان يقاتل فى العراق بأن يتوجه إلى فلسطين لمساعدة عمرو بن العاص والذى سارع بتنفيذ، وفى طريقه إلى فلسطين قام بمساعدة جيش شرحبيل بن حسنة فى فتح بصرى والتى تم فتحها سنة (١٣ هـ / ٦٣٤م)[(٥)]، ومن هناك تقدمت الجيوش الإسلامية إلى أجنادين التى كان ثيودور – قائد الجيوش البيزنطية – يعسكر فيها، حيث دارت معركة حاسمة مُنى فيها البيزنطيون بهزيمة بالغة، وعاد

---

(١) الازدى: فتوح الشام ص٢٥، البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣٠.

(٢) نورمان كانتور: مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣) Theodorus باليونانية تعنى " عطاء الله " انظر: الناصرى، الروم، ص ٢١٦ ويسميه ابن الأثير " تذارق ": الكامل، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٤) الازدى: فتوح الشام ص٦٨، الطبرى، ج٣ ص ٣٩٣.

(٥) وكان شرحبيل قد عجز عن فتحها بسبب ضخامة جيش حاكمها رومانوس، الازدى: فتوح الشام ص٨١، ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ١٧١.

ثيودور إلى شقيقه الإمبراطور في حمص يجر أذيال الهزيمة[1]، والتي منها انسحب الإمبراطور إلى أنطاكية[2].

وشكلت هزيمة البيزنطيين في أجنادين أزمة كبيرة للإمبراطور هرقل، حيث أصبحت فلسطين تحت قبضة المسلمين، بينما شكلت للمسلمين انتصارًا كبيرًا قوى عزيمتهم، وأزال هيبة البيزنطيين من نفوسهم[3].

وبعد عدة انتصارات في مواقع مختلفة، جاء الدور على دمشق، فبداية من المحرم (١٤ هـ/ فبراير ٦٣٥م)، بدأ المسلمون حصارهم الشديد لدمشق، حيث حاصروها من مختلف جهاتها، مما اضطر حاكمها البيزنطي للكتابة إلى الإمبراطور هرقل يطلب منه المدد[4]. ولكن لتأخر هذا المدد فقد استسلمت المدينة وفتحها المسلمون، وعندما وصل المدد البيزنطي، كان المسلمون قد أحكموا قبضتهم على دمشق[5].

أقلقت الانتصارات الإسلامية الإمبراطور هرقل، وأصبح يشعر بهول الكارثة التي تحيط بالتواجد البيزنطي في بلاد الشام وفلسطين، وخروجًا من هذه الأزمة أعد الإمبراطور جيشًا كبيرًا للتصدي للمسلمين في معركة فاصلة، ضم خليطا من شعوب الإمبراطورية من روم وصقالبة وأرمن وعرب نصارى وغيرهم[6]، وشعر القادة المسلمون بخطة الإمبراطور هرقل، فاتفقوا على أن

---

(١) الازدي: فتوح الشام ص٩٣، البلاذري: فتوح البلدان ص ١٣٦، هناك خلاف في المصادر الإسلامية حول تاريخ موقعة اجنادين فالمصدران السابقان يذكران أنها سنة ١٣ هـ، بينما الطبري (ج ٣، ص ٦٠٥، ٦٠٦) يذكر أنها وقعت سنة ١٥هـ، ومن تتبع سير الأحداث يتضح أن سنة ١٣هـ هي الأقرب إلى الدقة، وهو ما يذكره أيضا ابن الأثير: الكامل ج٢، ص٢٨٧.

(٢) أسد رستم: الروم، ج١، ٢٤٤.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II.P.342

(٤) الازدي: فتوح الشام، ص١٠٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٧.

(٦) المصدر السابق، ص ١٥٢.

يتجمعوا فى جيش واحد، وفى موقع واحد حتى يسهل التصدى للهجوم البيزنطى، واختاروا أن تكون "اليرموك"[1] هى نقطة تجمعهم وموقع معركتهم الفاصلة. وعلى ضفاف نهر اليرموك دارت معركة عنيفة، لقى فيها الجيش البيزنطى هزيمة فادحة[2] سنة (١٥ هـ / ٦٣٦م) حيث أطبقت الجيوش الإسلامية على البيزنطيين، وقد دارت المعركة على مرحلتين؛ ففى المرحلة الأولى هاجم خالد ابن الوليد الجيش البيزنطى وأحدث فيه مقتلة كبيرة؛ والمرحلة الثانية كانت حين اقتحم المسلمون خنادق الروم، وأغروهم بالخروج منها، ثم قاموا بمهاجمتهم وقتلهم، وبلغ حجم القتلى حدًا جعل أحد المؤرخين يذكر أن هؤلاء القتلى أصبحوا جسرا يمكن العبور من عليه[3].

وعندما بلغت الإمبراطور هرقل هزيمة جيوشه فى اليرموك وكان فى أنطاكية، استبد به اليأس، فهرع إلى البحر واستقل سفنه إلى القسطنطينية بعد أن ودع سوريا وداعا لا لقاء بعده[4].

---

(١) اليرموك، ويكتبها بعضهم " اليرموق " يسمى به الفرع الشرقى لنهر الأردن، والذى ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى نهر الأردن، ثم يلتقى به بعد خمسة كيلومترات جنوب بحيرة طبرية، وقبل التقائه بنهر الأردن بثلاثين ميلا يسير النهر فى شكل قوس، وعند مدخل القوس النهرى تقع الواقوصة.
انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج ٨، ص ٥٠٤. ويذكر المؤرخون أن سبب اختيار القادة المسلمين لهذا الموقع، الذى حتم عليهم التراجع عن بعض فتوحاتهم فى بلاد الشام، وهو الاقتراب من قاعدتهم فى شمال الحجاز / وحتى يسهل عليهم الحصول على المدد من الخليفة، وكان معسكر المسلمين جنوب النهر، وتجمع البيزنطيون شماله. انظر: الطبرى، ج ٣، ص ٣٩٢، البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة اليرموك انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص١٧٢، الطبرى ج ٢ ص ٣٩٧، الازدى، فتوح الشام، ص ٢١٠.

(٣) المنبجى: المنتخب من تاريخ المنبجى، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٤) جاء هذا الوداع فى المصادر الإسلامية بصيغ مختلفة، فيذكر الطبرى (ج ٣، ص ٦٠٣) أن صيغته كانت "عليك يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدا إلا خائفا حتى يولد المولود المشؤوم ويا ليته لا يولد، ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم" وفى البلاذرى (فتوح البلدان، ص ١٦٢): عليك يا سوريا السلام، ونعم البلد هذا للعدو. وفى الازدى (فتوح الشام، ص ٢٣٦) السلام عليك يا سورية، سلام مودع، لا يرى أنه يرجع أبدا، ويذكر ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول، ص١٠٣) أن هرقل قال مودعا: سوزو سورية Sozou Syria أى لتحيى فى سلام يا سوريا.

ويرجح المؤرخ جوزيف داهموس أسباب هزيمة البيزنطيين في موقعة اليرموك – والتي يعدها إحدى سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى[١] – إلى عدم معرفة عالم البحر المتوسط بشبه الجزيرة تجاههم من ناحية القلة الذي لا يعرفون عنهم شيئا[٢]. ثم يذكر "أنه بفضل قوة احتمال العربي وشراسته، تمكن من تحقيق الانتصارات الأولى على جيوش بيزنطة، إذ كان العربي من أشرس المقاتلين في عصره، فمنذ نعومة أظفاره تعلم ركوب الخيل والمبارزة مع أبناء عشيرته في صد الغارات أو القيام بها"[٣].

ويذكر أسبابا أخرى فيقول: "وإذ سلمنا بشجاعة العرب وحماستهم كمحاربين، فإن ما يمكن أن يفسر نجاحهم بجدارة يقابله ضعف أعدائهم، إذ لولا أن البيزنطيين والفرس، كانوا قد أنهكوا أنفسهم في حرب خاصة لسنوات طويلة وبخاصة في عهد الإمبراطور هرقل لكان قيام الإمبراطورية الإسلامية أمرًا لا يخطر على بال بشر، إذ إن الموارد المالية البيزنطية كانت قد استنزفت إلى الحد الذي أجبر القسطنطينية على إلغاء إقامة عدد من القلاع على امتداد الحدود الصحراوية إلى الجنوب، ومنع الإعانات التي كانت تقدمها لحلفائها العرب في تلك المنطقة"[٤].

ويعيد المؤرخ موس هذه الهزائم إلى الطبيعة التي أضحى عليها الجيش البيزنطي في أعقاب انتصاراته على الفرس فيذكر "أن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة.. وأن هذه الحملات التي استمرت طويلاً أفسدت نظام جنودها، كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذي انصرف إلى الخصومات الدينية، لم يعد

(١) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧م) ص ٥٧ – ٧٧.

(٢) داهموس: المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦. وهو هنا لا يعترف بأثر العقيدة الجديدة التي وحدت المسلمين وأهدافهم واستبسالهم.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٧.

كعهده قديما، نافذ الكلمة فيهم، وكان الجيش يتألف من عدة أخــلاط مــن الجنــد، فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الجند الأرمن وسكان جبال القوقاز، وأسهمت هــذه العناصر الشاذة فى بث الفوضى فى صفوف الجيش، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين بميلادهم أقل تمردًا، وأدت هذه العيوب إلــى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية للجيوش البيزنطية المرابطة فى الشام"(١).

وفضلا عن خطورة الموقف العسكرى، كان هناك خطر أعظم، هو انتــشار السخط بين السكان(٢).

ويرجع أرشيبالد لويس اليسر والسهولة اللذين رافقا الغــزو العربــى إلــى الإجهاد الذى حاق بالإمبراطورية البيزنطية أثناء كفاحها الطويل والــذى اســتمر قرابة قرن من الزمان مع الفرس، وهو الصراع الذى انتهى حينمــا بــدأ هجــوم العرب. وإلى عجز بيزنطة بعد أن صار كل اعتمادها على العنصر البحــرى فــى مواجهة غزو برى واسع النطاق(٣).

على أية حال مهما كانت المبررات التى يسوقها المؤرخون لتبرير انتــصار المسلمين وهزيمة البيزنطيين، فقد تقرر مصير سورية فى معركة اليرموك حيــث غادرها الإمبراطور، وبدأ المسلمون يستعيدون المناطق التى كانوا يسيطرون عليها قبل المعركة، ويحصدون المناطق الأخرى التى لم يكونوا قد فتحوها سابقا، وكان أهم هذه المدن أنطاكية وحلب وبيت المقدس التى فتحت استسلاما بعد حصار طويل(٤).

---

(١) موس: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٩.
(٣) ارشيبالد لويس: القوى البحرية، ص٨٧.
(٤) هناك خلاف بين المؤرخين على مدة حصار بيت المقدس، وسنة فتحها، فبينما يذكر الــبلاذرى (فتــوح البلدان، ص ١٦٤) أن فتحها تم سنة ١٧ ه، يذكر الطبرى (ج ٣، ص ٦٠٧) أن ذلك تم ســنة ١٥ ه، ولم يحدد الأزدى (فتوح الشام) سنة بعينها، ويــذكر Theopanes, Op.Cit., P.471، وقنــسطنطين السابع (إدارة الإمبراطورية، ترجمة محمود سعيد عمران، بيــروت ١٩٨٠م، ص ٧٧) أن حــصارها استمر عامين، وأن فتحها تم سنة ٦٣٧م = ١٦ هـ. بينما يذكر أومان (الإمبراطوريــة البيزنطيــة، ص ١٢٨) وستيفن رانسيمان (الحروب الصليبية، ج ١، ص ٣٤) أن مدة حصارها استمرت اثنى عشر شهرا.
والمعروف أن بطريرك بيت المقدس " صفرونيوس Sophronius: قد أصر ألا يسلم المدينة إلا إلــى الخليفة عمر بن الخطاب شخصيا، والذى وصل فعلا، وتسلم مفاتيح المدينة وصلى بها وأعطى الأمان لأهلها، لمزيد من التفاصيل عن رحلة الخليفة لمدينــة المقــدس انظــر: الطبــرى (ج ٣، ص ٦٠٧) والأزدى (فتوح الشام، ص ٢٤٨) والمنبجى (المنتخب من تاريخ المنبجى) ص ٤٨.

وبذل الإمبراطور هرقل آخر محاولة لاسترجاع بلاد الشام، ولكنها فشلت فشلا ذريعا، وذلك حين أرسل جيشا بقيادة ابنه قسطنطين، والذى أبحر من الإسكندرية بحملة كبيرة حطت رحالها فى أنطاكية سنة (١٧ هـ / ٦٣٨ م) واتخذها نقطة للتقدم فى بلاد الشام، ولكن المسلمين ما لبثوا أن تصدوا لهذه الحملة ودحروها[١]. وكان أهم نتائج هذه الحملة بالنسبة للمسلمين أن فتحت أعينهم على مصر وأنه لا بد من غزوها حتى يأمنوا على بقائهم فى بلاد الشام[٢].

بهذه الكيفية فتحت بلاد الشام وأصبحت فى قبضة المسلمين، وإن كان المؤرخون يذكرون أسبابًا عدة لهذا السقوط - ذكرنا بعضها عند الحديث عن موقعة اليرموك - ونعيد هنا رصدها، مع التركيز على تلك الأسباب المباشرة التى كانت متعلقة بالإمبراطورية البيزنطية وأوضاعها التى أضحت عليها قبيل الفتح الإسلامى، وفى أعقاب انتصارات الإمبراطور هرقل على الفرس.

فالحرب الفارسية البيزنطية - فى زمن هرقل - بما استغرقته من وقت طويل - أكثر من ست سنوات - وما سبقها من اجتياح فارسى شامل لعدة أنحاء من أراضى الإمبراطورية البيزنطية - بلاد الشام ومصر وأجزاء كبيرة من آسيا الصغرى - وبما استدعته من جهود عسكرية ومالية ضخمة، وما خلفته من آثار على الجوانب المختلفة - عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية - كان لها أثرها الكبير والمباشر فى تقرير واقع الإمبراطورية البيزنطية فى أعقابها. وبالرغم من الانتصار البيزنطى فى هذه الحرب فإن ثمن النصر كان ضخمًا جدًا، ناءت به خزينة الدولة ومؤسستها العسكرية، وجهازها الإدارى. فقد خلف الاحتلال العسكرى الفارسى لهذه الأنحاء متطلبات وأوضاعًا جديدة، لم تحسن الإمبراطورية البيزنطية - بعد استعادة هذه الأراضى - التعامل معها أو التصدى لإشكالاتها.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢،، ص ٢٢٤، أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٤٦، ويذكر أن الحملة نزلت أولا فى اللاذقية أو السويدية وزحفت إلى أنطاكية، وانضمت إلى القبائل النصرانية فى الجزيرة - بين الشام والعراق - والتى كانت مازالت على ولائها لبيزنطة، ولم تستسلم للحكم الإسلامى.

(٢) إبراهيم العدوى، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١م، ص ٤٤.

فعلى الجانب العسكرى وجدت الإمبراطورية نفسها مضطرة لتسريح أعداد كبيرة من الجنود الذين حشدتهم على الجبهة مع الفرس لمواجهة نفقاتهم المتزايدة، وللحد من أخطار قياداتهم المتحفزة، وعلى الجانب الاقتصادى والاجتماعى اضطرت الإمبراطورية لفرض ضرائب جديدة على الولايات الشرقية لمواجهة الأعباء المالية التى تعرضت لها إثر قيام الإمبراطور هرقل بالتسديد الفورى لتلك المبالغ التى أمدته بها الكنيسة - على سبيل القرض - لتمويل الحرب ضد الفرس، فأثارت هذه الضرائب سخط السكان، كذلك فإن الإمبراطور قام بقطع الإعانات التى كان يبعث بها للقيادات المحلية من النصارى العرب، من باب استمالتهم، وإعانتهم على الدفاع عن الحدود الجنوبية للإمبراطورية، مما أثار سخط تلك الزعامات وقلل من ولائها للعاهل البيزنطى.

يضاف إلى ذلك أن فكرة التوحيد المذهبى، والعقيدة "المونوثلستية" التى اعتمدها الإمبراطور ودعا لها، كحل للخلاف المذهبى بين أنحاء الإمبراطورية وولاياتها، قد قوبلت برفض شديد، وعداء من سكان الولايات الشرقية، مما زاد فى حدة الخلاف ودفع الإدارة البيزنطية إلى مزيد من الضغط والتنكيل بهؤلاء السكان الذين زاد سخطهم وتطلعهم إلى الفكاك من السيطرة البيزنطية وجبروتها، ولذلك لم يكن مستغربًا أن نجد قطاعات كبيرة منهم تقوم بمساعدة القوات العربية والترحيب بها، والأهم من ذلك عدم مقاومتها أو التصدى لها بشكل يعرقل تقدمها أو الخضوع لسلطتها.

كما أن من بين الأسباب أيضًا أن البيزنطيين لم يقوموا بإصلاح وإحكام التحصينات التى هدمها الفرس أثناء احتلالهم، وفى الحقيقة أنه لم يتح لهم الفرصة الكافية للقيام بذلك، لأن الغزو العربى سرعان ما تلى توقف القتال بين البيزنطيين والفرس.

علاوة على ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تقِّوم الهجمات الإسلامية المبكرة تقويمًا واقعيًا وإنما تعاملت معها على أنها هجمات عارضة كتلك التى تعود أن يقوم بها الأعراب للسلب والنهب، فلم تتصد لها مبكرًا بقوة وحزم.

ويذكر أحد المؤرخين أن الإمبراطور هرقل – الذى شاخ – وسئم الحروب، بعد حروبه مع الفرس كان يتعرض بسبب مرضه لنوبات من الخمول والفتور(١)، مما أثر فى جهوده للتصدى للغزو العربى، ويذكر آخر أن تسليح الجيش البيزنطى الثقيل وافتقاره إلى المقدرة على سرعة التحرك، أعاقه فى متابعة معارك الصحراء التى خاضها العرب، ولتغطية هذا النقص عقد البيزنطيون اتفاقًا مع القبائل على الحدود الجنوبية مثل سكان أرمينيا والذين استخدموا فرسانًا خفيفى العدة، ومعدات وأساليب حربية مشابهة لما استخدمه الفرسان العرب، ولكن هؤلاء الجنود المرتزقة تخلوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية فى موقعة اليرموك، وقلبوا ميزان القوة، ولذلك انتهت المعركة الفاصلة إلى ما انتهت إليه(٢).

على أن كل هذه الأسباب المباشرة، وغير المباشرة، لا تجعلنا نغفل جانبًا مهمًا، وهو التصميم والعزيمة الإسلامية، والعقيدة التى كانت تحرك المقاتلين العرب، والإمدادات التى كانت تدفع بها القيادة السياسية إلى أرض المعركة، والخطط العسكرية التى تفتقت عنها ذهنية القادة المسلمين كخالد بن الوليد ويزيد بن أبى سفيان وغيرهما من القادة الميدانيين الذين كانوا يتعاملون مع كل معركة أو موقعة بما يستدعيه من تخطيط وحنكة.

---

(١) إيدرسن بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، مرجع سابق، ص ١٩٢، ويذكر ثيوفانيس أن هرقل كان يعانى من آلام داء الصرع وداء الاستسقاء.

(٢) جوزيف داهموس، مرجع سابق، ص ٦٩. ويبدو أن ذلك مبالغة منه فإن البيزنطيين أيضًا كانوا يقاتلون الفرس فى معارك صحراوية.

كانت الخطوة التالية التى قررها القادة المسلمون بزعامة الخليفة عمر بن الخطاب الذين اجتمعوا فى مؤتمر الجابية سنة (١٨ هـ / ٦٣٩م)[١]، هى الاتجاه إلى فتح مصر لتأمين بقاءهم فى بلاد الشام، فمصر كانت القاعدة التى انطلقت منها حملة قنسطنطين بن هرقل، ويمكن أن تلعب دورًا كبيرًا فى تهديد النفوذ بل والوجود الإسلامى، واستطاع عمرو بن العاص أن يقنع الخليفة بوجوب فتح مصر، وأن فتحها يمثل قوة للمسلمين، وعونًا لهم، وميدانًا جديدًا لتبليغ الدعوة الإسلامية[٢].

---

(١) الجابية هى مرتفعات الجولان الحالية، بالقرب من دمشق، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد وصلها أثناء زيارته لبلاد الشام لتسليم بيت المقدس، وحضر هذا المؤتمر جميع قادة المسلمين، وكان عمرو بن العاص أكثر المتحدثين فى هذا المؤتمر، وينسب إليه إقناع الخليفة بوجوب التقدم لفتح مصر، انظر: الطبرى، ج ٣، ص ٦٠٧، أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٤٨.

(٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله): فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦١، ص ٨١، ويدور خلاف كبير بين المصادر الإسلامية حول بداية التفكير فى فتح مصر، وطريقته وعدد الجيش الذى شارك فيه، وآخرون يكتبون عن تردد الخليفة عمر بن الخطاب فى فتحها خوفًا على الجيش الإسلامى الذى كان موزعًا على عدة جبهات، فيذكر ابن عبد الحكم (فتوح مصر، ص ٧٦) أن عمرو بن العاص هو الذى تولى إقناع الخليفة بذلك، وأخذ يحسن له الأمر ويسهله عليه حتى اقتنع بعد تردد، ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، مصر ١٢٩٩ هـ، ص ٦٣) أن عدة الجيش كانت أربعة آلاف رجل وقيل ثلاثة آلاف، ويذكر آخرون أن الخليفة هو الذى ندب عمر بن العاص لفتح مصر، وكتب إليه وهو بقيسارية يحاصرها – يأمره – بالشخوص إلى مصر (البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٤٩)، وهناك آخرون يذكرون أن عمرو بن العاص خرج سرًا إلى مصر مع جيش صغير، من تلقاء نفسه، ولما علم الخليفة بعث إليه يوبخه ويعنفه، ويبلغه بالرجوع إذا لم يكن قد دخل مصر، (المصدر السابق، نفس الصفحة)، وهذا ما نستبعده، إذا لا يعقل أن يقدم عمرو بن العاص على خطوة مثل هذه دون استئذان الخليفة.

كانت مصر مهيأة لتحقيق نجاحات إسلامية، فقد كان قيرس Cyrus(١) بطريركها، وحاكمها الإمبراطورى الذين عينه الإمبراطور هرقل، قد أوجد شرخًا كبيرًا فى العلاقات بين الجهاز الإدارى والدينى للإمبراطورية وبين السكان المحليين، وفشل فشلاً ذريعًا فى تطبيق المذهب الدينى الجديد الذى عين خصيصًا لإقناع المصريين "المنوفزتيين" به فاضطر للجوء إلى الاضطهاد، وتعقب رجال الدين السابقين ومطاردتهم(٢)، وأهمهم البطريرك السابق "بنيامين" الذى كان يتمتع بسمعة طيبة وواسعة الانتشار بين المصريين(٣). وكانت أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية قد ساءت كثيرًا؛ فقد أثقلت ضرائب البيزنطيين كاهل المصريين، وحولت حياتهم إلى لون من البؤس والشقاء وجرى اتباع نظام الموظفين غير المأجورين الذين أذاقوا الأهالى الهوان للحصول على الأموال والهبات، وزادوا العبء على الفلاحين وصغار الملاك؛ فهجر كثير منهم أراضيهم؛ فاستولى عليها الإقطاعيون وكبار الملاك، حتى كادت تختفى طبقة صغار الزراع، وأصاب الخلل أيضًا البناء الاجتماعي، واعتبر المصريون الطبقة السفلى من طبقات المجتمع، وترتب على ذلك قيامهم بأشد الالتزامات قسوة، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية ومعاملتهم معاملة غير إنسانية (٤).

---

(١) قيرس بطريك الإسكندرية وحاكمها وكان قبل ذلك قسيسًا فى افسوس بآسيا الصغرى، والذى عرف فى المصادر العربية باسم المقوقس، وقد اشتهر بالعنف والغلظة فى مواجهة المصريين، وقيل فى معنى المقوقس أنها رتبة أو لقب، ومعناها الأفحم، وقيل أنه اسم مشتق من اسم قطعة صغيرة من العملة البرونزية التى كانت متداولة أيام جستنيان وأطلق عليه هذا الاسم على سبيل السخرية من عمله، وهو مراقبة الأموال.

ويدور خلاف كبير بين المؤرخين عن شخصية المقوقس وحقيقة هذه الشخصية والتسمية. وقد أفرد المؤرخ بتلر ملحقًا خاص مطولاً فى ختام مؤلفه "فتح العرب لمصر" تعريب محمد فريد أبو حديد، طبعة المركز العربى للنشر والتوزيع، القاهرة (١٩٨٩م) عن شخصية المقوقس وعن أقوال المؤرخين فيه وتناول شخصيته من مختلف النواحى، انظر: الملحق الثالث فى شخصية المقوقس، ص ٤٤٩ – ٤٤٦. ويسميه المنبجى (قيرة)، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٢) محمد محمود مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٨١.

(٣) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية، القاهرة ١٩٦٩م) ص ٤٩.

(٤) محمد مرسى الشيخ: الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٧.

وكان أكبر العوامل التى أدت إلى سوء الأحوال فى مصر هو ذلك الخلاف المذهبى، واهتمام الإمبراطور هرقل بتطبيق مذهبه الجديد، ولو بالقوة، فى الوقت الذى أصر المصريون على التمسك بمذهبهم الدينى، وكانت النتيجة أن فشلت سياسة هرقل الدينية فشلاً ذريعًا، وتسببت فى إحداث هذا الخلل الشديد[١]، الذى سهل نجاح ما تلا ذلك من أحداث.

ويبدو أن عمرو بن العاص كان على اطلاع واسع ودراية تامة بأحوال مصر فى ذلك الوقت، وأن تحمسه لفتحها كان يستند إلى فهمٍ واعٍ وإدراك عميق لظروفها[٢]

كانت مدينة العريش هى أول المدن المصرية التى وصلتها قوات عمرو بن العاص، حيث فتحها دون عناء فى ذى الحجة ١٨ هـ / ٦٣٩م[٣] ومنها انطلق إلى مدينة الفرما، حيث أخذ محاصرتها، واستمر الحصار شهرًا لمنعتها، ثم ما لبثت أن سقطت فى محرم سنة ١٩ هـ / يناير ٦٤٠م[٤]. وبدأت هنا دلالات الترحيب المصرى بقدوم العرب، حيث أعلن الأسقف المطارد بنيامين ترحيبه بالعرب، وطلب من القبط بذل المساعدة لهم[٥]. وبالاستيلاء على الفرما اطمأن عمرو بن العاص إلى اتخاذها قاعدة عسكرية لتقدمه، وملجأ فى حالة تعرض جنوده لأى معوقات.

---

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 223، وأرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 98

(٣) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٨٣.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة، مصدر سابق، ص ٦٤، والفرما هى مدينة بلوزيم القديمة Pelusimum على ساحل البحر المتوسط شرقى مدينة بور سعيد الحالية، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٦.

(٥) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٨٦. وينفى بتلر (فتح العرب لمصر، ص ٢١٨) حدوث هذه المساعدة فى هذا الوقت، وإنما يعيدها إلى ما بعد فتح العرب للفيوم أو حصن بابليون.

ومنها تقدم إلى بلبيس، حيث التقى هناك بالأرطبون - قائد البيزنطيين - الذى فر إلى مصر أثناء فتح بيت المقدس، والذى هاجم المعسكر الإسلامى، ولكن الهزيمة ما لبثت أن حلت بجنوده فسقطت المدينة بعد حصار استمر شهرًا كاملاً[1].

ومنها انطلق إلى ام دنين التى تشرف على حصن بابليون[2]، حيث كانت أهم معاركه، وأكثرها ضراوة، فقد تحصن به البيزنطيون وحشدوا قواتهم بشكل لم يسبق له مثيل، وكانت أعداد البيزنطيين تفوق أعداد المسلمين مما اضطر عمرو بن العاص إلى طلب المدد من الخليفة، الذى أمده بجيش كبير، كان على رأسه أربعة من كبار الصحابة هم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد[3]. واستدعى ثيودور قائد الجيوش البيزنطية فى مصر، كافة الجنود البيزنطيين الموجودين فى أرجاء مصر، ليعزز حماية الحصن، وانضم إليه تاودسيوس حاكم الفيوم، وانسطاسيوس حاكم الإسكندرية، والمقوقس، لينظموا أمر الدفاع عن الحصن[4].

---

(١) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ٨٧، وبلبيس كانت تسمى قديمًا فليس أو فلايس وهى مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام، ياقوت الحموى: معجم البلدان جـ٢، ص ٦٢.
وتذكر بعض المصادر الإسلامية مثل الواقدى وابن عبد الحكم رواية مفادها أنه كان فى بلبيس عند سقوطها فى يد المسلمين أرمانوسة بنت المقوقس، وكانت فى طريقها إلى خطيبها قنسطنطين بن هرقل، وهناك علمت بهزيمته فى قيسارية ومغادرته إلى القسطنطينية، فلبثت فى بلبيس ووقعت أسيرة فى يد المسلمين هى وجواريها وأموالها، فأعادها عمرو بن العاص إلى أبيها، وهو ما يذكره أيضًا بتشر فى كتابه: تاريخ الأمة القبطية، ترجمة إسكندر تادرس، القاهرة ١٩٠١م، جـ٢، ص ١٢٩.
وهناك من يذكر أن الأسيرة كانت زوجة المقوقس وليست ابنته. وبطبيعة الحال فكل ذلك خطأوهم، فقد كان المقوقس بطريركًا، ولم يكن مسموحًا للبطاركة بالزواج.

(٢) أم دنين تقع إلى الشمال من حصن بابليون وكانت تسمى تندونياس Tendonias، وحصن بابليون هو الحصن الذى بناه الإمبراطور الرومانى تراجان (٩٨ - ١١٧م) وسماه العرب قصر الشمع أو القصر أو الحصن، انظر موسوعة تاريخ مصر الإسلامية، ص ٢٦.

(٣) امتدح الخليفة عمر بن الخطاب هؤلاء القادة بأن كل واحد منهم بألف، وهناك خلاف حول الرابع فبعضهم يذكر اسم خارجة بن حذافة مكان مسلمة بن مخلد. انظر: ابن الحكم، مصدر سابق، ص ٩٠، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٥١.

(٤) بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٢١٩.

استمر حصار الحصن عدة شهور، تخللتها المناوشات كما تخللها تبادل السفراء[1] ووضع عمرو بن العاص خطته على إغراء البيزنطيين بالخروج من الحصن وسرعان ما استجاب ثيودور لهذا الإغراء، مدفوعًا بقوته أو بضغوط الإمبراطور هرقل الذى أرسل إليه يأمره بمهاجمة العرب بدلاً من الاكتفاء بالتحصن للدفاع[2].

.واستطاع عمرو أن يعد كمينًا لثيودور عند مدينة عين شمس (هليوبوليس)، حيث هزمه هزيمة فادحة وهرب بمن بقى معه إلى الإسكندرية، وعاد بعض الجنود إلى حصن بابليون[3].

بدأ عمرو بن العاص يشدد الحصار على الحصن ويضربه بالمنجنيق، وخرج المقوقس من الحصن إلى جزيرة الروضة طالبًا مباحثات مع عمرو بن العاص[4].

وتشكل وفد المفاوضات الإسلامى برئاسة عبادة بن الصامت، الذى حمل عرضًا يحمل الشروط الإسلامية المعروفة وهى الإسلام أو الجزية أو القتال، وفشلت المفاوضات وعاد كل فريق معسكره، وعاود المسلمون ضرب الحصن بالمنجنيق بشكل أشد، مما جعل البيزنطيين يشعرون بضعفهم وقوة المسلمين وعدم قدرتهم على صدهم[5] وبالتالى عادوا مرة أخرى للمفاوضات، حيث تقرر عقد صلح تفرض الجزية بمقتضاه على النصارى فى الديار المصرية، وكان عقد هذا

---

(١) موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٧.

(٢) ليلى عبد الجواد، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ٢٣١.

(٤) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ١٠٠. وجزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط وسميت جزيرة لأن النيل إذا فاض أحاط بها الماء وحال بينها وبين الفسطاط وبها أسواق وبساتين وهى من منتزهات مصر، الحموى، جـ ٢، ص ١٣٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٢.

الصلح سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م[١] ولكنه كان صلحًا مشروطًا حيث اشترط المقوقس أن تترك للروم فى مصر حرية الاختيار بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر، وأن تبقى الكلمة الأخيرة فى قبول الصلح أو رفضه للإمبراطور هرقل، فإذا رفضه عادوا إلى القتال[٢]، ومعنى ذلك أن أمر المصريين فى الصلح أصبح محسومًا، وإذا كان هناك مساومات فسوف تكون حول مصير الحامية البيزنطية، أو الوجود البيزنطى فى مصر.

وعاد المقوقس إلى الإسكندرية ليبعث تقريرًا إلى الإمبراطور هرقل، عما تم الاتفاق عليه ويطلب منه إقرار هذا الصلح، وحاول تبرير إقدامه على عقده شارحًا أوضاع مصر، وأوضاع المقاتلين المسلمين، وهى أوضاع ولا شك – على الجانبين – ساهمت فى إنجاح المرحلة الأولى من الفتح الإسلامى والتى تمثلت حتى الآن فى الاستيلاء على كل هذه الأراضى، وبلغت ذروتها بالاستحواذ على حصن بابليون بالأهمية الدفاعية التى شكلها والموقع الجغرافى الذى كان يحتله.

كما هو متوقع رفض الإمبراطور إقرار اتفاقية الصلح، وطالب باستمرار النضال للتصدى للمسلمين ووعد بمزيد من الدعم، وبدأت الحاميات البيزنطية تتجمع فى الإسكندرية[٣]، وذهب الإمبراطور إلى أكثر من ذلك فقد استدعى المقوقس (قيرس) إلى القسطنطينية، وعندما حضر إليه أخذ يوبخه بعد أن أساء

---

(١) أورد المؤرخ الطبرى نصوص هذه الاتفاقية كاملة، جـ٤، ص ٢٢٩، وتتركز أهمية هذه المعاهدة أو الاتفاقية فى أنها أكدت سقوط مصر، فقد كانت بابليون بمثابة حاضرتها وقلبها، حتى وإن كانت الإسكندرية هى العاصمة الرسمية لمصر فى هذه الفترة، وهى قد حددت مركز المصريين وأنهم أهل ذمة يؤدون الجزية للعرب وأقر عمر بن الخطاب هذه الاتفاقية، موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٨.

(٢) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٠٤، بتلر: مرجع سابق، ص ٢٦٥، ويسميه بتلر عقدًا حربيًا، لا عقد سياسيًا.

(٣) محمد مرسى الشيخ: تاريخ مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٩٦، محمود الحويرى، مصر فى العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٦٢، موسوعة مصر الإسلامية، ص ٢٨.

استقباله، ووجه إليه تهمة الخيانة وأنه سلم مصر وثرواتها للعرب، وسلمه لوالى القسطنطينية ليسئ معاملته (١)

وبعد أن استخلص عمرو بن العاص حصن بابليون تقدم بقواته لفتح الإسكندرية وبعد حصار شديد استطاع عمرو فتحها مستغلاً الظروف الجديدة التى أضحت عليها الإمبراطورية حيث توفى الإمبراطور قبيل حصار الإسكندرية ودخول الإمبراطورية فى أزمة وراثة العرش، وكان ذلك سنة ٢٠ هـ / ٦٤١م(٢). وبسقوط الإسكندرية، وتوقيع معاهدة الاستسلام التى تقرر فيها أن يجلوا الجنود البيزنطيون من المدينة حاملين أمتعتهم وأموالهم، وأن لا يعودوا إلى الإسكندرية(٣)، استكمل فتح مصر.

---

(١) Theophanis, Op. Cit., P. 470، المنبجى، (مصدر سابق، ص ٤٨) ويذكر ثيوفانيس أن المقوقس فى سبيل إقناع الإمبراطور بإقرار الصلح اقترح عليه أن يزوج ابنته "أوداكيا" إلى عمرو بن العاص فيتنصر، ويتغلب على المسلمين، مما زاد فى غضب الإمبراطور، ويستنكر بتلر هذه الرواية، إذ كيف يمكن للمقوقس وهو الذى خبر المسلمين أن يفترض قيام قائدهم عمرو بن العاص بالانقلاب على دينه وقومه والتنصر من أجل الزواج من ابنة الإمبراطور، ويشن حملة على ارتباك وتناقض معلومات المصادر البيزنطية حول هذه الأحداث بصفة عامة، والواقع أن المصادر البيزنطية تبدو مرتبكة ومتناقضة، وتكثر من الشتائم والأساطير وهى تورد أخبار الفتوح الإسلامية فى الشام ومصر، انظر بتلر: مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٨٤، وهناك خلاف فى اليوم الذى توفى فيه الإمبراطور هرقل حيث يذكر بتلر أن ذلك فى الحادى عشر من فبراير ٦٤١م، فى حين يذكر المنبجى أن ذلك فى الأحد ٩ فبراير، ويبدو أن التاريخ الأول هو الأصح لأن يوم ٩ فبراير يوافق يوم جمعة، بينما هناك إجماع على أن وفاته كانت يوم أحد. كذلك هناك خلاف على مدة حكمه فبعضهم يذكر أنها إحدى وثلاثين سنة وآخرون يذكرون أنها ثلاثون سنة، وكان سنه عند وفاته ستة وستون عمًا. انظر: المنبجى، مصدر سابق، ص٥٣.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخه، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، ط الثانية (دار طيبة، الرياض ١٤٠٥ه / ١٩٨٥م) ص ١٥٠، ويذكر أن الفتح تم سنة ٢١ هـ.

وقد مثل فتح مصر أهمية كبيرة، بالإضافة إلى ما تملكه من الأراضى الغنية بالقمح فإنها كانت تتمتع بمركز عظيم الأهمية تجاريًا، كما كانت مركز تهديد لبلاد الشام التى أصبحت إسلامية، وكانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة، وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن على البحر المتوسط(١).

ولا يوجد وصف للكارثة التى حلت بالإمبراطورية البيزنطية من سقوط مصر، أكثر من أنها كانت من الأسباب التى أدت إلى تدهور صحة الإمبراطور هرقل ووفاته.

بعد أن أدرك صعوبة ذلك وأثره على انحسار نفوذ الإمبراطورية ومكانتها وإمكانياتها(٢).

لقد لعبت عوامل كثيرة فى تحقيق هذه الهزيمة الكبيرة التى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية، لعل منها أن المسلمين أطبقوا على البيزنطيين، ولم يتركوا لهم فرصة لالتقاط أنفاسهم، فلم يكد يخرج البيزنطيون من بلاد الشام، حتى توالت الجيوش الإسلامية على مصر، ويبدو أن الإمبراطور هرقل وهو يسودع سوريا أصيب بخيبة أمل، أعقبتها تلك العزلة التى فرضها على نفسه فى مدينة

---

(١) موس، ميلاد العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢٥٠ وعن أهمية الإسكندرية البحرية والإستراتيجية انظر: د سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ط الثانية (دار المجمع العلمى، جدة ١٣٩٩هـ) ص ٥٢. ويذكر فيليب حتى أن الإسكندرية كانت عاصمة مصر، وعمرها ٩٠٠ سنة، وكانت أمنع مدينة تحصينًا فى الإمبراطورية بعد القسطنطينية فقد اشتهرت أسوارها أن العدو لا يستطيع النفاذ منها إلى المدينة، وكانت حاميتها تعد خمسين ألف مقاتل، وكان ميناءها أسطول قوى لحراستها من جهة البحر، ولم تكن هناك مدينة تضاهيها من حيث أبنيتها العظيمة القيمة، التى تعود عبر البيزنطيين فالرومان فالبطالمة إلى العهد الفرعونى، فيليب حتى (موجز تاريخ الشرق الأوسط) ترجمة د. أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥م، ص ١٥٠.

(٢) وسام فرج: دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

خلقيدونية[1]، حيث توالت عليه الأمراض، وعجز عجزًا شديدًا عن إدارة أمور الدولة، فضلاً عن مدها بالقوات والإمدادات التي تستطيع الدفاع عن مصر، وإنما اعتمد على الحاميات المحلية التي كانت متواجدة فيها، وهذه كانت في حقيقتها جيشًا أو (مليشيا) من ملاك الأراضي، وهم قوم لا خبرة لهم في شؤون الحرب، على حين كان يشترك في القيادة خمسة قواد أنداد، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب[2].

وتزامن مع خطورة الموقف العسكري، خطر أعظم ألا وهو السخط بين السكان، ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب، واتبعت سبل التسامح الديني، لربما تغيرت صورة الموقف في مصر[3] ووصلت حدة السخط على سياسة الإمبراطورية في مصر. أن رجال الدين كانوا يعتقدون أن ما حصل من طرد البيزنطيين من مصر، إنما جلبه الظلم والطغيان الذي أنزله هرقل ونائبه في مصر (المقوقس) بأصحاب العقيدة الحقة (الأقباط) واعتبروا ذلك آية على الانتقام السماوي من "هراطقة خلقيدونية"[4].

في الوقت الذي استطاع المسلمون أن يقتربوا من هؤلاء السكان حين أعلنوا مبدأ التسامح الديني والضرائب المخفضة[5]، فلقوا تعاونًا من السكان المحليين، أو على الأقل تحييدًا لهم في عدم دعم البيزنطيين[6].

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ٢٨٣، ونتج عن هذه العزلة ظهور المؤمرات على العرش، وكانت إحدي تلك المؤامرات مؤامرة ابنه "أتالا ريخوس Atala Richus" وابن أخيه ثيودور، وكان جزاؤهما بتر أنفيهما وأيديهما ونفيهما إلى خارج العاصمة، وقتل عدد آخر من المتآمرين، ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٤١٦، نقلاً عن: Niecphorus Breviarium in C. S. H. B. P. 28

(٢) موس: ميلاد العصور الوسطى، ص ٢٤٨ وأيضًا Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, p. 229

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٩.

(٤) محمد مرسي الشيخ: مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٣١٦، وأسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٥٢.

(٥) داهموس: سبع معارك في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٦) فيليب حتى، مرجع سابق، ص ١٥١، ويلخص الموقف بقوله "وما ترحم أهل مصر على أسيادهم الروم، وما بكوا حسرة على فراقهم، وهكذا فعل أهل سوريا من قبلهم، وللأسباب ذاتها، فقد كان الأمر لا يتعدى استبدال حاكم ظالم مستبد بحاكم جديد يرجى منه بعض الخير".

ولا حاجة بنا إلى تكرار الأوضاع التى أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية عند بزوغ حركة الفتح الإسلامى، قد ذكرناها عند الحديث عن فتح بلاد الشام، ولكن نؤكد هنا، أن قوى الإمبراطورية البيزنطية العسكرية والاقتصادية قد استنفدت فى الحرب مع فارس ثم إن هذه الحرب - وإن انتهت بانتصار البيزنطيين - قد ترتب عليها عدة متطلبات ساهمت فى خلق هذه الأوضاع، فإن الإمبراطور هرقل اضطر إلى تسريح أعداد كبيرة من الجنود الذين صنعوا انتصاره على فارس، لمواجهة الأعباء الاقتصادية التى اضطرته إليها قيامه بتسديد الديون التى كانت مترتبة للكنيسة عليه، حيث أصر رجالها أن يقطفوا أول ثمار النصر، وهى الحصول على قروضهم، وتبع ذلك اضطرار الإمبراطور إلى فرض ضرائب جديدة وجدت معارضة شديدة من سكان الولايات الشرقية الذين كانوا أكثر سكان الإمبراطورية تأثرًا بهذه الضرائب(١).

كما أن هذه الأوضاع المرتبكة، والخلاف الدينى الذى كان مسيطرًا، والكراهية المتبادلة وانعدام الثقة، ترتب عليها سوء الإدارة وفساد جهازها العامل فى الولايات، وتضاؤل الجيوش وضعفها، وصور فاسيليف الوضع وما آل إليه بأنه لا يعدو سقوط بناء تعفن داخله(٢).

ولا شك أن هذه الهزائم التى منيت بها الإمبراطورية البيزنطية أمام المسلمين، والأراضى الهامة التى فقدتها، قد عملت على تغيير أوضاع الإمبراطورية، وتقليص مساحتها، والتأثير على إمكانياتها، وحرمانها من مكاسبها التى حققتها فى انتصارها على الفرس.

ولا شك أن الإمبراطور هرقل كان واحدًا من أعظم أباطرة الإمبراطورية البيزنطية وأسوأهم حظًا فى الوقت نفسه، فقد أنقذ الإمبراطورية من الدمار وبدأ يرتب لإعادة تنظيمها وإحيائها(٣) وكان قائدًا بارعًا فى ميدان القتال وأظهر بسالة

---

(١) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 210

(٣) نورمان كانتور: مرجع سابق، ص ٢٢٦.

وإقدامًا فى قتاله ضد الفرس، وكان ذا كفاءة إدارية، واستلم إمبراطورية منهـــارة، وإدارة متهالكة، واستطاع أن يعيد إليها التماسك والانتصار، ولكنه ما لبث أن ترك إمبراطورية مهزومة، انسلخت عنها أهم أقاليمها، ودولة تعصف بهـــا الـــصراعات والأزمات وهى أزمات متعددة، كان أهمها أزمة وراثة العرش التـــى ورط فيهـــا هرقل الإمبراطورية قبيل وفاته وذلك حين أوصى بالعرش لاثنين من أبنائه ومعها زوجته مارتينا وذلك هو محور الفصل الثانى من هذا البحث.

الفصل الثانى

وراثة العرش فى أعقاب وفاة

الإمبراطور هرقل

- نظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية.
- التغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل.
- مارتينا ومشاركتها فى الحكم وأثر ذلك.
- الثورة ضد مارتينا وابنها هرقليوناس.
- انفراد قنسطانز الثانى بالعرش البيزنطى.

نظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية:

يعود نظام وراثة العرش فى الإمبراطورية البيزنطية إلى فترة مبكرة من تاريخها، ففى أعقاب انهيار نظام الحكم الرباعى الذى جاء به الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ – ٣٠٥م)[١] – وكان من أهدافه القضاء على ثورات الجند، وإبعاد الجيش عن السياسة، وكذلك منع توارث العرش فى أسرة واحدة[٢] – انفرد الإمبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٦ – ٣٣٧م)[٣] بالحكم، وعندما حانت ساعة وفاته، قام بتوريث العرش لأبنائه الثلاثة، عن طريق تقسيم الإمبراطورية بينهم[٤].

---

(١) يعرف الإمبراطور دقلديانوس بمرمم الإمبراطورية، فهو الذى استطاع وقف الفوضى التى سادت الإمبراطورية فى القرن الثالث الميلادى، وأول من فكر فى نقل العاصمة من الغرب إلى الشرق، واتخذ عاصمته فى نيقوميديا بآسيا الصغرى، وكان من أسبابه فى ذلك الاقتراب من الأخطار التى كانت تحيط بالإمبراطورية، وحتى يستطيع التصدى لها، وكان أهمها الخطر الفارسى، وخطر البرابرة الذين تركزوا فى هذه الفترة فى حوض نهر الدانوب، وهو صاحب فكرة نظام الحكم الرباعى والتى تتلخص فى وجود إمبراطورين أحدهما فى الغرب والآخر فى الشرق ويساعدهما قيصران، وحددت مدة حكم الإمبراطورين بعشرين عامًا، ثم يتنازلان عن الحكم ويرفع القيصران مكانهما، وقد تم مراعاة هذا النظام طوال فترة حكم دقلديانوس والتى استمرت عشرين عامًا، ثم تنازل عن الحكم هو وزميله إمبراطور الغرب ليحل القيصران مكانهما. لمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية: انظر: Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 60.

وأيضًا الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ٢٩

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. I,P. 29

(٣) قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧م) هو المؤسس الحقيقى للإمبراطورية فى الشرق، وهو الذى اتخذ مدينة بيزنطة عاصمة للإمبراطورية، وسميت بالقسطنطينية أو روما الجديدة، واعترف بالنصرانية، ووضع أساس الدولة فى الشرق وبه بدأت دولة بيزنطة، وقضى على منافسيه من الأباطرة والقياصرة الذين جاء بهم نظام الحكم الرباعى، وبعد حروب استمرت أكثر من ١٧ عامًا استطاع أن ينفرد بحكم الإمبراطورية.

انظر: هسى: العالم البيزنطى، ص ٩٢، الناصرى: الروم، ص ٩

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 70

ويعتبر هذا بداية توريث العرش في الإمبراطورية عن طريق تقسيمها بين الأبناء، وقد هدف الإمبراطور قنسطنطين من خلاله أن يقضى على الصراعات بين أبنائه، ولكن الذى حدث كان العكس إذ استمر الصراع بينهم حتى انفرد أحدهم "قنسطانطيوس الثانى Constantine II" بالعرش[1] وأعاد توحيد الإمبراطورية.

لقد أثبت هذا النظام للتوريث - عن طريق التقسيم - فشله فى الحفاظ على وحدة وقوة الإمبراطورية. ولكنه نجح فى جعل فكرة توريث العرش قائمة، وماثلة فى الإمبراطورية الجديدة، ومحل اهتمام وعناية الأباطرة البيزنطيين.

وكادت هذه الفكرة أن تختفى عندما قام جوليان Julian (٣٦٠ - ٣٦١م) بالاستيلاء على العرش، بعد أن نادى به الجنود وفقًا للنظام الرومانى القديم إمبراطورًا، ولكن وفاة الإمبراطور قنسطانطيوس، وعدم وجود وريث شرعى له، منعت الصراع وسهلت وصول ابن عمه جوليان إلى العرش[2].

وحقيقة فإنه حتى هذه الفترة لم يكن هناك تقنين لعملية وراثة العرش[3]، حتى أن الأباطرة الذين تلوا جوليان وهم: جوفيان Jovian (٣٦٣ -٣٦٤م)[4]، وفالنتيان Walantian مشاركة مع أخيه فالينس Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م)[5]، وثيودسيوس

(١) الناصرى: الروم، ص ٥٣.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٧٤

(٣) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ١٣٢.

(٤) بعد وفاة جوليان - والذى يسمى المرتد لأنه حاول إعادة الوثنية إلى الدولة والتضييق على النصارى - فى آخر حروبه مع الفرس، نادى الجند بأحد ضباطهم وهو جوفيان إمبراطورًا، وقام بتوقيع معاهدة مع الفرس تاركًا لهم عدة مدن هامة، ولكنه لم يعمر سوى ٦ أشهر ثم ما لبث أن توفى، Bury, Op. Cit., I,P. 96

(٥) بعد موت جوفيان هتف الجند بقائدهم فالنتيام إمبراطورًا، وكان محاربًا قديمًا من إقليم بانونيا شمال غرب البلقان، وتحت إلحاح الضباط بوجوب اختيار شريك له فى الحكم، إختار أخاه الأصغر ڤالنس إمبراطورًا مشاركًا، واستقر فالنتيان فى الغرب وكانت عاصمته ميلان، بينما استقر ڤالنس فى الشرق وعاصمته بيزنطة، وبدأ كلا منهما يعالج المشكلات التى تحيط بالجزء الذى يحكمه، وكانت أهم مشكلات الجزئين هى غزوات الجرمان، وقد قتل فالنس فى موقعه أدرنة (٣٧٨م) حين كان يتصدى للقوط، Ostrogorosky, Op. Cit., P. 48.

الأول Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥)[١] جاءوا عن طريق التكتلات العسكرية، ومناداة الجنود بهم لأن يكونوا أباطرة.

ثم بوفاة الإمبراطور ثيودسيوس الأول عادت عملية توريث العرش، عن طريق تقسيم الإمبراطورية بين ولديه: أركاديوس Arcadius (إمبراطورًا على الشرق)، وهونوريوس Honorius (إمبراطورًا على الغرب)[٢].

وبدأ الجزء الشرقى من الإمبراطورية - وهو الذى يهمنا باعتبار أنه يمثل الإمبراطورية البيزنطية - يبلور نظامه الخاص لوراثة العرش، حيث أعقب أركاديوس ابنه ثيودسيوس الثانى[٣]، ولأنه لم يخلف وريثًا فقد اختير للعرش أحد رجالات الجيش وهو مرقيان Marcian بعد أن تزوج شقيقة الإمبراطور بولكيريا Pulcheria[٤] حيث دفعت به هذه المصاهرة إلى العرش، ولأنه هو أيضًا لم يعقب

---

(١) ثيودسيوس الأول، كان ابن قائد كبير من قواد الجزء الغربى للإمبراطورية واسمه أيضًا "ثيودسيوس" وتعنى "هبة الله "وكان جراتيانوس بن فالنتيان قد أمر بإعدامه بعد أن اتهم بالخيانة العظمى، وعندما قتل فالنس قبل أن تصله نجدة جراتيانوس من الغرب، ووصل جراتيانوس إلى بيزنطة، وجد العرش خاويا فاستدعى ثيودسيوس من إسبانيا حيث كان معتكفًا احتجاجًا على مقتل والده، وولاه حكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية، واستطاع أن يعالج مشكلات الإمبراطورية مع القوط، حيث استطاع تهدئتهم والاستفادة منهم فى جيش الإمبراطورية واحتوائهم. انظر: الناصرى: الروم، ص ٦١

(٢) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٢٨. وكانا صغيرين فى السن فعند توليتهما كان هونوريوس يبلغ إحدى عشر عامًا، وأركاديوس ثمانية عشر عامًا، وإبّان حكمهما وقعت الإمبراطورية تحت قبضة قادتهما ووزرائهما من القوط.

(٣) تولى ثيودسيوس الثانى العرش وهو فى الثامنة من عمره، وكان أطول من تولى الإمبراطورية عمرًا، إذ حكمها اثنان وأربعين عامًا (٤٠٨-٤٥٠م). الباز العرينى: الدولة البيزنطية ص ٤٥. وشهدت الإمبراطورية فى عهده توجهًا علميا وثقافيا. وتم الاهتمام بالمسائل القانونية، وخرجت أول مجموعة قانونية، وشهدت فترته خلافًا دينيا ومجمعًا. انظر: Vasiliev, Op. Cit., P. 97.

(٤) يذكر سيد أحمد الناصرى فى مؤلفه "الروم" أن بولكيريا كانت عمة الإمبراطور ثيودسيوس الثانى وليست شقيقته (ص ٦٨)، وهذا خطأ والصحيح أنها كانت شقيقته الكبرى ولم تكن عمته، وقد تزوجت من مرقيانوس أحد قادة الجيش بعدأن اشترطت أن يكون الزواج اسميا فقط، وأن تبقى عذراء، وأن تقتصر زيجتها على المشاركة فى إدارة الإمبراطورية، وكانت مسيطرة عليها أثناء فترة حكم أخيها ثيودسيوس الثانى، واستمرت سيطرتها بعد زواجها من مرقيانوس، ويبدو أن الذى ألجأها إلى ذلك أن انفراد امرأة بالحكم فى بيزنطة، وفى الغرب الأوروبى لم يكن معروفًا حتى هذا الوقت، فكان لابد لها أن تتخذ لها زوجًا يحكم باسمها. انظر أسد رستم: الروم، ج ١ ص ١٣٠. وأيضًا: Ostrogorosky, Op. Cit., P. 53, Vasiliev, Op. Cit., P. 102، ورانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٩

وريثًا – لأن زواجه من بولكيريا كان شكليا فقط – فقد آل العرش بعد وفاته إلى ليو الأول Leo I (٤٥٧ – ٤٧٤م) وكان ضابطًا من ضباط الجيش الأقوياء[١]. وقام ليو الأول بتزويج ابنته الكبرى أريادين Ariadene على زينون Zenon زعيم قبائل الايسوريين من آسيا الصغرى، بهدف ضرب القوط الشرقيين وقائدهم أسبار Aspar الذين كانوا يسيطرون على دفة الحكم فى بيزنطة[٢]. ثم قام ليو الأول بإعلان حفيدة ليو الثانى من ابنته أريادين شريكًا له فى الحكم ووريثًا له فى العرش، وكانت هذه أول مرة يتخذ فيها الإمبراطور شريكًا أو قسيمًا فى العرش أثناء حياته، ويرثه بعد مماته[٣].

وعندما توفى الإمبراطور ليو الأول سنة ٤٧٤م، تولى الحكم حفيده ليو الثانى[٤]، ولكنه ما لبث أن توفى بعد بضعة شهور، وتسلم أبو " زينون" الحكم، ولعلها أول مرة فى التاريخ يرث الأب ابنه فى العرش!

وكان زينون خلال فترة حكمه يشرك معه أخاه لونجينوسLongenus ، وكان يهدف إلى توريثه العرش، ولكنه وجد معارضة من زوجته أرديان، وعندما توفى

---

(١) Vasiliev, Op. Cit., P. 105، رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٩، والمعروف أن ليو الأول كان أول إمبراطور بيزنطى يتلقى التتويج بالعرش من بطريرك القسطنطينية، لا من الجيش أو السناتو أو الشعب، كما جرت العادة سابقًا، وهذا التتويج الدينى إشارة إلى ما أصبحت تتمتع به كنيسة بيزنطة من نفوذ ومكانة، وأصبحت حفلة التتويج فى الكنيسة أهم مراسم تتويج الأباطرة، لمزيد من التفاصيل عن هذه المراسم انظر Ostrogorosky, Op. Cit., P. 57.

(٢) ويزج الدكتور الناصرى هنا أيضًا باسم مارقيان على أساس إنه هو والد أرديان، وأنه هو الذى زوج ابنته لزينون، وهذا خطأ، فإن مارقيان، كان قد توفى قبل هذه الفترة، وهو لم يعقب ولم تكن لديه ابنة صغرى أو كبرى، حيث يذكر ابنة أخرى لمارقيان، ولعله خطأ مطبعى فهو يقصد بالتأكيد ليو الأول بهذه الأحداث، كما تذكر المراجع الأخرى. انظر: الناصرى، الروم، ص ٧٢

(٣) Browning, R.: The Byzantine Empire. charles seribner's, New York, 1980, P. 22.

(٤) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٢٩، وكان عمر ليو الثانى عندما تسلم الحكم ست سنوات وكان والده زينون هو الحاكم الحقيقى للإمبراطورية.

زينون اختارت "إرديان" أنستاسيوس Anastasius، وسلمته عرش الإمبراطورية[١]، ورغم طول فترة حكم الإمبراطور أنستاسيوس (٤٩١-٥١٨م) إلا أنه لـم يخلـف وريثًا، خاصة وأنه تسلم الإمبراطورية وقد تجاوز العقد السادس، وعنـدما حانـت وفاته، سادت الفوضى إلى أن آل العرش إلى جستين الأولJustin I قائـد الحـرس الإمبراطورى[٢].

والملاحظ هنا أنه رغم مرور فترة طويلة تتجاوز القرنين على بداية ظهـور نظام التوريث فى عرش الإمبراطورية، ووصول أكثر من أسرة إلى الحكم، إلا أنه حتى هذا الوقت لم يتبلور نظام واضح ومحدد لوراثة العرش، على أنه كان هنـاك بوادر لتشكل نظام محدد، تتمثل فى توريث بعض الأبناء، أو أعضاء مـن الأسـرة الحاكمة، أو اقتسام العرش معهم.

على أية حال استطاع جستين الأولJustin I[٣] الحصول على العرش، ومنذ أيامه الأولى أعلن أن قسيمه ومساعده فى الحكـم هـو ابـن أختـه[٤] جـستنيان

(١) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ١٣٥، وكان يعمل في القصر مسئولاً عن التشريفات، وكان يبلـغ عنـد اختياره ليكون إمبراطورًا الحادية والستين من عمره. ويذكر الدكتور الناصرى انه كان قائدًا عسكريا، وأنها اختارته إمبراطورًا وزوجًا أيضًا (الروم، ص ٧٤)، فيما يذكر رانسيمان أنه كان نبيلاً ثريـا وذا ميل فطرى إلى الاقتصاد (الحضارة البيزنطية، ص ٢٩)، ويذكر الباز العرينى أنه كـان أحـد كبـار موظفى البلاط (الدولة البيزنطية، ص ٥٨)، وهو مـا يـذكره فاسـيليف (Vasiliev, Op. Cit., P. 109).

(٢) Oman, C.W., The Byzantine Empire, T. Fisher Unwin, London 1892, P. 73.

(٣) كان جستين أحد ضباط الجيش، وقد أبلى بلاءًا حسنًا فى الحروب مع الفرس، وكان أميـا لا يقـرأ ولا يكتب ولكن مهارته العسكرية دفعت به إلى منصب قائد الحرس الإمبراطورى، ليحصل على عـضوية مجلس الشيوخ، وعلى لقب بطريق، انظر لمزيد من التفصيل عن شخصيته: د. محمد فتحى الـشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس، عصر جستنيان، الهيئة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٥٩

(٤) هناك خلاف كبير بين المؤرخين حول قرابة جستنيان لجستين، فهل كان عمه أم خاله، أى ابـن شـقيق جستين أم ابن شقيقته، فمثلاً يذكر أسد رستم، ج ١ ص ١٦٧، وسعيد عاشـور: (أوروبـا العـصور الوسطى، ج ١ ص ٩٥)، ومحمد مرسى الشيخ (الإمبراطورية البيزنطية، ص ٤٠)، وفتحى الـشاعر (عصر جستنيان، ص ٦١)، وهربرت فيشر (تاريخ أوروبا – العـصور الوسـطى، ج ١، ص ٤٦)، وغيرهم، أن جستنيان كان ابن أخت جستين، إلا أن هناك مؤرخين آخرين يذكرون أن جستنيان كـان ابن شقيق جستين، أى أنه كان عمه ولم يكن خاله، ومن هؤلاء: جيبون (The Decline and Fall=

Justinian، وكانت دوافعه في هذا الإجراء أنه تولى العرش وقد نــاهز الــسادسة والستين من عمره، ولم ينجب من زوجته إيوفيميا Euphemia ولخوفه من أقـــارب الإمبراطور السابق انستاسيوس الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير، ويطمعــون فـــى العرش، فقد أخذ يعد ابن أخته جستنيان ليكون وريثًا له[1]، ولما مــرض جــستين مرضًا أقعده عن المشى، إذ كان مصابًا فى قدمه نتيجة لجرح قديم، وكان قد بلـــغ السابعة والسبعين، أعطى موافقته لمجلس الشيوخ بأن تتم مراسيم تتويج جــستنيان كشريك له فى الحكم، حيث وضــع البطريــرك إيبفــانيوس Epiphanius (٥٢٠ – ٥٣٥م) بطريرك القسطنطينية التاج على رأس جستنيان، ولما تــوفى الإمبراطــور جستين بعد هذا التتويج بأربعة أشهر، تسلم جستنيان العرش بشكل طبيعى[2].

وبعد ثمانية وثلاثين عامًا قضاها جستنيان فى الحكم (٥٢٧–٥٦٥م) دون أن يختار قسيمًا أو شريكًا، توفى ولم يترك وريثًا، يرث العرش من بعده، وكان ابـــن أخته[3] جستين (الثانى) محل ثقته ومستشاره فى أمور الدولـــة، ولمـــس أعــضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا جستين، وقرروا انتخابه لتولى العرش[4].

=of the Roman, Empire, Vol. II, P. 475) ورانسيمان (الحضارة البيزنطية، ص ٣٢)، وسيد الناصرى (الروم، ص ٨٠) والباز العرينى (الدولة البيزنطية، ص ٦٥) وجوزيف نسيم يوسف (الدولة البيزنطية، ص ٦٩)، فهؤلاء يذكرون أنه كان عمه. ولكن يبدو أن الرأى الأول هو الأصــح، خاصــة وأن بيورى وهو المتخصص يؤكد ذلك نقلاً عن Procpoius وLebeau المعاصرين انظر: .,Bury Op. Cit., Vol. II, P. 19 وينص على أن جستين عندما أصبح ذا مكانة رفيعة فـــى القــسطنطينية استدعى شقيقته الوحيدة ومعها صغيرها بطرس ســاباثيوسPetrus Sabatlus وابنتهـــا فيجيلانتيـــا Vigilantia، وتبنى ابن اخته والذى حمل اسما جديدًا هو جستنيان، ويبدو أن سبب الخلط يعود إلـــى ترجمة كلمة (Uncle) عن الإنجليزية والتى تأتى بمعنى عم وخال.

(١) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 477

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 25

(٣) هناك من المؤرخين من يذكر أنه كان ابن أخيه وليس ابن أخته، وهذا خطأ، فسجتنيان لم يكـــن لـــه أخ وإنما أخت رافقته عند وصوله وأمه إلى القسطنطينية وسبق أن أشرنا إليها.

(٤) Gibbon, Op. Cit., II, P. 479، وأسد رستم: الروم، ج ١، ص ١٩٥

وأثناء فترة حكمه التى امتدت من (٥٦٥-٥٧٨م) أصيب سنة ٥٧٣م بلوثة أفقدته عقله، نتيجة للجهد المضنى الذى بذله للتصدى للفرس، ولهجمات اللمبارد فى إيطاليا، فقامت زوجته صوفيا[١] Sophia باختيار القائد تيبريوس Tiberius ليقوم بإدارة أمور الدولة خلال مرض زوجها الإمبراطور[٢] واستمر أربع سنوات يقوم بتصريف الأمور، ومرّت لحظة قصيرة صفا فيها عقل الإمبراطور فقام بتبنى تيبريوس وعينه قيصرًا ومشاركًا فى الحكم، وعندما توفى الإمبراطور بعد ثمانية أيام، كان سهلاً على تيبريوس أن يحصل على العرش ويصبح الإمبراطور الفعلى[٣].

واتخذ تيبريوس وريثًا له من خلال تزويجه لابنته قسطنطينة لموريس Moris، الذى تدرج فى الجهاز الإدارى للدولة، حتى وصل إلى منصب قائد الحرس الإمبراطورى، ثم ما لبث أن رفعه الإمبراطور إلى مرتبة القيصر، ليصبح إمبراطورًا عند وفاة تيبريوس سنة ٥٨٢م[٤].

ورغم الإصلاحات الكثيرة التى أدخلها الإمبراطور موريس والانتصارات التى حققها على الجبهتين الشرقية والغربية، وآماله الكبيرة لتوريث العرش لابنيه

---

(١) وصوفيا هى شقيقة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان، الذى كان لها دور كبير فى فترة حكم زوجها وكذلك لعبت صوفيا دورًا لا يقل أهمية فى فترة حكم زوجها جستين الثانى.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 71.

(٣) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 477.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 25، وكان موريس خبيرًا فى الشئون الإدارية والعسكرية، واستطاع إنقاذ الإمبراطورية، ودخل حروبًا مع الفرس انتهت بتوقيع معاهدة سلام، وكان قد أعان كسرى الثانى (ابرويز) وأمده بجيش ساعده على استرداد عرشه فى أعقاب الثورة التى قامت عليه وهروبه من المدائن، مما كان دافعًا إلى تحسين العلاقات بين الدولتين وتوطيدها حيث وصلت إلى درجة المصاهرة حين قام بتزويج ابنته ماريا على ملك الفرس كسرى الثانى.

وبهدوء الجبهة مع الفرس قام بالتصدى للآفار. كما استطاع إصلاح مالية الدولة، ولكن هذا أدى إلى الاقتصاد فى نفقات الجند مما أسخطهم عليه.

وكان موريس يفكر فى توريث العرش لابنيه حيث يقيم ابنه الأكبر فى القسطنطينية لأهميتها، ويقيم ابنه الثانى فى روما، ولكن الثورة التى تعرض لها، أنهت هذا المشروع لاقتسام العرش من بعده.

انظر: هسى: العالم البيزنطى، مرجع سابق، ص ١٢١ وأيضًا: Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 280 .

بحيث يحكم سيطرته على الجزأين الغربى والشرقى، إلا أن أعماله وآماله سرعان ما تحطمت عندما تعرض لثورة عارمة سنة ٦٠٢م، قام بها الجند الساخطون على الإمبراطور بسبب سياسته التقشفية حيالهم وبسبب إصراره على بقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء للتصدى للآفار والصقالبة[١]، ورأس تمردهم القائد فوكاس Phocas، حيث قاد الجند إلى القسطنطينية، وقضى على المقاومة التى حاول موريس الاحتماء بها، وسرعان ما هُزم الإمبراطور وترك العاصمة، فأرسل فوكاس خلفه من قتله وقتل أفرادًا عديدين من أسرته واستولى على العرش، حيث أعلن إمبراطورًا[٢].

وخلال السنوات الثمانى التى حكم فيها الإمبراطور فوكاس، دخلت الدولة فى أزمة طاحنة، حيث توالت عليها هجمات الفرس من الشرق، والآفار من الغرب، وتفاقمت الأزمة الداخلية، وعمت الفوضى لتبلغ ذروتها حيث استدعى هرقل من شمال أفريقيا لإنقاذ الإمبراطورية، حيث قضى على فوكاس وأعلن إمبراطورًا سنة ٦١٠م، كما سبق وذكرنا.

وهكذا تابعنا قضية وراثة العرش فى الإمبراطورية، منذ ظهورها على يد قنسطنطين الأول، حتى وصول هرقل إلى الحكم، وكيف تعاملت معها الأسر الحاكمة فى بيزنطة.

وعلى أية حال فرغم أن هذا التوجه - توريث العرش - قد تواجد من قبل فى بعض فترات الإمبراطورية الرومانية والتى تعتبر الإمبراطورية البيزنطية امتدادًا لها، إلا أنه شهد بعض التغيرات منذ أن انتقلت عاصمة الإمبراطورية إلى القسطنطينية، فقد جرى فى العهد البيزنطى تقسيم الإمبراطورية بين ثلاثة من الإخوة (كما حصل فى عهد قنسطنطين الأول)، وتتويج ثلاثة أباطرة، أو تقسيمها بين وريثين (كما حصل فى عهد ثيودسيوس الأول) كما جرى توريثها إلى وريث

---

(١) Ostrogorosky. Op. Cit.. P. 76.

(٢) Stephenson (C.). Mediaeval History, New York, P. 116.

واحد (كما حصل فى عهد ليو الأول)، ولما كان غير مستساغ توريث العرش للإناث من بنات الأباطرة أو شقيقاتهم، فإن أولئك الإناث كن يتخذن أزواجًا ويتوجوهم فيتمكنّ من الحكم من خلفهم (كما حدث مع مورقيان وموريس).

على أنه من الملاحظ فى حالة عدم وجود وريث للعرش من الأسرة، أو صعوبة تدبير وراثة عن طريق التزاوج، يعود الجنود إلى النظام الرومانى القديم حيث يهتفون بأحد قادتهم ويوصلونه إلى العرش (كما حدث فى حالة جوليان وجوفيان وفالنتيان).

وكان التوريث يبدأ عادة بالاشتراك فى الحكم، الذى أصبح له أهمية خاصة فى نظام الوراثة، لأن نظام وراثة الحكم لم يكن يجرى وفق قانون معين، فقد لجأ الأباطرة إلى أن يتخذوا من الإجراءات ما يكفل لهم تعيين من يرغبون فى أن يتولى الحكم من بعدهم، بأن يجعلوا هذا المرشح قسيمًا لهم أو شريكًا فى الحكم أثناء حياتهم(١).

كما يلاحظ أن هناك وظيفتين هامتين لعبتا دورًا كبيرًا فى التمكين من الوصول إلى العرش هما وظيفة القيصر، الذى هو بمثابة النائب والمساعد للإمبراطور(٢)، ووظيفة قائد الحرس الإمبراطورى، وهو صاحب أكبر نفوذ وسيطرة فى بلاط الإمبراطور، وكانتا مدخلاً للكثيرين للوصول إلى منصب الإمبراطور(٣).

وكان لهذا القسيم أو الشريك ما للإمبراطور من شارات، فله أن يتخذ التاج واللقب، وأن ينقش اسمه على العملة، وأن يرد اسمه فى المراسيم الإمبراطورية(٤).

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 96.

(٢) Bury, Op. Cit., I, 320.، ورانسيمان: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٣) وحدث ذلك فى عدة حالات مثل حالة جستين الأول، وموريس قبل أن يرفع إلى درجة القيصر (انظر الصفحات السابقة)

(٤) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣٢

لقد اجتهد أباطرة بيزنطة فى نقل العرش لخلفائهم مــن بعــدهم، وتــأمين التعاقب على العرش، وذلك بتعيين الواحد منهم إمبراطورًا مشاركًا له خلال حياته، ورغم ذلك لم تنجح أية أسرة حاكمة فى الاحتفاظ بالعرش لفتــرة طويلــة[1]، فقــد جاءت أسر وتوارثت العرش، ومن ثم فقدته إما بسبب عدم وجود الوريث أو لقيــام شخص دخيل من خارجها ينجح فى اعتلاء العرش، وقد تتاح له الظروف لتأســيس أسرة حاكمة جديدة.

وعندما تولى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية ســنة ٦١٠م، وعمــل على إنقاذها من الأزمة التى كانت تلم بها - كما مر بنا - قام جاهدًا بتأسيس أسرة حاكمة تتوارث العرش من بعده، ومنذ السنة الأولى لحكمه كان الإمبراطوز هرقل واضحًا فى هذا التوجه، ومتخذًا كل الوسائل الكفيلة بتحقيقه.

(١) د. وسام عبد العزيز فرج: الأتباع والسادة، دراسة فى ظاهرة التبعية الشخصية فى العــصر البيزنطــى الأوسط، بحث منشور ضمن عدة بحوث تحت عنوان: دراسات فى التاريخ الاجتمــاعى والاقتــصادى فى العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥ م، ص ٢٣٥.

التغييرات التى أحدثها الإمبراطور هرقل:

وكان أول ما قام به الإمبراطور هرقل بعد أن استحوذ على العرش، وقضى على الفوضى، وأحكم سيطرته على الأمور، أن احتفل عشية إعلانه إمبراطورًا بزواجه من خطيبته أفذوكيه[1] (إيدوسيا أو داكيا Eudocia) وقد أنجبت له سنة ٦١١م ابنته إيبفانيا Epiphania وبعدها بعام أنجبت له ابنه الأول قنسطنطين الصغير - والذى سمى أيضا هرقل الصغير - وقد احتفى به الإمبراطور، وحمله على ذراعيه وألبسه الملابس الإمبراطورية، ووضع التاج على رأسه وأعلنه إمبراطورا منذ ميلاده وشريكًا له فى الحكم[2].

وعندما بلغ قنسطنطين التاسعة عشرة من عمره ولتأكيد هذه الشراكة وذلك التوريث فى العرش، أعلن هرقل تعيين ابنه قنسطنطين قنصلا عامًا، وذلك فى أول يناير عام ٦٣٢م[3]، وكان لهذا الإعلان وهذا التعيين أهمية دستورية، إذ أصبح من حق الإمبراطور الشريك ممارسة الواجبات والالتزامات الإمبراطورية، كما نقش اسمه على العملة، وبدأ يشارك فى الأعمال الإمبراطورية.

فالإمبراطور هرقل، وكخطوة من خطوات إصلاح أحوال الدولة، وحرصًا على بقاء العرش فى أسرته سارع مبكرًا إلى إعلان ابنه - منذ ولادته- إمبراطورًا شريكًا، وأكد هذا الإعلان عندما كبر هذا الابن، وهو بهذا لم يبتكر جديدًا، وإنما عاد إلى الترتيب الذى كان معروفًا فى بيزنطة من نظام الاشتراك فى الحكم، حيث

---

(١) كانت تسمى قبل الزواج من هرقل فافيا Favia، وكانت هى وزوجة هرقل الأب - أرخون أفريقيا - وتسمى إيبفانيا Epiphamia، تتواجدان بالصدفة فى القسطنطينية وعندما كان هرقل يحاصر القسطنطينية، علم فوكاس بوجودهما فى العاصمة فاجتهد فى البحث عنهما، حتى وجدهما وأمر بالقاء القبض عليهما، ووضعهما فى أحد الأديرة تحت الحراسة، وكان هدفه أن يتخذ منهما رهينتين لمساومة هرقل. انظر:.Theoponis, Op, Cit., P. 783 وأيضا: أسد رستم: الروم، ج١، ص ٢١١

(٢) Stratos, Op. Cit., P. 264. and Gibbon, Op. Cit., Vol. II, p. 783.

(٣) Ostrogorosky. Op. Cit., P. 100.

يختار الإمبراطور من يرشحه للحكم من بعده، ويجعله شريكًا لـه أو قسيمًا في الحكم أثناء حياته، ولكن الجديد، الذى جاء به الإمبراطور هرقل هو فيما حدث بعد ذلك، وجر على الدولة الكثير من الأزمات والمشاكل فى أعقاب وفاته.

فالإمبراطور هرقل عندما توفيت زوجته أوداكيا بعد بضعة شهور من ولادة ابنه (قنسطنطين سنة ٦١٢م)(١)، تزوج مارتينا Martina ابنة شقيقته ماريا(٢)، وقوبل هذا الزواج بمعارضة شديدة من الكنيسة ومن أهالى القسطنطينية، ورغم اجتهاد البطريرك سرجيوس فى توضيح الخطأ فى هذا الزواج، بل ومعارضته، وكذلك معارضة أهل القسطنطينية له، ونقمتهم على الإمبراطور بسببه، إلا أن هرقل كان مصرًا على إتمام مراسم الزواج(٣).

ورغم أن الإمبراطور هرقل - كما سبق وأوضحنا - استطاع أن يكبح جماح الأحزاب السياسية فى العاصمة، إلا أن هذه الأحزاب لم تستطع إخفاء معارضتها لهذه الزيجة، وحدث ما يشبه الاتحاد بين هذه الأحزاب فى معارضتها وإنكارها، حتى أن حزب الخضر - الذين كانوا قد أيدوا الإمبراطور هرقل وناصروه - راحوا يسخرون منه عندما كان يظهر فى ملعب الهيبدروم وبصحبته زوجته الجديدة مارتينا، ويوجهون له نداءات بذيئة(٤).

ورغم معارضة البطريرك سرجيوس واحتجاجه، إلا أنه لم يجد مفرًا من إتمام مراسم الزواج، حيث قام بمباركته ووضع التاج على رأس مارتينا بنفسه، بل وذهب إلى أبعد من ذلك حين قام بتعميد أبناء مارتينا وغسلهم بالماء، كما جرت عادة النصارى(٥).

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 280.

(٢) يذكر الدكتور الناصرى: (الروم، ص ٢٢٥) خطأ أن مارتينا كانت ابنة شقيقه، ولكن الأصح أنها ابنة شقيقته وكانت بارعة الجمال، انظر: Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.193, Ostrogorosky, Op. Cit., P.112

(٣) Alexander, Heraclius, Byzantin Imperal Idology, in speculum, 1977, P. 230

(٤) Srators, Op. Cit., P. 95

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 112

ويرى بعض المؤرخين فى ذلك تأكيدًا على سلطة الإمبراطور على الكنيسة، وأنها كانت مطلقة(١)، إلا أننا نرى أنه إضافة إلى ذلك فإن الأوضاع السيئة التى كانت تحيط بالإمبراطورية، والهزائم التى كانت تمر بها فى الشرق والغرب، واحتياجها إلى جهود الإمبراطور هرقل للتصدى لهذه الأخطار التى تحدق بها، خاصة وأن الإمبراطور وقد بدأ يعلن عن مشروعه لمقاومة الفرس، كل ذلك جعل الكنيسة وأهالى القسطنطينية يرضخون لرغبة الإمبراطور ويسكتون على مضض حيال هذا الزواج غير الشرعى، إذ ما تلبث أن تظهر معارضتهم – التى كانت كامنة فى النفوس – فى أعقاب موت الإمبراطور وبروز مارتينا وابنها للسيطرة على العرش، كما سنرى.

لقد ظل هذا الزواج مثار ازدراء الناس والكنيسة، ونظر إليه دائما على أنه مخالف للقانون الكنسى وقانون الدولة، لذلك فإن كراهية أهل القسطنطينية لمارتينا كانت فى ازدياد، غير أن الإمبراطور هرقل لم يحفل برأى الناس، وغمر مارتينا بكل مظاهر الحب(٢)، ويبدو أن الإمبراطور هرقل كان يشعر بازدراء الناس لمارتينا ولزواجها منه، وخوفًا عليها من أى انتقام يمكن أن تتعرض له أثناء غيابه فى حروبه مع فارس، والتى استمرت سنوات، نجد أن الإمبراطور يصطحبها معه، رغم قسوة هذه الرحلة وأهوالها(٣)، كذلك اصطحبها معه إلى بيت المقدس عندما أراد إرجاع صليب الصلبوت إلى كنيسة القيامة فى محاولة لجلب تعاطف القساوسة والرهبان الذين كانوا يعارضون هذا الزواج(٤).

---

(١) Gibbon, Op. Cit., Vol. II,P. 408 & Alexander, Op.Cit., P. 231

(٢) الباز العرينى: الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, P. 194

(٤) Alexander, Op. Cit., P. 225

ولعل مما زاد فى سوء موقف المواطنين ورجال الدين من مارتينا وهرقل بسبب هذا الزواج، هو شعورهم أن الله غير راض عن هذا الزواج فمن بين التسعة أبناء الذين خلفتهم للإمبراطور مات منهم أربعة أثناء الولادة، وعاش اثنان منهم بعاهات وإعاقات جسمية شديدة(١).

لقد سيطرت مارتينا على الإمبراطور هرقل سيطرة تامة، حتى أنها كانت تحاول أن تجعل وراثة العرش فى سلالتها، لا فى ابن هرقل من زوجته الأولى، ففى عام ٦٢٦م أنجب الإمبراطور هرقل من مارتينا طفلاً سماه هرقليوناس Heracleonas(٢)، وسرعان ما جعله – تحت ضغط مارتينا – وريثًا وخليفة له، إذ أشركه معه فى الحكم إلى جانب أخيه الأكبر قنسطنطين من أوداكيا، ولعل ما دفعه إلى ذلك – إضافة إلى ضغط مارتينا – رغبته أن يرفع من منزلة هرقليوناس حتى يصبح له الحق فى وراثة العرش بعد أخيه الأكبر، خاصة وأنه كان يُنظر إليه على أنه ابن غير شرعى(٣). ولتحقيق ذلك قام هرقل فى يناير ٦٣٢ م، بترفيع هرقليوناس إلى مرتبة القيصر وهو ابن ست سنوات، متمتعا بكل مميزات المنصب الجديد والتى كان منها أن يجلس بجانب الإمبراطور على مقعد أسفل مقعد الإمبراطور، وأن يجلس على المائدة الإمبراطورية، وأن يعيش فى القصر الإمبراطورى، وأن يتمتع بحرس خاص(٤).

ولمزيد من التأكيد على رغبة الإمبراطور فى دعم هرقليوناس منحه عام ٦٣٨م لقب «أغسطس» وفى العام التالى حمل ابن الثالثة عشرة شارات القنصلية شأنه شأن أخيه الأكبر قنسطنطين(٥).

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 112

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II. P. 282

(٣) Camb. Med. His. Vol- II, P. 391.

(٤) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٥) Stratos, Op. Cit., P. 124 ولقب (أغسطس) يجعله يلى الإمبراطور فى المكانة ويكون بمثابة ولى عهده.

ولهذه الألقاب والمناصب دلالتها فـــى هـــذه الفتـــرة الهامـــة مـــن تـــاريخ الإمبراطورية، حيث إنها تضع إطارًا أو قاعدة قانونية لتطور نظام وراثة العـــرش بعد ذلك فى الإمبراطورية البيزنطية.

فالإمبراطور[١] الذى يأتى علـــى رأس نظـــام الحكـــم فـــى الإمبراطوريـــة البيزنطية وكان يمثله فى هذه الفترة الإمبراطور هرقل، أحدث تغييرا فى مسماه إذ كان هرقل أول إمبراطور بيزنطى يحمل اللقب اليونانى باسيلوس Basileus وذلـــك انطلاقا من التوجهات اليونانية التى سادت الإمبراطورية البيزنطية فى أواخر أيـــام هرقل، وكان اللقب سابقا هو Imperator caesar Augusta، وكان الأبـــاطرة قبـــل هرقل يستعملون لقب باسيلوس بصفة غير رسمية مسايرة منهم لعرف محلى كـــان سائدًا[٢]، وقبل اتخاذ هرقل للقبه الجديد كان يوصف بأنـــه الملـــك المتفـــانى فـــى الإخلاص للسيد المـــسيح (Postos en chriso Basileus)، أو تـــذكر هـــذه الـــصفة مختصرة بدون كلمة (Basileus)، وكان هذا إيذانا بتغيير له دلالته فى النظرة إلـــى الإمبراطور داخليًا وخارجيًا [٣].

ولأن هرقل كان حريصًا على أن يؤسس أسرة حاكمة يستمر فيها أبناؤه فى الحكم من بعده، فإنه كان يعمل جاهدًا على تثبيت ذلك متخذًا من الوسائل والأفعـــال ما يضمن له تحقيقه، لذلك ظهرت فكرة الشريك أو القسيم فى الحكم، فهـــو يرشـــح هذا القسيم ليكون شريكًا له فى الحكم أثناء حياته، وإمبراطورًا بعد مماتـــه، ولكـــن هرقل ذهب بعيدًا فى هذا النظام فلم يكتف بقسيم أو شـــريك واحـــد، وإنمـــا تـــرك قسيمين أو شريكين بنفس المناصب والصلاحيات، لمزيد من تأكيد بقاء الحكم فـــى الأسرة.

---

(١) كلمة إمبراطور هى ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Autokratator. لمزيد من التفصيل عن المناصـــب البيزنطيـــة انظـــر: W. Ensslin, The Govermment and the Administration of the Byaantin Empire. Camb. Med. Hist. Vol. IV, Part. II, P.2.

(٢) Ensslin, Op. Cit., P. 3

(٣) عائشة أبو الجدايل: مرجع سابق، ص ٢١٩.

وحقيقة أن الانتصار الذى حققه الإمبراطور هرقل فى حروبه مع الفرس، قد أتاح له مكانة كبيرة، وسيطرة واسعة داخل الإمبراطورية، مكنته من تحقيق الكثير من أهدافه وأفكاره التى كان يسعى إليها، ومنها حل مشكلة وراثة العرش بالشكل الذى يشاء، هذا إضافة إلى المكانة التى حققها خارج الإمبراطورية[١].

لذلك لم يكن مفاجئا أن يقوم الإمبراطور هرقل بتتويج ابنه قنسطنطين عند ولادته – كما ذكرنا – إمبراطورًا شريكًا، ثم قام بنفس الإجراء مع ابنه الثانى من مارتينا (هرقليوناس)، بعد أن تدرج به فى المناصب، ثم أكد كل ذلك فى حفل التتويج الكبير الذى دعا إليه فى ٧ يوليو عام ٦٣٨ م، بحضور سرجيوس بطريرك القسطنطينية، ومجلس الشيوخ بكامل أعضائه[٢]، ولمزيد من إرضاء مارتينا قام بتعيين ابنها الآخر داوود David قيصرًا[٣].

ولتأكيد هذا التتويج شعبيا، تم الاحتفال به مرة ثانية فى نفس العام، حيث برز الإمبراطور مع أبنائه الثلاثة فى ميدان Augustaeum المواجه لمدخل القصر الرئيسى، ويوجد به كنيسة أيا صوفيا ومبنى مجلس الشيوخ ومبان أخرى، ودخل إلى الميدان من هم فى مرتبة البطارقة، الذين يحملون لقب بطريق Patricus، وجاء بعدهم الموظفون ابتداءً من القناصل Hypates وحتى أولئك الذين من مرتبة Illustrii من أعضاء مجلس الشيوخ وحيوا الإمبراطور وولديه اللذين توجا حديثا والقيصر الجديد، وتتابع الموظفون العاملون فى الخدمة المدنية، والحرس الإمبراطورى Scholae، والأحزاب Demes (حزب الخضر والزرق)، واشترك الجميع فى الهتاف للأسرة الإمبراطورية، ثم دخل هرقل مع أولاده إلى كنيسة أيا صوفيا حيث أنشدت الأناشيد، وتلقى الجميع تبريكات البطريرك[٤].

---

(١) Theopanes, Op. Cit., P. 459.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 112.

(٣) Charles Diehl, History of the Byzantne Bmpire, transe by, George B. Ives, A.m.s. press, New York 1946, p. 47.

(٤) د. عائشة أبو الجدايل: مرجع سابق، ص ٢٢٢، نقلا عن: Nikephoros, P. 127

ولتخليد هذه المناسبة، سُكّت عملة جديدة على وجهها الأول صورة هرقل مع ابنه قنسطنطين على يمينه وابنه الآخر هرقليوناس على يساره، وعلى رؤوسهم التيجان، وعلى ظهر العملة نقش Victoria Augs (ربة القصر تتوج الأباطرة والصليب في الوسط) وتحمل العملة النقش القديم:(Deus Adjuta Romanis) ليكن الرب فى عون الرومان(١).

لقد بلغت سيطرة مارتينا على الإمبراطور هرقل حدا كبيرًا، والعجب أنه كلما زاد سخط الناس والكنيسة على مارتينا وسيطرتها، قابل الإمبراطور ذلك بإعطائها مزيدا من السلطات والمكانة، التى وصلت إلى هذا الحد من إشراك ابنها فى وراثة العرش وجعل ابنها الآخر قيصرا(٢).

والواقع أنه فى أواخر أيام هرقل وعندما بدأت الشيخوخة والأمراض تداهمه، وبدأ يعتزل الناس، ولا يخرج إليهم، قابعا فى قصر هيريا Hieria – الذى يقع خارج القسطنطينية – كانت مارتينا هى صاحبة السيطرة والسلطان، مما أوجد لها حاسدين معارضين من داخل أسرة هرقل نفسها، ووصلت هذه المعارضة إلى حد تدبير مؤامرة لانتزاع العرش من الإمبراطور هرقل، وينفرد المؤرخ نيقفوريوس Neicphorus بخبر هذه المؤامرة. إذ يذكر أنه بلغ الإمبراطور هرقل أن ابنه اتالاريخوس Atalarichus(٣) وابن أخيه القائد ثيودور Theodorus يتآمران

---

(١) Warne. T. Greadgold, the Byzantine state Finaces in the eight and ninth Centuries, London, 1982, p. 25.

(٢) Norman H. Baynes, Byzantine state and other essoys, Grenwood press. London, 1924, p. 85.

(٣) الواقع أن هناك خلافا بين المؤرخين حول أسماء أبناء الإمبراطور هرقل، والذين بقوا على قيد الحياة. فإذا كان هناك اتفاق على اسمى ابنه وابنته من زوجته الأولى أوداكيا، فهناك خلاف حول أبنائه من مارتينا، والذين بلغوا تسعة، وهذا الاسم الذى ذكره نيقفوريوس لم يرد فى القوائم الأخرى، مثل القائمة التى ذكرها جيبون أو تلك التى ذكرت فى موسوعة كمبردج للعصور الوسطى، وإذا افترضنا أن هذين المرجعين ذكرا فقط الأسماء التى كان أصحابها على قيد الحياة عشية موت الإمبراطور هرقل، فإن هناك خلافًا حول اسمين فى القائمتين. ويبدو أن هذا الاسم الذى يذكره نيقفوريوس وأنه كان يتآمر على الإمبراطور ومارتينا، كان ابنا بالتبنى، إذ لا يعقل أن يكون أحد أبناء مارتينا ويتآمر عليها.

للاستيلاء على العرش، ولذلك فقد أمر بجدع أنفيهما وقطع أيديهما، ثم نفـــى ابنـــه أتالاريخوس إلى جزيرة الأمراء، ونفى ثيودور إلى جزيرة Gaudomeleten وأمـــر حاكم الجزيرة بقطع رجليه عند وصوله ونفذ حكم الإعدام على بـــاقى المتـــآمرين معهما(١).

على أية حال إذا كان هناك أية دلالة لهذه الرواية فإنها تـــدل علـــى مقـــدار السخط والغضب الذى كان يشعر به المواطنون والقادة العسكريون لتسط مارتينـــا وسيطرتها على الإمبراطور.

من جانبها فإن مارتينا كانت تستغل كل الظروف التى تحيط بالإمبراطورية فى التمكين لنفسها ولأبنائها لاكتساب مزيد من السلطة، فعندما توالت الهزائم علـــى جيوش الإمبراطورية فى الشام ومصر، وعاد كثير من القادة البيزنطيين منهـــزمين من ميادين المعارك، اتهمتهم بالتقصير والعجز وأطاحت بالكبار مـــنهم(٢)، حتـــى يسهل الطريق أمامها للانفراد بالسلطة، واكتساب مزيد من السيطرة.

والواضح أنه كلما ازدادت أمراض هرقل، وانصرافه عـــن الحكـــم ازدادت سلطة مارتينا وسيطرتها، ورغبتها فى توسيع هذه السلطة والسيطرة، وزاد ســـخط الناس ورجال السناتو والكنيسة، لينفجر الموقف بعد وفاة الإمبراطـــور هرقـــل(٣)، وقبل أن يتوفى الإمبراطور هرقل فى الحادى عشر من شـــهر فبرايـــر ٦٤١م(٤)،

---

(١) Nicephorus, Breviarium, in C.S. H. B., PP. 28-29 انظر الدكتورة ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٤١٦.

(٢) د. إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٣) Charles Diehl, Op. Cit., P. 42.

(٤) ألفرد بتلر: مرجع سابق، ص ٣٨٤، وهو يقدم ردًّ مفصلا على التواريخ الأخرى التـــى حـــددت لوفـــاة الإمبراطور فى مصادر أخرى، ويتبعها بعدة حجج، ويحدد المنبجى وفاة هرقل كالتالى: يـــوم الأحـــد لتسع خلون من شباط (فبراير) سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة لذى القرنين، وهى ســـنة تـــسعة عـــشر للعرب (هجرية) وسنة سبع لعمر (أى حكم عمر بن الخطاب) والخطأ الوحيد هنا أن يـــوم ٩ فبرايـــر يوافق يوم الجمعة بينما وفاته كان يوم أحد، إذن يكون يوم ١١ فبراير هو الأصح، المنبجى: مـــصدر سابق، ص ٥٣.

حصلت مارتينا على وصية من الإمبراطور، رسمت مستقبل الإمبراطورية، وخطة الإمبراطور هرقل لوراثة العرش من بعده، وكان إعلان هذه الوصية عشية وفـاة الإمبراطور سببًا فى اندلاع أزمة كبيرة فى البلاط البيزنطى وفى الدولة، أعطـت مؤشرًا واضحًا على موقف الشعب والكنيسة ومجلس الـسناتو مـن زواج هرقـل بمارتينا وسيطرتها ومحاولاتها الانفراد بالسلطة، وهو موقف استطاع الإمبراطـور هرقل أن يحد من خطورته ومعارضته أثناء حياته[١].

(١) Vasiliev, Op. Cit., p. 194

مارتينا ومشاركتها في الحكم وأثر ذلك:

بوفاة الإمبراطور هرقل آلت وراثة عرشه إلى: قنسطنطين والذى أعلن قسيمًا وشريكًا لوالده منذ سنة ٦١٣ م، إلى جانب أربعة أبناء من مارتينا هم: ثيودوسيوس Theodosius والذى كان أصم أبكم، وهرقليوناس Heraclonas والذى توج بولاية العهد إلى جانب أخيه قنسطنطين فى سنة ٦٣٣م، وداوود Daivid الذى كان قيصرًا، ومارتين Martin الذى حصل على منصب (Nobilissimus) وتعنى كبير النبلاء[١].

وسارعت مارتينا إلى إعلان وصية الإمبراطور هرقل، والتى نصت على أن يشترك ولداه فى الحكم - قنسطنطين الذى كان فى الثامنة والعشرين، وهرقليوناس الذى كان فى الخامسة عشرة - وأن يكون وضعهما وحقوقهما متساوية[٢]. وأن تشترك معهما فى الحكم زوجته وأم ابنه الثانى "مارتينا" بأن تكون أمًا (Metera) لكليهما، وإمبراطورة (Basillssa) مشاركة لهما[٣].

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 391، ويذكر جيبون قائمة أخرى لأبناء هرقل من مارتينا الذين كانوا موجودين عند مماته وهم: هرقليوناس، وأوجوستينا Agustina، وأنوستاسيا Anostasia، وداوود القيصر David Caesar ومارتين. ومن الملاحظ أنها تحوى ابنتين هما (أوجوستينا وأنوستاسيا)، وهو ما لم يذكره المؤرخون الآخرون. ويبدو أن هناك خلطًا لدى جيبون فى أسماء الأبناء التسعة الذين خلفتهم مارتينا من الإمبراطور هرقل، ومات منهم أربعة عند ولادتهم، والابنان الكبيران كانا معافين جسمانيا، بقى منهم ثيودسيوس (الأصم والأبكم) عند وفاة والده، ثم القيصر داوود وكبير النبلاء مارتين ويسميه البعض مازينوس وهرقليوناس الذى توج إمبراطورا مع قنسطنطين. انظر Gibbon, Op. II. p. 783 وأيضا: Ostrogorosky, Op. Cit., P. 112. وعن وظيفة (Nobillssimus) انظر: رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٠٢.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 112. وأيضا: Camb. Med. Hist. Vol. II. P. 391

(٣) Stratos, Op. Cit.. P. 130

وما إن أعلنت مارتينا الوصية، حتى قوبلت بمعارضة شديدة من قبل مجلس السناتو والشعب[1]، حيث أعلنوا قبولهم بالحكم المشترك لابنـــى هرقـــل، ورفـــض مشاركة مارتينا لهما فى الحكم بحجة أنها كامرأة لا يمكن أن تمثل الإمبراطوريـــة وتقابل السفراء الأجانب[2]، أو ترأس الطقــوس الدينيـــة التـــى كـــان يقـــوم بهـــا الإمبراطور عادة[3]، واضطرت مارتينا للخضوع مؤقتا لهذا الاعتراض، ولكنها لم تستطع مقاومة شهوة الحكم التى كانت قد تمكنت منها فى الفترة الأخيرة من حيـــاة زوجها الإمبراطور، وأصرت على أن تشارك فى الحكم كما نـــصت الوصـــية[4]، وبذلك بدأ الانقسام فى بيزنطة والصراعات والتحزبات.

وقبل أن نتابع هذه الصراعات نعود إلى وصية الإمبراطور هرقـــل، حيـــث يلاحظ أنه كان حريصا على أن يبقى الحكم فى أسرته، وظل يعمل جاهـــدًا علـــى تكوين أسرة حاكمة، ترث الحكم من بعده[5]، مما يعنى العودة مرة أخرى إلى نظام توريث الحكم الرومانى القديم، وأن حرصه هذا كان مبكرًا فمنذ اللحظـــة الأولـــى لولادة ابنه قنسطنطين نجده يعلنه قسيمًا وشريكًا، له كل صـــلاحيات الإمبراطـــور وشاراته، وأكد هرقل هذا التوجه لترسيخ وراثة العرش حينما قام بهذا الدور نفـــسه مع ابنه هرقليوناس، ويمكن أن يكون هذا واحدًا مـــن التغييـــرات التـــى شـــهدتها الإمبراطورية ابتداءً من القرن السابع الميلادى، حيث كانت البداية لتأسيس وتقنـــين نظام لوراثة العرش الذى ترسخ فيما بعد فى بيزنطة، انطلاقًا مـــن أســـرة هرقـــل وأصبح أحد الملامح البارزة فى الإمبراطورية [6].

---

(١) Thoophanes, Op. Cit., P. 474

(٢) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٣) الناصرى، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٤) بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٥) محمد مرسى الشيخ: تاريخ الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٦) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 27

إضافة إلى هذا الحرص من قبل الإمبراطور على أن يحفظ العرش في أسرته، فإنه كان حريصا أيضا على أن يخص مارتينا وسلالتها بنصيب من الحكم دون أن يحرم ابنه الأكبر قنسطنطين من حقوقه الإمبراطورية، والواقع أن الإمبراطور كان يعلم أن مارتينا محل حقد الناس وكراهيتهم، وأن الشعب والكنيسة والسناتو، لم ينسوا له أو لها أن زواجهما تم رغم المعارضة والسخط الشديدين اللذين أبداهما الجميع، وأن زواجهما اعتبر زواجًا محرمًا من قبل الكنيسة والشعب، ويعارض قانون الكنيسة والدولة، كان الإمبراطور يشعر بكل ذلك ولذلك اضطر إلى حماية مارتينا من سخطهم والدفاع الدائم عنها، فقد اصطحبهما معه أثناء حروبه في فارس حتى يخلصها من العداء المستحكم حولها في القسطنطينية، وكان لابد أن يتخذ من الوسائل ما يحقق لها هذه الحماية بعد وفاته، فاعتقد أنه بإشراكها في وصيته يحقق لها ذلك.

ويرى جيبون أن الدافع لإشراك مارتينا في الوصية يعود إلى أن هرقل كان رجلاً مسنًا ومريضًا ولا يستطيع رد طلب لزوجته الشابة(١). في حين يرى مؤرخ آخر أن حرص هرقل على إشراك ابنه الأصغر جاء نتيجة لاعتلال صحة ابنه الأكبر قنسطنطين وخوفه من موته المبكر وضياع عرش الإمبراطورية من أسرته، وبما أن ابنه هرقليوناس كان ما يزال صغيرًا فإنه رأى من الأفضل إشراك أمه معه كوصية عليه(٢).

على أية حال، وأيا كانت الضغوط التي خضع لها الإمبراطور هرقل سواء ضغط مارتينا عليه، أم حرصه على بقاء العرش في أسرته، فإن إشراك مارتينا أثار المعارضة الشديدة، وأثار مسائل عديدة تتعلق بالوضع الدستوري العام وأغرق الإمبراطورية في نزاع حاد(٣).

Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 784. (١)

Stratos, Op. Cit., P. 136. (٢)

(٣) الباز العريني: مرجع سابق، ص ١٣٧.

نخلص من كل ذلك إلى أن وصية الإمبراطور هرقل، كانت محاولة منه للعودة بالإمبراطورية البيزنطية إلى نظام وراثة العرش الذى عرف فى فترات سابقة من تاريخ الإمبراطورية، على أن الجديد الذى أدخله هرقل على هذا النظام أنه لم يكتف باتخاذ أحد أبنائه كشريك وولى لعهده فى الحكم، بل عين اثنين منهما فى المنصب نفسه، فضلاً عن أنه أشركهما منذ ميلادهما(1)، وهذا يؤكد الحرص الذى أبداه الإمبراطور فى تكوين أسرة حاكمة تتوارث العرش من بعده، واتخذ من الوسائل كل ما اعتقد أنه كفيل بتحقيق ذلك.

ما لبثت الأمور أن تأزمت فى القسطنطينية، ووقع الشقاق بين شطرى الأسرة الحاكمة، بين قنسطنطين الثالث من جهة وهرقليوناس ومارتينا من جهة أخى، وانقسمت الإمبراطورية إلى قسمين: قسم يؤيد قنسطنطين الثالث، ويرى أنه صاحب الحق الشرعى فى الحكم منفردًا، وقسم آخر يرى أن لهرقليوناس وأمه الحق فى المشاركة فى الحكم(2). وسرعان ما ساد هذا الصراع الحياة السياسية والحياة العامة فى العاصمة البيزنطية، وأنحاء عديدة من الإمبراطورية.

لقد كان من الصعب أن يستمر الحكم فى بيزنطة تحت قيادة ثلاثة أباطرة هم: قنسطنطين الثالث، وهرقليوناس، وأمه مارتينا، ولذلك فإن انفراط هذا العقد، وانهيار هذا الائتلاف المصطنع كان واردًا جدا، بل ومؤكدًا.

كان قنسطنطين الثالث يتمتع بأغلبية كبيرة من المؤيدين، وكان على رأس هؤلاء المؤيدين رجال مجلس السناتو، وكبار القادة والضباط العسكريين، ورجال الكنيسة وفى مقدمتهم البطريرك بيروس Phrihus الذى خلف سرجيوس الأول فى

(١) ليلى عبد الجواد: مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) الناصرى، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

البطريركية[1]، وخازن الدول فلاجريوس Philagrius وقطاعات كبيرة من الشعب البيزنطى[2].

ولكن قنسطنطين الثالث – الذى كان يعانى من مرض خطير[3]– ما لبث أن توفى بعد أن أكمل الشهر الثالث من حكمه تقريبًا، وكانت وفاته فى ٢٥ مايو ٦٤١م[4].

وأرادت مارتينا استباق الجميع، واستغلال هذا الحدث بموت منافسها فى الحكم، واتخذته ذريعة للتسلط على العرش، فأعلنت انفراد ابنها هرقليوناس بالعرش البيزنطى، وطالبت مجلس السناتو والجيش بإقرار هذا الانفراد، ولكن يبدو أن السحب الكثيفة التى تجمعت منذ بداية زواجها من الإمبراطور هرقل، مرورا بوصايتها على العرش، ثم رغبتها الآن بالانفراد به، آن لها أن تمطر عصيانا وتمردًا فوق رأسها ورأس ابنها، فقد وقف أمام حكمهم وانفرادهم بالعرش الجميع: الطبقة الأرستقراطية، والقادة العسكريون، وطبقة رجال الدين الأرثوذكس[5]. وزاد من تعكير الأجواء فى القسطنطينية أن مارتينا – لإكمال مسلسل السيطرة على الحكم – أرسلت بأبرز مؤيدى الإمبراطور قنسطنطين إلى المنفى، أو عزلتهم، وكان من أبرز المنفيين خازن الدولة فلاجريوس، وعدد من القيادات العسكرية[6].

---

(١) ما لبث بيروس أن انقلب على قنسطنطين وأعطى تأييده لمارتينا وابنها، ويبرر بيورى انقلاب البطريرك بيروس على قنسطنطين بالرغم من تأييده فى البداية إلى أن البطريرك كان يدين بالمذهب المونوثولستى الذى جاء به الإمبراطور هرقل، ولأن قنسطنطين كان مخالفا لهذا المذهب ويرغب فى تجاوزه، غير بيروس تأييده ورأيه، وانضم إلى الحزب المناوئ، وهو حزب مارتينا وأصبح له نفوذ كبير فى فترة حكم مارتينا وابنها هرقليوناس لدرجة أنه أتهم باشتراكه معهما فى قتل قنسطنطين، وتذكر بعض الروايات أنه نفى معهما وطرد من القسطنطينية فيما بعد. انظر: Bury, Op. Cit., Vol. II, p. 281، وأيضا ألفرد بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 113.

(٣) يذكر الباز العرينى أن قنسطنطين كان يعانى من مرض السل (الدولة البيزنطية، ص ١٣٨)، ويذكر بتلر نقلا عن حنا النقيوسى أن مرض قنسطنطين بدأ عند توليه الحكم، وأن موته كان من قيء دموى، ولعله نشأ عن انفجار عرق، ويوافق نيقفوريوس على أن مرضه قد طالت مدته (بتلر: ص ٢٨٧).

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 113. أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٤

(٥) Ostrogorosky, Ibid.

(٦) Theophanes, Op. Cit., p. 475.

الثورة ضد مارتينا وابنها هرقليوناس:

كانت هذه التصرفات دافعًا إلى بروز حركة التمرد والعصيان في القوات المسلحة، حيث قام أحد أتباع قنسطنطين وهو الأرمني فالنتين أرساسيدوس Valantine Aracidus بتحريض الجنود المرابطين في آسيا الصغرى ضد مارتينا وهرقليوناس، وقاد جيشًا بلغ به خلقيدونية، حيث كانت تتواجد مارتينا، واحتلها بحجة أن ابن الإمبراطور الراحل (قنسطنطين الثالث) في خطر، وأرسل تعليمات إلى المقاطعات يطالبها بعدم إطاعة أوامر مارتينا(١)، وقامت مارتينا من جانبها بتوفير جنود مرتزقة لحماية العاصمة من الغاضبين والثائرين(٢).

ولكي يهدئ من الغضب والاهتياج قام هرقليوناس بإبراز ابن أخيه الأكبر - وكان يسمى هرقل - وكان في العاشرة من عمره، وتعهد بأن يكون له أبا صالحًا، وأقسم بأن الصبي لن يواجه أي أذى، واصطحبه معه إلى خلقيدونيه، وبذل نفس التعهدات أمام فالنتين ورجاله(٣).

وهناك أعلن الجنود مطالبهم، وكان منهما إشراك ابن قنسطنطين الثالث - والذي سيسمى باسم قنسطانز Constans(٤) - في الحكم، والاعتراف به إمبراطورًا، وإعادة المنفيين والمعزولين، وكان في مقدمتهم خازن الدولة فلاجريوس.

---

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 391

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 457

(٣) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392

(٤) عرف بهذا الاسم بعد أن أصبح إمبراطورًا، وقنسطانز هي تصغير « قنسطنطين » وكان قد أعطي اسم هرقل (جده) عند تعميده، وعند تتويجه اتخذ اسم قنسطنطين ثم أطلق عليه قنسطانز لتمييزه عن والده. ويذكر الدكتور الباز العريني (الدولة البيزنطية، ص ١٣٩) أن قنسطانز أطلق عليه لقب الملتحي Pogonatus لاهتمامه كلما كبر في السن بإرسال لحيته، وهذا يبدو أنه خطأ، إذ أن هذا اللقب أطلق على ابن قنسطانز (قنسطنطين الرابع ٦٦٨ - ٦٨٥م) الذي جاء بعده في الحكم، ولم يطلق على قنسطانز، انظر: رانسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٤٠. ويذكر فاسيليف أن الدراسات الحديثة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية تعطي هذا اللقب - أي الملتحي = (Pogonatus = The bearded) للابن قنسطنطين الرابع، أكثر من الأب قنسطانز الثاني، وهو يرجح إطلاقه على الابن قنسطنطين الرابع Vasileve, P. 193. وهذا ما درجت عليه معظم المراجع والقوائم التي تذكر عادة عن أباطرة الدولة البيزنطية.

ولم تجد مارتينا وابنها هرقليوناس بدًا من الاستسلام لمطالب الجند الثائرين، والتى كانت أيضًا مطالب لرجال السناتو والشعب، واتخاذ بعض الإجراءات التى تهدئ من ثورة الثائرين الذين كانوا يحيطون بخلقيدونيه، وجاء بعضهم من القسطنطينية.

ورضوخًا لهذه المطالب اصطحب الإمبراطور هرقليوناس ابن أخيه إلى كنيسة "أيا صوفيا" وأمر البطريرك بيروس بتتويجه إمبراطورًا مشاركًا، ولكن المواطنين أصروا أن يقوم الإمبراطور شخصيا بتتويج ابن أخيه[١]. وبعد تتويجه إمبراطورًا مشاركًا لعمه هرقليوناس أعطى الاسم الجديد قنسطانز تمييزًا له عن والده. وكان فى الحادية عشرة من عمره[٢].

وشعر هرقليوناس أنه عبر هذه الإجراءات، قد أعاد السلام إلى العاصمة، فقد تم تسوية الأمر مع قائد الثوار ڤالنتين، حيث تم تعيينه كرئيس لفرقة من ضباط القصر، كما حصل على تعهدات بعدم المطالبة بالنقود التى سبق وحصل عليها من فلاجريوس الذى عاد من منفاه، كما حصل جنود ڤالنتين على هبة من الإمبراطور، وحتى يتم الخلاص منه، تم إرساله إلى كبادوكيا لمقاتلة المسلمين[٣]، واستغلالاً للمناسبة قام هرقليوناس بإعلان شقيقه داود – الذى كان فى منصب القيصر – إمبراطورًا ثالثًا تحت اسم تيبريوس Tiberius[٤].

---

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 392، والمعروف أنه منذ عهد الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م) جرت العادة أن يقوم البطريرك بتتويج الأباطرة، وكان ليو الأول هو أول إمبراطور يقوم البطريرك بتتويجه، وأصبح دارجًا منذ تلك الفترة (الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ٥٤) ويبدو أن غضب الجماهير من البطريرك بيروس وحنقها عليه هو الذى دفعها إلى رفض تتويجه لابن قنسطنطين الثالث، وإصرارها على أن يقوم هرقليوناس بهذه المهمة.

(٢) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٤. ويرجح ألفرد بتلر أن يكون تتويج قنسطانز كان فى أوائل شهر سبتمبر ٦٤١م، بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٨

(٣) Kaegl. W.E., Byzantine Military. (471-843), Coronel Books, U.S.A 1981. P. 87

(٤) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P 783

ولكن يبدو أن السلام الذى كان ينشده هرقليوناس، كان مؤقتًا واستمر لفترة بسيطة، إذ ما لبث مسلسل المعارضة لمارتينا وابنها هرقليوناس أن عاد إلى التصاعد مجددًا، فالجنود الذين كانوا فى كبادوكيا أعلنوا الثورة بعد أن أبرزوا رسالة من الإمبراطور هرقليوناس تطالب بالهجوم على فالنتين وعزل قنسطانز، وقادهم ثيودور الأرمنى Thedore، وتوجه بهم إلى القسطنطينية(١).

وفى القسطنطينية – ولم يكن قد مضى قرابة الشهر على تتويج قنسطانز – سرت إشاعات تتهم مارتينا وابنها هرقليوناس بقتل شريكهما السابق فى الحكم قنسطنطين الثالث عن طريق تسميمه والانفراد بالعرش(٢).

والواقع أن هناك خلافًا كبيرًا بين المؤرخين حول وفاة الإمبراطور قنسطنطين الثالث، فهناك من يرى أن وفاته المبكرة تعود إلى مرضه، وأنه كان مصابًا بداء السل، وأن مرضه يعود إلى فترة مبكرة من حياته – كما سبق وذكرنا– فى حين يشير آخرون إلى قصة موته بسبب دس السم له(٣). ويتهمون بذلك مارتينا وابنها هرقليوناس ويشركون معهما البطريرك بيروس، الذى انقلب على قنسطنطين الثالث بسبب سياسته الدينية، التى كانت تسعى إلى الابتعاد عن المذهب "التوفيقى" "المونوثولستية"، ويستشهد هؤلاء المؤرخون بأن رواية موته بوضع السم له قد وردت فى مصادر بيزنطية معاصرة، فإضافة إلى ثيوفانيس، فإن الرواية ذكرت عند كيدرنيوس Cedrenus وزوناراسZonaras، وهى مصادر معاصرة(٤).

---

(١) Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 392

(٢) Ostrogorosky. Op. Cit., p. 113، وهناك من يذكر أن أول من أطلق هذه الإشاعات وابتكرها كان القائد فالنتين واستخدمها لتحقيق أهدافه، وبقيت أصداؤها قائمة فى القسطنطينية بعد تركه لها وتوجهه إلى كبادوكيا. انظر: Camb. Med. Hist., Vol. II, p. 393

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 474.

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 124، ويذكر المنبجى الذى يرجح أنه كان يعتمد على هذه المصادر أيضًا، أن قنسطنطين « ملك أربعة أشهر، وقتله بعض نساء أبيه »، ويقصد بذلك مارتيناء المنبجى: مصدر سابق، ص ٥٣.

ويبدو أن هناك مبالغة في هذه الروايات، وأنها لا تعدو أن تكون تابعة من السخط العام الذى كان يواجه به هرقليوناس وأمه مارتينا فى القسطنطينية، فالإمبراطور قنسطنطين الثالث كان فعلاً معتل الصحة، ونرجح أن العامة والناقمين من رجال السناتو والجيش قاموا باختلاق هذه الجريمة البشعة وهذا المبرر ليسقطوا مارتينا وابنها عن الحكم، إذ أن هذا الاتهام لم يظهر فور وفاة الإمبراطور قنسطنطين الثالث، وإنما تأخر ظهوره فترة من الوقت، وبعد موافقة هرقليوناس على أن يشاركه ابن أخيه قنسطانز فى العرش، وتتويجه إمبراطورًا قسيمًا أو مشاركًا، وبعد أن أصاب النفي والعزل قطاعًا كبيرًا من القيادات والشخصيات الهامة فى القسطنطينية تنفيذًا لأوامر مارتينا وابنها.

زادت المعارضة لمارتينا وابنها، وانضمت جماهير القسطنطينية وزعماء الطوائف والحرف إلى صفوف المعارضين لهما، وتصاعدت المعارضة حين قامت مارتينا باستدعاء كيرس (المقوقس) من منفاه الذى قد كان نفاه إليه الإمبراطور هرقل، وذلك عندما استدعاه ليبرر المعاهدة التى قام بإبرامها مع المسلمين، وتسليمهم حصن نابليون. وكانت مارتينا تشعر أن كيرس سيكون عونًا لها، ومؤيدًا لحكمها هى وابنها[1].

ويرجح ألفرد بتلر أن اجتماعا قد تم بين الإمبراطورة مارتينا وبين البطريرك كيرس، قبل أن يصبح قنسطانز شريكًا فى الحكم، وأن كيرس استطاع إقناعهم بتسليم الإسكندرية للعرب، وأنه سافر من القسطنطينية قاصدًا الإسكندرية ليدير المفاوضات مع المسلمين، وأن يضمن أفضل الشروط للبيزنطيين[2].

وهناك من يرى أن التعليمات التى كانت لدى المقوقس تقضى بتسليم مصر للمسلمين مقابل أن يتركوا أرمينيا التى كانوا يستعدون لفتحها[3]، وأنه قد زود بقوة عسكرية للاستعانة بها فى حالة فشل مفاوضاته مع المسلمين للدفاع عن الإسكندرية[4].

---

(١) بتلر: مرجع سابق، ص ٢٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٣) الناصرى: الروم، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

(٤) Finlay. History of Greece, Op. Cit., I, P. 374

انفراد قنسطانز الثاني بالعرش البيزنطي:

سرت إشاعة مقتل الإمبراطور الراحل قنسطنطين مسمومًا بيد الإمبراطورة مارتينا وابنها هرقليوناس فى القسطنطينية سريان النار فى الهشيم، فاندلعت الثورة مجددا، وهنا وجد مجلس السناتو – الذى كان يتربص بمارتينا وابنها – فرصته للتدخل وحسم الموضوع. فأصدر قرارًا بعزل مارتينا وابنيها – هرقليوناس وتيبريوس – ولم يكتف بذلك بل قام بقطع لسانها، وجدع أنفى ابنيها، وكان ذلك فى نهاية شهر سبتمبر سنة ٦٤١م / ٢١هـ[١]، ثم تقرر نفيهما إلى جزيرة رودس Rohdes[٢].

ويذكر هولدن أن البطريرك بيروس قد طرد معهما، لأنه كان مشاركًا لهما ومناصرًا لمارتينا[٣]. وبينما تذكر مراجع أخرى أن البطريرك قد قدم استقالته[٤] تشير مراجع أخرى إلى أنه قد اختفى من المسرح قبل ظهور هذه الأحداث، وأنه عشية تتويج قنسطانز فى كنيسة أيا صوفيا ورفض الجماهير قيامه بعملية التتويج شعر بمقدار كراهية واحتقار الناس له. فقد بحثت الجماهير عنه فى الليلة التالية، ولم تجده، وإنما وجدت العباءة الخاصة به على مذبح الكنيسة على سبيل التوديع، وبعد اختباء لبعض الوقت هرب إلى أفريقيا دون مقاومة، ومع أنه لم يجرد من رتبته الكنسية، فقد تم تعيين البطريرك بولص Paul خليفة له [٥].

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 384.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 113.

(٣) Holdon, J.E, Byzantium in the seventh century, cambridge 1997, P. 50.

(٤) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٤.

(٥) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392.

لقد أثبت قرار مجلس السناتو، الذى أنهى حياة مارتينا وأبنائها على هذه الكيفية مقدار كراهيتهم لهذه المرأة ونسلها، وأن هذه الكراهية تعود إلى قضية زواجها من الإمبراطور هرقل، ثم سيطرتها على مقدرات الإمبراطورية فى شيخوخته، لقد كانت عملية الزواج الآثم الذى انتهك العرف والقانون ماثلة دائما أمام رجال السناتو وأمام الشعب، وتحقق ما كان يخشاه الإمبراطور هرقل، والذى حاول جاهدًا أن يمنع حدوثه بعد وفاته من خلال وصيته التى نصت على إشراك مارتينا وابنها فى العرش، ولكن الشعب ورجال السناتو لم ينسوا لها ذلك، فأنزلوا بهم أقسى عقوبة عرفت فى الإمبراطورية، بل وهناك من يرى أن هذا النوع من العقوبة قد حدث لأول مرة فى القسطنطينية، وقد أخذ مما كان معروفًا فى الشرق - فى فارس - حيث يتم إحداث عاهة أو تشويه فى الجسم، كقطع اللسان أو الأنف، والهدف منها أن الشخص الذى يتعرض لهذه العقوبة لن يعود كفؤًا لأن يتولى الأمور أو المناصب(١).

وإذا كان هناك دلالات أخرى لهذا الحدث الكبير الذى حدث فى العاصمة البيزنطية فهو الكشف عن مقدار السلطة التى أصبح يتمتع بها مجلس السناتو (الشيوخ)(٢)، ودوره فى إقرار الأمور، حيث تجلت هذه القوة فى اتخاذ قرار عزل مارتينا وابنيها وتنفيذ تلك العقوبة عليهما، ونفيهم خارج العاصمة. وهو دور قد أخذ يبرز منذ مطلع القرن السابع، ومنذ بداية أسرة هرقل؛ فالسناتو هو الذى ساهم فى وصوله إلى الحكم، وكان له دوره ورأيه فى فترة حكمه(٣)، وازداد هذا الدور بروزًا فى عهد خلفائه، بشكل ربما لم يسبق أن لعبه المجلس، إلا فى الفترة السابقة على نقل العاصمة إلى الشرق.

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 114 وأيضا: الباز العرينى: الدولة البيزنطية، ص ١٣٩.

(٢) سنعرض بالتفصيل فى الفصل الثانى لسلطة مجلس الشيوخ وتطورها وبروزها فى فترة الإمبراطور قنسطانز وأثر ذلك على الحكم فى بيزنطة.

(٣) Holdon, Op. Cit., P. 53.

ومن الدلالات أيضا أن أحداث هذه الفترة قد أكدت علـى قـضية توريـث العرش والحرص عليها، والتعامل معها على أنها من الأولويات التى يجب على كل إمبراطور أن يحرص عليها، بل ودفع هذا الحرص هؤلاء الأباطرة إلى التوسع فى توريث العرش إلى أكثر من وريث حتى يحافظوا عليه، فالإمبراطور هرقل حرصًا منه على بقاء العرش فى أسرته، أشرك معه فى الحكم اثنين من أبنائه، وأضـاف إليهما - بعد مماته - فى وصيته زوجته مارتينا. وهرقليونـاس اضـطر تحـت الضغط الشعبى والعسكرى إلى تعيين ابن أخيه، وتعيين شقيقه داوود كـإمبراطور شريك، من حقه أن يشارك فى وراثة العرش، وسيخطوا فى هذا الاتجـاه أبـاطرة الأسرة الهرقلية، بشكل واضح وتركيز مقصود، بحيث يصبح ذلك تقليدًا فى الأسـر التى اعتلت العرش بعد ذلك. ومعنى ذلك أن قضية وراثة العرش أخذت مكانها فى الإمبراطورية، وأصبحت مقننة وذات وجود شرعى متعارف عليه انطلاقًا من هذه الفترة، وهذه الأسرة البيزنطية الحاكمة.

على أية حال فقد شغلت هذه الأوضاع والصراعات شطرا كبيرا مـن عـام ٦٤١م، ورغم الظروف الدقيقة التى كانت تمر بها الإمبراطورية أمـام المـسلمين الذين كانوا يواصلون تقدمهم فى مصر، وفى أعالى بلاد الشام، إلا أن الـصراعات على العرش لم تتوقف، حتى انجلى الموقف بالتدخل الحاسم لمجلس السناتو، الـذى قرر وضع حد لها، وأعلن انفراد الإمبراطور قنسطانز الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره بالعرش ليبدأ حكمه تحت الوصاية والإشـراف الكامـل لمجلـس السناتو، ولتتجلى سيطرة هذا المجلس بشكل لم يسبق من قبل.

ولعل من آخر الدلالات التى يجدر ذكرها فى ختام هذا الفصل، أن عنـصرًا هامًا من العناصر التى لعبت أدوارًا خطيرة فى أحداث الإمبراطورية البيزنطية فى فتراتها السابقة، قد انحسر وتراجع، ونعنى بها الأحزاب Demes (حزبى الخـضر والزرق)، فإن هذه الأحزاب لم تشارك بشكل واضح وبارز فى صـراعات هـذه الفترة، ولعل مرد ذلك إلى أن الإمبراطور هرقل قد عمـل جاهـدا علـى تقلـيم

أظافرها، مما أدى إلى تراجع دورها وتأثيرها السياسى إذ أدت إصلاحاته - والتى سبق أن ناقشناها - إلى الحكم بالموت على نشاطها السياسى[1]، وانحصر تواجدها ودورها في الـ (Hippodromos) حيث سباقات الخيل والعربات والمباريات، وإلا لو كانت هذه الأحزاب قد استمرت فى ممارسة أدوارها السابقة نفسها، وتـدخلاتها السياسية، لربما كانت قد تغيرت نتائج الصراع المرير فى تلك الفترة الهامة.

Holdon, Op. Cit., P. 54 (١)

الفصل الثالث

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم
الإمبراطور قنسطانز الثانى
(٦٤١ — ٦٦٨م / ٢٠ — ٤٨ هـ)

- دور السناتو فى وصول قنسطانز الثانى إلى العرش.
- سياسة قنسطانز الثانى الدينية.
- الصراع مع المسلمين فى عهد قنسطانز الثانى.
- التحركات فى الغرب لاستعادة النفوذ البيزنطى.
- أستقراره فى الغرب وتفكيره فى نقل العاصمة.
- مؤامرة اغتياله فى سيراكوز بصقلية.

دور السناتو فى وصول قنسطانز الثانى إلى العرش:

أسفرت الأحداث والصراعات التى تلت وفاة الإمبراطور هرقل وتسببت فيها وصيته التى ظهرت فى أعقاب وفاته، عن انفراد حفيده قنسطانز الثانى بالعرش. ولعب السناتو (مجلس الشيوخ) الدور الحاسم فى وضع نهاية لتلك الصراعات وفى وصول الإمبراطور الجديد إلى العرش وانفراده به.

وهكذا حسمت قضية ولاية العرش ابتداء من أسرة هرقل، ولولا ذلك لرأينا بروز مغتصب جديد للعرش خاصة وأن الظروف جميعها كانت مهيأة لإمكانية قيام هذا المغتصب، ووصوله إلى العرش مستفيدًا من تردى الأوضاع، وتفاقم الصراعات التى سادت فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الإمبراطورية.

كما برز أيضًا دور مجلس الشيوخ مجددًا، واشتراكه فى إدارة دفة الأحداث، وملأ الفراغ فى السلطة الذى أفرزه ذلك الصراع.

والملاحظ أن مجلس الشيوخ – قبيل ابتداء حكم أسرة هرقل – أخذ يستعيد دوره الذى سلب منه خلال فترة حكم جستنيان الأول، والتى تميزت بقوة الإمبراطور واستبداده، مما جعل سلطات هذا المجلس تتوارى بعض الشيء(١). وتأكدت هذه السلطة وتعاظمت خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل وأسرته من بعده.

لقد كان انتخاب الإمبراطور ووصوله إلى العرش إحدى المهام التى يتولاها مجلس الشيوخ، حين كانت الإمبراطورية تدار بحكومة ثنائية (Dyarchy) طرفيها الإمبراطور ومجلس الشيوخ، ولكن هذه الثنائية ما لبثت أن تراجعت منذ فترة حكم

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 115

الإمبراطور دقلديانوس الذى كان حريصا على تحجيم دور مجلس السناتو، وتوارى هذا الدور تماما فى عهد سلفه الإمبراطور قنسطنطين الأول، واستمر ذلك إلى عهد الإمبراطور جستنيان حيث حلت الكنيسة محل مجلس الشيوخ فى القيام بهذا الدور والمشاركة فيه(١).

فخلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين، خضعت عملية انتخاب الإمبراطور لتطورات كبيرة. فبينما استعاد المجلس هذا الحق قبيل مجئ جستنيان، عادت سلطاته فانحسرت انحسارًا كبيرًا بعد اعتلائه العرش، ومع ذلك فلم تكن لمجلس الشيوخ الكلمة الأخيرة فى اختيار الإمبراطور، بل كان يقر المرشح الذى يقع عليه اختيار الجيش(٢).

وكان البطريرك يشارك فى مراسيم تعيين الإمبراطور(٣)، فيتوج الإمبراطور الجديد. ويمثل ذلك اعترافًا بنفوذ كنيسة القسطنطينية، دون أن يكون لهذه المشاركة دلالة أكثر.

وهكذا نجد أنه حتى أواخر القرن السادس كان لكل من مجلس الشيوخ والبطريرك والجيش والأحزاب أو الشعب دور فى انتخاب الإمبراطور(٤). وكان مجلس السناتو يمثل البيروقراطية وطبقة كبار الملاك والمتنفذين.

إلا أنه ابتداء من القرن السابع الميلادى استعاد مجلس الشيوخ نفوذه، وسيطرته الكاملة، ولعب الدور الأكبر فى قضية اختيار الإمبراطور ووصوله إلى العرش، وتمثل ذلك بشكل صريح وواضح فى قضية وصول قنسطانز إلى عرش الإمبراطورية، رغم سنه الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة، ورغم الصراع الذى كان محتدمًا حول العرش (٥).

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. I, P. 350

(٢) Enslin, Op. Cit., P.3

(٣) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٢٢٠

(٤) Stratos, Op. Cit., P. 4

(٥) Simon Franklin, Jonathan Shepard; Byzantine Diplomacy, London, 1992. P. 143

لقد تجلت قوة السناتو فى ذلك الدور الذى لعبه المجلس فى عـزل مارتينـا وهرقليوناس، وازدادت وضوحًا حينما صـارت لـه القوامـة والوصـاية علـى الإمبراطور الصغير قنسطانز الثانى[1]، وأكد قنسطانز ذلك فى الخطاب الذى ألقـاه حينما تولى العرش؛ فأمام السناتو ورجال الدولة والكنيسة أعلن الإمبراطور الجديد: "إن مارتينا وهرقليوناس؛ تم عزلهما بمقتضى قرار السناتو الذى صدر بتأييد مـن الله، لأن الشيوخ الذى اشتهروا بالصلاح والتقوى لم يستطيعوا أن يتغاضـوا عمـا يجرى فى إمبراطورية الرومان من الظلم والاستبداد"[2]. وطلب الإمبراطور مـن أعضاء المجلس أن يكونوا من الناصحين له، والعـاملين علـى تحقيـق مـصالح الشعب[3].

ويبدو أثر رجال مجلس الشيوخ فى هذه الكلمات، فلابد أنهم هم الذين لقنوها للإمبراطور الطفل، ولكن دلالتها واضحة فى مقدار مكانة وسلطان مجلس الشيوخ، حيث سيصبح المجلس مستشارًا للإمبراطور، ومحكمـة عليـا للقـضاء، وحاميًـا وموجهًا للإمبراطور[4].

على أن قنسطانز الثانى، الذى بدأ الحكم تحـت حمايـة ووصـاية مجلـس السناتو، لن يلبث أن يستعيد سلطاته وسيطرته على الحكم كلما تقـدم بـه الـسن، والملاحظ أنه كان للوسط الذى نشأ فيه قنسطانز أثر كبير فى السياسة التى اختطها لتصريف شؤون الدولة، والنهوض بها، إذ جعلتـه الدسـائس والمـؤامرات التـى أحاطت به منذ بداية حكمه، رجلاً نشطًا يقظًا، يميل إلى الاعتماد على نفسه، وبدأت تظهر ما انطوت عليه نفسه من صفات حين أصبح راشدًا وقادرًا على إدارة دفـة الشؤون العامة، وكان توجهه أولا السعى إلى تطهير الدولة مما علق بها من بقايـا الحوادث السابقة، وتأمين العرش[5].

---

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٣٩.

(٢) Ostrogorosky. Op. Cit., P. 115

(٣) Diehl, Op. Cit., P. 78

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 53

(٥) د. إبراهيم العدوى: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٥٦.

بدأ قنسطانز بالقضاء على عناصر القلق والاضطراب فى دولته، وكانت مستوطنة إذ ذاك فى إقليم آسيا الصغرى، إذ غدا هذا الإقليم مقرًا للثائرين على الأباطرة البيزنطيين، ومركز تجمع للمناوئين لسلطاتها، فكانت بعض القوات البيزنطية بآسيا الصغرى خارجة على طاعة قنسطانز بسبب تحريض بعض الحاقدين من رجال العهد الماضى، وتطور الأمر بأن شق الجند عصا الطاعة وتحول تمردهم إلى ثورة سافرة على الإمبراطور، ولكنه قاتلهم ببأس وعزيمة قوية، وبرهن على ما تمتع به من حزم وجلد حين حاصر مناطق القوات الثائرة سنة ٦٤٤م / ٢٤هـ، وضيق عليها الخناق حتى سلمت ودخلت صاغرة فى التبعية والطاعة مرة أخرى لسلطاته ونفوذه[١].

لقد كانت أولى الأزمات التى واجهها قنسطانز الثانى هى عودة ڤالنتين - والذى كان قد عين قائدًا لقوات ثيم الأوبسيق - إلى القسطنطينية بعد إخفاقه مع المسلمين وبصحبته ثلاثة آلاف من الجند، وأثار بهم المشكلات والفوضى فى العاصمة، حيث واجه الإمبراطور، وطالب أن يكون إمبراطورًا مشاركًا ثمنًا لمساعدته السابقة[٢]، أو على الأقل الظفر بلقب القيصر، الذى كان مساويًا لولى العهد فى ذلك الوقت، ولكن الموقف التفاوضى لم يجعله يحصل على هذا المنصب، وأقصى ما حصل عليه أن يكون رئيسًا للحرس الإمبراطورى فى العاصمة، وزواج أخته من الإمبراطور[٣]، وبعد سنتين من هذه الأحداث قاد استبداد ڤالنتين إلى ثورة شعبية ضده، أدت إلى التخلص منه، حيث قبض عليه وقطع رأسه[٤]. وأعطى منصب قائد القوات البيزنطية سنة ٦٤٦م / ٢٦ه بعد الخلاص من ڤالنتين إلى ثيودور Theodor[٥].

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 287

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 392

(٣) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 393

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 476

(٥) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 393

وخلال سنوات قليلة استطاع قنسطانز الثانى أن يحكم سيطرته على العرش، وأن يتخلص من المناوئين له، وأن يدخل عدة تطـويرات علـى نظـام الثيمـات العسكرى، جعلت بعض المؤرخين يذهبون إلى أنه هو المؤسـس الحقيقـى لهـذا النظام(١).

---

(١) Holdon. Op. Cit., P. 63، ويرى هالدون أن قنسطانز هو مؤسس نظام الثيمات البيزنطى، وسـبق أن ذكرنا فى الفصل الأول، أن الإمبراطور هرقل هو مؤسس هذا النظام وأن مـن جـاء بعـده مـن الأباطرة أضافوا إليه وطوروا فيه.

سياسة قنسطانز الثانى الدينية:

يندرج تحت سياسة الإمبراطور قنسطانز الداخلية، تلك السياسة التى اتبعها للتصدى للمشكلة الدينية، فقد كان أزمتها ما زالت محتدمة فى أعقاب طرح المذهب المونوثوليستى (التوفيقى) الذى حاول الإمبراطور هرقل فرضه على جميع رعايا الإمبراطورية، بهدف جمعهم تحت مذهب دينى واحد، وللقضاء على الخلاف المذهبى، وما كان يجره من صراعات امتدت إلى معظم ولايات الإمبراطورية.

والواقع أن هذه المحاولة من الإمبراطور (الراحل) هرقل، جاءت بنتائج عسكية، فهى لم تقض على الخلاف والصراع، وإنما زادتهما حدة واحتدامًا، وكانت من الأسباب التى سهلت خروج الولايات الشرقية ومصر من قبضة الإمبراطورية البيزنطية، وأوجدت مجالاً للخلاف مع الغرب الأوروبى، ومع بابوية روما بالأخص، وانتشر الخلاف حول هذا المذهب (التوفيقى) فى العاصمة البيزنطية نفسها. وسبق أن ذكرنا أن موقف البطريرك بيروس - الذى خلف سرجيوس الأول - ودعمه للمونوثلستيه، فى الوقت الذى كان قنسطنطين الثالث خليفة هرقل يرغب فى التخلص منها، هو الذى جعله يسحب تأييده للإمبراطور قنسطنطين، ويدعم مارتينا وابنها هرقليوناس، وبالتالى عودة البروز للتوجه المونوثوليستى فى فترتهما القصيرة، ثم ما تبع ذلك من معارضة رجال الدين الأرثوذكس للبطريرك بيروس ومارتينا وابنها، وانضمامهم للمعارضين لحكمهم[1].

ورغم التغيرات السياسية التى حدثت فى القسطنطينية فإن المشكلة الدينية ما زالت قائمة، فهناك كنيسة غير محددة الموقف فى القسطنطينية، وهناك صراع داخلها، وتمرد دينى فى شمال أفريقيا، أعلنه الراهب مكسيموس المعترف Confesus Maximus، إذ أعلن أن مذهب المشيئة الواحدة الذى وضعه هرقل،

---

(١) انظر الفصل السابق، ص ٣٤.

وتبنته كنيسة القسطنطينية ما هو إلا هرطقة دينية[1]، واستغل حاكم شمال أفريقيا واسمه جريجوريوس Grejorrius هذا التمرد، وأعلن انفصاله عن الإمبراطورية البيزنطية[2]. كما أن البابوية في روما أعلنت معارضتها لتوجه القسطنطينية الديني[3]. كذلك فإن الإمبراطور هرقل نفسه لم يكن كثير الحرص على المذهب «المونوثوليستى» خاصة بعد الخسارة التى منيت بها الإمبراطورية وفقدها للولايات الشرقية والتى كانت كنائسها فى بلاد الشام ومصر مختلفة مع كنيسة القسطنطينية.

لكل ذلك فقد شعر الإمبراطور قنسطانز بحاجة إلى التصدى لهذه المشكلة، ومحاولة معالجتها، بما يحفظ له ولكنيسة القسطنطينية مكانتها ونفوذها. فأصدر قرارًا سنة ٦٤٨م / ٢٨هـ جاء فيما يبدو استجابة لنداء من البابا ثيودوروس الأول (٦٤٢ - ٦٤٩م / ٢٢ - ٢٩هـ)[4] حمل صيغة توفيقية جديدة، عرفت باسم (Typos)، وتقرر إلغاء الأخذ بمرسوم الإيمان، الذى كان يسمى "الإكثيسيس" Ecthesis، والذى جاء به الإمبراطور هرقل[5]. كما اشتملت الصيغة الجديدة، والتى

---

(١) أسد رستم، كنيسة أنطاكية ج ٢، ص ٤٣.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 118 وتسميه المصادر العربية جرجير، وسنتعرض لاحقًا لحروبه مع المسلمين، انظر: الناصرى، الروم، ص ٢٣٠.

(٣) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٧

(٤) ويبدو أن هذا النداء البابوى، جاء استجابة لكل من بيروس (بطريرك القسطنطينية السابق) ومكسيموس المعترف، اللذين توجها من شمال أفريقيا إلى روما والتقيا بالبابا وتناقشا معه حول الأمر، والمعروف أن بيروس كان يؤيد المذهب المونوثوليستى بشدة، وقد انقلب على قنسطنطين الثالث (والد قنسطانز) بسبب ابتعاده عن المونوثولستية، ولكن مكسيموس المتعرف دخل فى جدال طويل معه انتهى باقتناعه سنة ٦٤٥م بخطأ المونوثولستية ورجوعه عنها. انظر أسد رستم: كنيسة أنطاكية، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤١.

وفي هذه الرواية دحض لتلك الرواية التى تذكر أن البطريرك بيروس قد لقى المصير نفسه الذى لقيته مارتينا وابنها هرقليوناس، وترجيح للرواية بأن البطريرك قد نفد بجلده قبل أن يصدر قرار السناتو، وغادر إلى شمال إفريقيا، انظر الفصل السابق، ص ٨١.

(٥) Vasilieve, Op. Cit., Vol. I, P. 223، ويذكر الدكتور الناصرى (مرجع سابق، ص ٢٣٠) أن قنسطنطين الكبير كان هو صاحب هذه الصيغة التى تسمى «الاكثيسيس»، وهذا خطأ فقد صدرت هذه الصيغة فى عهد الإمبراطور هرقل.

اعتبرت نموذجية على تحريم النقاش أو الجدل فى مسألة الإرادة الإلهية، وقدرة الله ومشيئته[١]. وقد صدرت هذه الصيغة بقائمة من العقوبات للذين يعترضون عليها، تراوحت بين السجن والجلد أو النفى[٢].

ولكن هذه الصيغة – مثل سابقتها – جرت إلى مزيد من المشكلات والنقاش، ولم يرضى بها المونوثوليستيون أو معارضوهم الأرثوذكس، وأيضا البابوية فى روما[٣].

ففى روما توفى البابا ثيودور فى مايو ٦٤٦م / ٢٦هـ، وكان خليفته البابا مارتين الأول Martin I، والذى تولى البابوية فى الخامس من يوليو ودون أن ينتظر تصديق الإمبراطور دعا فى الحال إلى مجمع دينى فى "اللاتران" (القصر الإمبراطورى) حضره جميع الأساقفة وتقرر فيه رفض الصيغتين؛ الأولى التى جاء بها هرقل، والثانية التى جاء بها حفيده قنسطانز؛ أى الأكثيسيس والتيبوس، كما تقرر شجب كل من يدافع عن الصيغتين، وشمل قرار الإدانة جميع الأساقفة الذين ساهموا فى إصدار أى منهما أو ثبتوهما سابقا[٤]. وأرسل قرار المجمع إلى رجال الدين وإلى الإمبراطور[٥]. ومثل هذا القرار تحديًا للإمبراطور وجاء جوابه وفق نصيحة بطريرك القسطنطينية بولس، بإصدار أمره لأرخون رافنا أوليمبوس Olympius للتوجه إلى روما مزودًا بتعليمات لانتزاع تأكيد الأساقفة الإيطاليين للمرسوم المعروف باسم Typos، وإذا حصل على تأييد الجنود المحليين فيتم القبض على البابا الذى لم يعترف به الإمبراطور[٦] .

---

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص.

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 401

(٣) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧، وأيضا: Diehl, Op. Cit., P. 45

(٤) شمل قرار الإدانة كلا من البطاركة سرجيوس وبيروس وبولص، والأساقفة قيرس (أسقف الإسكندرية) وثيودور (أسقف فرانى). انظر Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 401

(٥) Vasiliev, Op. Cit.. P. 223

(٦) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 119

غير أن أوليمبوس أراد أن يستغل الظروف التى تمر بهـا الإمبراطوريـة لصالحه، حيث بدأ المسلمون تصعيد هجماتهم البحرية، كما أراد استغلال كراهيـة أهل روما لبيزنطة، ليحصل على مكاسب شخصية فرأى أن يفصل إيطاليـا عـن الإمبراطورية ويستقل بها كما فعل جريجوريوس فى شمال أفريقيا، فعبـر بجيـشه إلى صقلية وتمركز بها، وبعد أن تفاهم مع البابا خلـع ولاءه للإمبراطـور. ولـم تقاومه الإمبراطورية البيزنطية لانشغالها بالتطورات العسكرية على الجبهة الشرقية مع المسلمين، وما لبث أوليمبوس أن توفى سنة ٦٥٢م / ٣٢ هـ[١]. ولكن أرخـون رافنا الجديد ثيودور كاليوباس Theodor Calliopas قام فى ١٥ يونية ٦٥٣م / ٣٣هـ على رأس جيش بدخول روما، وألقى القبض على البابا مـارتين يـوم ١٧ يونيـة بتهمة إرسال أموال ورسائل إلى العرب، وازدراء السيدة العذراء، وفى منتـصف ليلة الثامن عشر تم نقله من روما، وأرسل بحرًا إلى القسطنطينية التى وصلها يوم ١٧ سبتمبر[٢]، وأودع السجن إلى يوم ٢٠ ديسمبر حيث مثل أمام السناتو، وكـان مريضًا من طول الرحلة والاعتقال، حتى أنه حمل إلى المحاكمـة علـى محفـة. وكانت محاكمته سياسية أكثر منها دينية حيث اتهم بـالتمرد علـى الإمبراطـور، وتدبير فتنة فى الأقاليم الغربية بالتعاون مع أوليمبوس، ولم يسمح له بإثارة القضية الدينية[٣]، وأخيرًا حكم عليه بالموت، ونظرًا لكبر سنه وسوء حالته الـصحية فقـد خفف الإمبراطور الحكم إلى السجن، وفى ١٥ مايو تقـرر نفيـه إلـى خرسـون Cherson وهى مدينة نائية تقع على الساحل الجنوبى لشبه جزيرة القرم، وظل بهـا حتى وفاته فى سبتمبر عام ٦٥٥م / ٣٥ هـ[٤]، وقاسـى هنـاك الأمـرين، حيـث

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402.

(٣) د. حسنين ربيع، مرجع سابق، ص ٨١.

(٤) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402 ويذكر الباز العرينى أن وفاته كانت فى أبريل سـنة ٦٥٦م استنادًا إلى فاسيليف، وبالعودة إليه نجد أنه لم يحدد تاريخا، وإنما ذكر أنه لم يلبث أن مات بعد وصوله بوقت قصير!

تضمنت الرسائل التى بعث بها من خرسون إلى أصدقائه فى روما الشكوى فى سوء المعيشة وفقدان الطعام، وخاصة الخبز الذى قال أنه يسمع عنه ولا يراه(١)!

أما مكسيموس المعترف والذى سبق وأن أشرنا إلى أنه كان يقيم فى روما منذ عام ٦٤٥م / ٢٥هـ، فقد أرسل إليه الإمبراطور قنسطانز الثانى مندوبًا كنسيًا لمحاولة إقناعه، إلا أن شعوره بأنه كان المحرض الرئيسى لمقاومة البابا حال دون تسليمه، لذلك استمر فى رفضه، حتى ألقى عليه القبض سنة ٦٥٣م / ٣٣ هـ(٢)، وأرسل إلى القسطنطينية كمجرم، وخضع لمحاكمة أمام السناتو بتهمة التآمر مع جريجوريوس أرخون أفريقيا، ورفض تعاليم الإمبراطور. ورغم كل المحاولات التى بذلت لإقناعه بـ"التيبوس" إلا أنها باءت جميعها بالفشل(٣). وأمضى حياته ولعدة سنوات فى شقاء متنقلاً من سجن إلى آخر، وعانى كثيرًا من الأمراض، وصدرت الأوامر الإمبراطورية بقطع لسانه ويده اليمنى(٤). وكان آخر منفى له فى لازيقا على البحر الأسود حيث مات فى ١٣ أغسطس سنة ٦٦٢م / ٤٢هـ، وقد بلغ الثانية والثمانين من العمر(٥).

وبالنسبة للبطريرك بيروس – والذى تعددت مواقفه الدينية – فإنه أعلن توبته عن موقفه السابق، ووافق على التيبوس الذى جاء به قنسطانز، وسمح له بالعودة إلى القسطنطينية، ونصب بطريركًا للمرة الثانية بعد وفاة بولص الثانى، ولكنه ما لبث أن توفى بعد خمسة أشهر وذلك سنة ٦٥٢م / ٣٢هـ(٦).

---

(١) Vasiliev, Op. Cit., P. 224

(٢) Camb. Med. Hist., Vol. II, P. 402

(٣) إسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية (دار المعارف) القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٩٣.

(٤) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 120، ويذكر أسد رستم أنه بلغ عند وفاته الرابعة والثمانين، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٣

(٦) أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧.

والواقع أن هذا النزاع الذى ساد بين الإمبراطور من جهة والبابوية والزعامات الدينية من جهة أخرى يعطى دلالة كبيرة لذلك الصراع والتنافس الذى ساد بين الزعامتين الدينية والسياسية، ونضال الكنيسة فى التخلص من الخضوع للسلطة الإمبراطورية، فالأباطرة كانوا حريصين على فرض سلطة الحكومة على الكنيسة، والتى ثبتها الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) بشكل واضح حيث رسم فى أحد متجدداته ب "أن المناصب الدينية تخدم الأمور الدينية، والسلطة الإمبراطورية تكون فوقها"[١]. وأما مكسيموس فقد حرص خلال معارضته ورفضه الإعلان بأن الإمبراطور - باعتباره من العلمانيين - لا يجوز له أن يتدخل فى أمر العقيدة، التى هى من اختصاص الكنيسة وحدها[٢]، ولم تكن هذه الفكرَة جديدة، وإنما هى حلقة فى سلسلة الصراع، فقد سبق ونادى بها كثير من آباء الكنيسة فى بداية العصر البيزنطى، غير أن حماس مكسيموس لها فاق الآخرين وجعله يدفع حياته ثمنًا لذلك.

ولم يستطع الإمبراطور قنسطانز القضاء على هذا التطلع الكنسى، فإن طموح الكنيسة فى الانعتاق من السيطرة الإمبراطورية سيظل قائمًا، وسيتجدد فى فترات لاحقة، وسيجر إلى منازعات خطيرة، على أن المؤكد هنا أن الإمبراطور قنسطانز وقد شعر برغبة البابوية فى إبراز سمو مركزها ورغبتها فى تأكيد هذا السمو، جعله ذلك يصر على تقليم أظافرها، وإجبارها على الخضوع لسلطته، ومن سوء حظ البابوية أن البابوات الذين تلوا مارتين فى الكرسى البابوى كانوا ضعافًا، وأظهروا خوفهم من أن يتكرر معهم مصير البابا مارتين، لذلك خضعوا للإمبراطور[٣]، الذى ذهب بعيدًا فى مخططه للتصدى للبابوية، حتى أنه منح رئيس

---

(١) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٤٣١، نقلا عن: Justinian Novella VI in R. Schoeled, Corpus Iuris civilis Vol. III, Berlin, 1919 P. 35

(٢) Vasiliev, Op. Cit., P. 224.

(٣) سعيد عاشور، أوروبا فى العصور الوسطى، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٣.

أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطاتها، وربطه بكنيسة القسطنطينية، واستمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين عامًا، حتى انتهى الأمر بعودتها إلى حظيرة البابوية[١].

ترتب على هذه الحوادث أن تقوى مركز الإمبراطور البيزنطى واستطاع أن يفرض سلطته على البابوات الذين تولوا الأمر فى روما، وتدخل أرخونه فى رافنا فى اختيار البابا الجديد الذى نصب عوضًا عن مارتين الأول[٢]، فاختار إيوجين الأول(Eugenius I) (٦٥٤ ٦٥٧م / ٣٤ - ٣٧هـ)، والذى لم يستمر طويلاً، ثم جاء بعده ڤيتاليان (Vitalianus) (٦٥٧ - ٦٧٢م / ٣٧ - ٥٢هـ)، وأجريت مباحثات بين الإمبراطور البيزنطى وبطريرك القسطنطينية وبين البابوية، وتم الصلح مع البابا ڤيتاليان الذى لم يعترض على التيبوس[٣]، وهدأت حدة النزاع وكان ضعف ڤيتاليان أحد الأسباب الهامة التى أوصلت إلى هذا الهدوء.

وعندما قام الإمبراطور - فيما بعد - بزيارة روما، قدم له البابا ڤيتاليان فروض الولاء والتبعية، ولم يتورع الإمبراطور عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التى وجدها فى روما[٤].

---

(١) Oman, The Dark Ages, Op. Cit., P. 223

(٢) Camb. Mid. Hist. Vol. II, P. 404.

(٣) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، ج ٢، ص ٤٣.

(٤) Oman, The Dark Ages, Op. Cit., P. 227.

الصراع مع المسلمين في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني:

في الفترة البسيطة التي انفردت فيها الإمبراطورة مارتينا وابنها هرقليوناس بالعرش في القسطنطينية، أعطت مارتينا تعليمات بالإفراج عن كيرس (المقوقس)[1]، وعودته إلى الإسكندرية، ومعه تعليمات بإجراء مفاوضات مع المسلمين لتسليم الإسكندرية، فاتفق كيرس مع عمرو بن العاص على منح الروم مهلة ينسحبون خلالها من الإسكندرية، وتحددت هذه المهلة بأحد عشر شهرا[2].

ودخل المسلمون الإسكندرية بعد نهاية المهلة هي ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢م / ٢١هـ، بعد أن جلى عنها الروم، وكانوا قد حكموها ما يقرب من سبعة قرون[3]. وقد اتجه أسطولهم بعد مغادرتها إلى جزيرة «رودس»، وقدر عدد الروم الذين غادروها آنئذ بثلاثين ألفا حملوا معهم ما استطاعوا حمله من المال والمتاع والأهل، أما من بقي فقد اعتبر أسيرا، وبقي من الأسارى ممن بلغ سن دفع الخراج، فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان[4].

---

(١) كان المقوقس في القسطنطينية حيث وصلها لمحاولة تبرير اتفاقه مع المسلمين، لتسليم حصن بابليون والحصول على موافقة الإمبراطور هرقل، ولكن الإمبراطور غضب منه، واتهمه بالتخاذل وأمر بسجنه وتعذيبه بتهمة الخيانة (انظر الفصل الأول، ص ٥٣).

(٢) بتلر، مرجع سابق، ص٣٠٦.

(٣) علية الجنزوري، هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٢م) ص٢٧.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، مصدر سابق ص، ١٨٢. ويلاحظ هنا المبالغة التي تعودت مصادر العصور الوسطى سواء البيزنطية أو الإسلامية ذكرها عند الحديث عن أعداد السكان أو الجيوش أو الأسرى. ويسجل ابن عبد الحكم فرحة المسلمين ودهشتهم من استسلام الإسكندرية رغم حاميتها الكبيرة، ودهشة العرب لجمال الإسكندرية وما بها من حدائق وقصور وكنائس وغيرها من المنشآت.

وهكذا استلم الإمبراطور قنسطانز الحكم فى القسطنطينية وقد خرجت مصر بكاملها من حكم الإمبراطورية، وشعر الإمبراطور وأركان حكومته بالمهانة الكبيرة التى لحقت بهم، والضرر الكبير من ضياع مصر وأثر ذلك اقتصاديا وسياسيا، ويبدو أنه لم يكن سهلا على الإمبراطور التفريط فى مصر وأخذ يعمل بصمت منتظرا الفرصة المناسبة للوثوب عليها ومحاولة استعادتها من المسلمين.

وجاءت الفرصة المناسبة فى أواخر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م[١] حين استغل الظروف التى قامت فى الإسكندرية فأرسل حملة بحرية استطاعت أن تنزل جيشا على أرض مصر وتستعيد الإسكندرية[٢]، فما الذى حدث ودفع بإرسال هذه الحملة وتسهيل نزولها فى الإسكندرية؟!

تتعدد الروايات التاريخية التى تؤرخ لهذا الحدث الهام، وتورد أسبابا عدة لهذه الحملة التى كان الرأس المدبر لها الإمبراطور قنسطانز الثانى، والذى أراد بحملته البحرية أن يعيد قصة جده هرقل مع الفرس، إذا انتهز افتقار المسلمين إلى أسطول بحرى وعمد إلى مفاجأتهم فى الإسكندرية، والاستيلاء عليها وجعلها قاعدة لإخراجهم من مصر[٣]. ومن هذه الروايات ما ذكر من أن صاحب "إخنا"[٤] قدم إلى عمرو بن العاص وقال له اخبرنا ما على أحدنا من الجزية فرد عليه عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة "لو أعطيتينى من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف هنا خففنا عنكم" لذا غضب

---

(١) يختلف المؤرخون العرب – كعادتهم – فى تحديد السنة التى خرج وعاد فيها الروم إلى الإسكندرية بحرا، فيذكر البلاذرى (فتوح البلدان، ص ٢٢١) يحتمل أن يكون ذلك سنة ٢٣هـ، ويذكر ابن الأثير (الكامل، ج ٣ ص٤١) أنه كان سنة ٢٥ هـ، ويتفق معه فى ذلك قوات الحموى (معجم البلدان، ص ٧٣)، وخليفة بن خياط (تاريخه، ص١٥٨).

(٢) أسد رستم، الروم، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٥٥.

(٣) د. إبراهيم العدوى: قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) إخنا: بالكسر ثم السكون، وهى وكورة بقرب الإسكندرية، وهى مدينة قديمة، وكان صاحبها – أثناء الفتوح – يسمى طلما. ياقوت الحموى / معجون البلدان، مصدر سابق ج ١، ص ١٢٤.

صاحب إخنا وخرج إلى الروم وأثارهم ضد المسلمين فقدموا إلى الإسكندرية لمحاربتهم، وبذلك نقضوا العهد الذى كان بينهم(١).

ويذكر ابن الأثير سببا آخر، وهو أنه فى سنة ٦٤٥م / ٢٥ هـ "خالف أهل الإسكندرية، ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين للإسكندرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح"(٢).

كما يذكرا ابن كثير أن أهل الإسكندرية نقضوا العهد سنة ٢٥ هـ "لأن ملك الروم بعث إليهم (معويل) الخصى فى مراكب فى البحر فطمعوا فى النصر ونقضوا ذمتهم"(٣).

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن جماعة من زعماء الإسكندرية أنفذوا كتبا إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى الذى انفرد بالحكم يسألونه النهوض لمساعدتهم، وشرحوا له أنه ليس بالإسكندرية إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع

---

(١) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٦٧، السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٥٩. ويذكر ابن عبد الحكم أن مجئ الروم إلى الإسكندرية بعد استشارة صاحب " إخنا " لهم وبعد أن تمت هزيمتهم أسر صاحب " إخنا " (النبطى) وجئ به إلى عمرو بن العاص فقال له الناس اقتله! فقال: لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر!

ونحن لا نميل إلى تصديق هذه الرواية، فقبل الحملة البيزنطية كان عمرو بن العاص قد عزل عن حكم مصر فى بداية عهد عثمان بن عفان، وكان عثمان قد تولى الخلافة فى غرة محرم سنة ٢٤هـ. ثم لا يعقل أن لا يكون عمرو بن العاص قد وضع مقدارا للجزية على أهل مصر، محددا ومعروفا، فذلك كان من بنود الصلح. وقد تصدق هذه الرواية على والى مصر الجديد عبد الله بن سعد أبن ابى سرح الذى جعل أول همه زيادة الضرائب على أهل الإسكندرية.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٨١، وأيضا: ابن الجوزى (أبى الفرج عبد الرحمن) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م) ج٤، ص٣٤٣.

(٣) ابن كثير، البداية، والنهاية، ج ٧، ص ٦٥، والمقصود ب " معويل " هنا " منويل ' Manuel وهو القائد البيزنطى الذى سبق وأن دافع عن الإسكندرية عندما حاصرها المسلمون فى المرة الأولى، وكان له دراية بمسالك هذا الميناء الهام.

جيش الروم، فأثرت تلك الكتب فى الإمبراطور الذى لم ينس ما لحق بدولته من ضرر من ضياع مصر(١).

فى حين يرى مؤرخ آخر أنه بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان، عزل عمرو بن العاص عن مصر فانتهزت دولة الروم تلك الفرصة لتقوم بهجوم مضاد ضد مصر(٢).

ومهما اختلفت الروايات فقد حدثت انتفاضة فعلية من جانب الروم، ومحاولة جادة لاستعادة الإسكندرية (٣). والواقع أن الروم توخوا السرية التامة فى إرسال تلك الحملة، وكانت دولة الروم لا تزال إلى ذلك الحين تفرض سلطانها على البحر، وعلى العكس من ذلك كان المسلمون؛ فلم يكن لهم في ذلك الوقت سفينة واحدة فى بحر الروم تأتيهم بأخبار أسطول الروم، الذى بعث به الإمبراطور للاستيلاء على الإسكندرية، فما شعروا إلا وأسطول الروم يدخل الميناء فى ثلاثمائة سفينة ولم يكن بالمدينة إلا ألف رجل من المسلمين للدفاع عنها، فتغلب عليهم الروم، وقتلوهم إلا عددا قليلا(٤). وتم الاستيلاء على الإسكندرية وزحفوا إلى ما يليها من بلاد الدلتا ينهبون ويغتصبون من السكان ما لديهم من قمح ونبيذ ومال، وعندئذ تحرج مركز

---

(١) السيد الباز العرينى، مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ٤٣٢، وأيضا: بتلر، مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.115 وعن قضية عزل عمرو بن العاص عن مصر يذكر ابن عبد الحكم الرواية التالية " كان عمر بن الخطاب قد توفى سنة ٢٣هـ، وخلفه عثمان بن عفان رضى الله عنه، فعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مكانه، وكان عمر بن الخطاب قد ولى عبد الله بن سعد من الصعيد إلى الفيوم، فلما استخلف عثمان طمع عمرو بن العاص أن يعزل له عثمان عبد الله بن سعد عن الصعيد فرد عليه عثمان بقوله: لقد ولاه عمر بن الخطاب الصعيد وليس بينه وبينه حرمة ولا خاصة، وهو أخى فى الرضاعة فكيف أعزله عما ولاه غيرى، فغضب عمرو، فعزله عثمان وولى عبد الله بن أبى سرح مصر كلها ". ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص ١٧٣، ١٧٤.

(٣) د. علية الجنزورى، مرجع سابق، ص٢٧.

(٤) د. سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، ص ٧٧.

المسلمين فى مصر[1]. وتوسع الإمبراطور فى خطته البحرية بإرسال حملة أخرى تغير على شواطئ الشام فى الوقت نفسه الذى كان فيه مانويل يهاجم الإسكندرية ليحقق أهدافه في سهولة وسرعة، ولم يجد قنسطانز عقبات فى إعداد السفن اللازمة، لأنه بادر عقب تخلصه من مشكلاته الداخلية بإصلاح دور صناعة السفن ولا سيما فى الجزر القريبة من شواطئ الشام، وبذلك وجدت سلطات الروم كافة الوسائل التى أتاحت لها إرسال أسطول قوى للإغارة على مصر والشام[2].

ويذكر بتلر أن البيزنطيين كادوا أن يحققوا انتصارا حاسما، ولكن سوء معاملتهم لأهل مصر، وتقاعسهم في الوصول إلى الفسطاط هو الذى أبعدهم عن هذا الانتصار وعجل بهزيمتهم وفشل محاولتهم[3]. وفى هذا الوقت كان تصرف المسلمين سريعا وتداركهم للأزمة حاسما، حيث قرر الخليفة عثمان بن عفان[4]، استدعاء عمرو بن العاص إلى قيادة قوات التصدى الإسلامى للهجوم البيزنطى، وقد أشار بذلك القادة العرب الذين كانوا موجودين فى مصر، من واقع معرفتهم بخبرة عمرو بن العاص فى مقاتلة البيزنطيين وحنكته وقدراته العسكرية[5].

استطاع عمرو بن العاص أن ينظم أمر مقاومة البيزنطيين سريعا، واقترح خارجة بن حذافة الذى كان يتولى الدفاع عن حصن بابليون أن يبادر إلى العدو قبل أن يأتيه المدد، أو ينضم إليهم مزيد من المصريين، ولكن عمرو رأى خلاف ذلك،

---

(١) أسد رستم: الروم، ج ١، ص ٢٥٥.

(٢) د. إبراهيم العدوى: قوات البحرية العربية، ص ١٣. الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٥١.

(٣) بتلر: مرجع سابق، ص ٤١٩.

(٤) يذكر الدكتور إبراهيم العدوى أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذى أعاد عمرو بن العاص إلى مصر (قوات البحرية العربية، ص ١٣) وهذا خطأ فالذى عزله وأمر بعودته هو عثمان بن عفان رضى الله عنه، فعمر بن الخطاب كان قد انتقل إلى رحمة الله قبل هذا الحدث بسنتين. حيث كانت وفاته فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٢٣هـ ودفن فى أول المحرم سنة ٢٤هـ (٧ نوفمبر ٦٤٤م).

(٥) تختلف المصادر الإسلامية فى أين كان عمرو بن العاص عندما هاجم مانويل الإسكندرية، فيذكر الطبرى (ج٤، ص ٢٥٦) أنه كان فى مكة وأمره الخليفة بسرعة السفر إلى مصر، بينما يذكر المقريزى (الخطط، ج ١، ص ١٦٧) أنه كان فى مصر، وينقل ذلك عنه آخرون.

وسار البيزنطيون على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس حيث التقى الجيشان، وكان عدة جيش عمرو بن العاص خمسة عشر ألف مقاتل، وعدة البيزنطيين أكثــر مــن ذلك بكثير[١]، ودارت هناك معركة عظيمة فى البر وفى البحر، انتهــت بهزيمــة جيش مانويل وفراره إلى الإسكندرية حيث تحصن بها، وبدأت حركة مقاومة حيث طال الحصار وكان حصارا أشق وأضنى من الحصار الأول، ويعــود ذلــك إلــى وجود أسطول البيزنطيين فى مياه الإسكندرية يزود المقاتلين بالعدة والعتاد ويقــف حارسا وحاميا لظهورهم إلى جانب متانة أسوار الإسكندرية وحصانتها[٢]، ولم تفتح المدينة إلا بعد أن قام أحد القبط المصريين – وقد أبدوا هذه المرة تعاونًا كبيرًا مــع المسلمين – بإرشاد عمرو إلى أحد الأبواب التى تفتقر إلى الحراسة الشديدة، فركز عمرو هجومه على المدينة من خلال هذا الباب حتى تمكن من فتحهــا، ودخولهــا عنوة، وأعمل السيف فى القوة البيزنطية المقيمة هناك[٣].

أما مانويل فقد اختلفت المصادر فى مصيره، فتذكر بعضها أنه قتل[٤]، بينما يذكر آخرون أنه استطاع الفرار بالأسطول الذى كان ينتظر أمام الساحل، حيث فر هو وبقية البيزنطيين[٥]، وفتحت المدينة عنوة، وقاد البطريرك المنوفيزتى "بنيامين" – الذى كان مطاردا من البيزنطيين – أهالى المدينة فى مظاهرة تأييد للمــسلمين،

---

(١) بتلر: مرجع سابق، ص ٤٢٠، وهو يصحح الرقم الذى ورد فى البلاذرى والذى ذكر أن عــدة الجــيش كانت (١٥٠٠) مقاتل. أما نقيوس وتسمى أيضا أبشاتى فإنها تسمى حاليًا (شبشير) وهى فــى الـشمال الغربى من منوف على النيل، وكان لها اسمان قبطى ويونانى (نيكيــو، نيكيــون). (بتلــر. ص ٥٥) ويعرفها ياقوت الحموى بأنها قرية بين الفسطاط والإسكندرية، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٠٣.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.288.

(٣) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٥٨، ويذكر السيوطى (حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٢) أن هذا القبطى كان اسمه " ابن بسامة " وقد أمنه عمرو على نفسه وأهله وأرضه.

(٤) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥، الــبلاذرى، ص ٢٢٣، ابــن الأثيــر، الكامــل، ج ٣، ص ٤١، العــدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٥٢، بتلر، فتح العرب لمصر، ص ٤٢١.

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P.115؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٤١.

وأعلن الإذعان والخضوع لحكمهم[1]. وعمد عمرو بن العاص إلى تخريب أسوار الإسكندرية بعد العنت الذى قاساه وهو يحاصرها[2]. وكما فشلت محاولة البيزنطيين لاسترداد الإسكندرية، كذلك فشلت محاولة قنسطانز فى بلاد الشام، وكان معاوية بن أبى سفيان - والى الشام - هو الذى تصدى لها[3].

ورغم فداحة الكارثة على البيزنطيين، فإنهم لم يستسلموا لذلك، بل سنجدهم يبذلون محاولات أخرى، أما بالنسبة للمسلمين فقد شعروا بمدى حاجتهم إلى الاهتمام بالبحر وإقامة أسطول بحرى يحمى شواطئهم، وأنهم طالما لم يتوفر لهم هذا الأسطول سيظلون عرضة لهجمات أخرى من البيزنطيين. لقد استفاد المسلمون كثيرا من حملة الإسكندرية، فأخذوا يتمرنون على ركوب البحر وبناء السفن لحماية الثغور، وتشييد الربط، والحصون للمراقبة، ووضعوا نظاما للمرابطة، فكانت ترابط فى الإسكندرية قوة دائمة لمدة ستة أشهر متواصلة، حيث أبقى فيها عمرو بن العاص ربع قواته، وخص بقية السواحل فى البحر المتوسط بربع ثان واحتفظ بنصف الجيش لباقى البلاد[4] على أن يتم تشديد الحراسة والمرابطة فى فصل الصيف لملاءمة أحوال البحر المناخية - الذى تكثر فيه الغزوات البحرية - للسفن والأساطيل، ثم تحل محلها مجموعة أخرى فى فصل الشتاء، وتنطلق المجموعة الأولى إلى داخل البلاد فى مهمات أخرى[5].

---

(١) الباز العرينى، المرجع سابق، ص ١٤١.

(٢) أرشيبالد لويس: مرجع سابق، ص٨٩، ويذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص عندما كان يحاصر الإسكندرية أقسم إذا نصره الله على الروم وأجلاهم من الإسكندرية، أن يهدم سورها ويجعلها مثل بيت الزانية يؤتى من كل جانب، ابن عبد الحكم: ص ١٧٥، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٤٢، هامش رقم (٢). السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) أسد رستم: الروم، ج ٢، ص ٢٥٥. العدوى: قوات البحرية العربية، ص١٤.

(٤) سعاد ماهر: البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٥) نفس المرجع، ونفس الصفحة.

لقد شعر المسلمون أن وصولهم إلى شواطئ البحر المتوسط، وضع أمامهم مشكلات جديدة تتصل بالطبيعة البحرية، فهم لم يعرفوا حتى هذه اللحظة إنشاء الأساطيل فوقفوا عاجزين عن مواجهة السفن البيزنطية العديدة التي استطاعت بسهولة الوصول إلى الولايات العربية الجديدة على أول شاطئ البحر، وحقيقة أن المسلمين سيطروا على فتوحاتهم فى البر إلا أن السيادة في البحر كانت لا تزال في قبضة البيزنطيين(١).

أما على الجبهة البرية حيث كان التفوق الإسلامى بارزا فقد شهدت الإمبراطورية البيزنطية زمن الإمبراطور قنسطانز الثانى نكسات متوالية، إذ استطاع معاوية بن أبى سفيان – والذى اجتمع له حكم الشام – أن يرسخ أقدام المسلمين فى الشام والجزيرة، وبدأوا يتطلعون إلى أرمينيا وآسيا الصغرى؛ فى سنة ٦٤٢ م / ٢٢ هـ، وسنة ٦٤٣ م / ٢٣ هـ، شنوا غارات متواصلة على الأراضى الأرمينية(٢) وحققوا انتصارات كبيرة، وفى سنة ٦٤٧ م / ٢٦ هـ غزا معاوية بن أبى سفيان قبادوقيا، وفتح قيصرية، ومن ثم تحول إلى فريجيا، ورغم أنه لم ينجح فى فتح عمورية لمناعتها إلا أنه توغل فى هذه الجهات الهامة من الأراضى البيزنطية وعاد إلى دمشق محملا بالغنائم والأسرى(٣).

وظل الأسطول البحرى هو الشغل الشاغل للمسلمين، فإنهم مهما حققوا من انتصارات برية تبقى ناقصة ومهددة بالزوال إذا لم يكن هناك أسطول بحرى يحمى الشواطئ، ويمنع غارات البيزنطيين عليها.

---

(١) د. وسام فرج العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية (الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية) ١٩٨٩م، ص٣٣.

(٢) ابن الأعثم (أبى محمد أحمد الكوفى): الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ج ١، ص ٣٤١.

(٣) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٤.

وتجمع بعض المصادر والمراجع التاريخية أن معاوية بن أبى سفيان[١] - والى الشام - قد لعب الدور الكبير فى إنشاء الأسطول الإسلامى، فهو من واقع ولايته لبلاد الشام التى تمتلك شاطئا كبيرا وهاما، واحتكاكه المباشر بالبيزنطيين، وتعرضه لغاراتهم المفاجئة، ومن واقع تطلعاته وطموحاته لتوسيع رقعة الفتوح الإسلامية، واحتكاكه ومعرفته السابقة ببلاد الشام، فقد أولى إنشاء أسطول بحرى إسلامى اهتماما كبيرا.

وكانت محاولات معاوية لإنشاء هذا الأسطول مبكرة، فقد استفاد من الإمكانيات المتوافرة فى بلاد الشام ومن الصناع المهرة، ومن السفن التى تركها البيزنطيون لتكون نواة لهذا الأسطول[٢].

أرسل معاوية بن أبى سفيان إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى فتح جزيرة أرواد[٣] وكتب إليه محفزا: "يا أمير المؤمنين إن الشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهى تلقاء ساحل من سواحل حمص"[٤]، ورأى الخليفة أن يستشير ولاته وأصحاب الرأى فيما كتب إليه معاوية، فأرسل إلى عمرو بن العاص - والى مصر - يستشيره فى ركوب المسلمين للبحر والذى رد عليه

---

(١) المعروف أن معاوية كان يشارك أخاه يزيد بن أبى سفيان فى فتوحات مدن الشام، وكان واليًا للشام، وعندما توفى يزيد فى طاعون " عمواس " الذى ضرب بلاد الشام سنة ١٨ ه ومات فيه عدد من المسلمين، أمر الخليفة عمر بن الخطاب معاوية على جند الشام وخراجها. انظر الطبرى: مصدر سابق، ج ٤، ص٦٢.

(٢) أرشيبالد لويس: مرجع سابق، ص٩٠؛ موسوعة تاريخ مصر الإسلامية، مرجع سابق، ص ٧٦؛ د. حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٣) يذكر بعض المؤرخين أن هذا الاستئذان كان لفتح جزيرة قبرص، ولكن هذا الوصف بالقرب الشديد لا ينطبق على جزيرة قبرص وإنما ينطبق على جزيرة أرواد التى كانت قريبة من الساحل السورى، والتى كانت تتلقى دعما مباشرا من الأسطول البيزنطى. عبد العزيز سالم، أحمد العبادى، البحرية الإسلامية، مرجع سابق، ج١، ص ١٧. ولمزيد من التفاصيل عن جزيرة أرواد انظر الهامش رقم (٦) ص ١١٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٤٨.

بقوله: "إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق"(١). ولما استلم الخليفة هذا الرد كتب إلى معاوية ينهاه عن ارتياد البحر ويقول:" تالله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم"(٢). ولكنه سمح له بإقامة الدفاعات والاستحكامات اللازمة من ترميم الحصون وترتيب المقاتلة بها وإقامة الحرس واتخاذ المراقبة لها(٣).

ويتخذ بعض المؤرخين من هذه الروايات مبررا كافيا لاتهام العرب بأنهم لم يكونوا أمة بحرية(٤)، أو محبين لركوب البحار، وإذا كان هذا الرأى ينطبق على عرب وسط الجزيرة، فإنه لا ينطبق بإطلاق على كل العرب، الذين كان لهم تجاربهم ومعايشتهم مع البحار المحيطة بهم، على أنها تحمل دلالة بأن الخليفة عمر بن الخطاب كان حريصا على القوات الإسلامية، وكان يستهدى المنطق السليم وهو يكبح جماح قواده عن الغزوات التى قد يبدو فيها ولو نزر يسير من المخاطرة بأرواح المسلمين، ولم يكن سلوكه هذا مقصورا على الحروب البحرية، بل كان كذلك بالنسبة للحروب البرية، فكثير ذلك الذى ذكر عن تردده فى السماح لعمرو بن العاص بفتح مصر، وهو - فيما يبدو - كان يخشى أن يتسع نطاق الفتوح إلى حدود لا يمكن الدفاع عنها(٥).

---

(١) الطبرى، ج ٥، ص ٥١، وابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٨.

(٢) المصدران السابقان، نفس الجزء، ونفس الصفحة.

(٣) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٣٤.

(٤) ابن الخلدون: المقدمة: مصدر سابق، ص ١٩٩.

(٥) سعاد ماهر، البحرية فى مصر الإسلامية، مرجع سابق ص ٦٤، ولعل حادثة العلاء بن الخصومى - واليه على البحرين الذى قاد حملة دون استئذان الخليفة لمهاجمة فارس وتحطم السفن وفشل الحملة - هو ما دفع عمر بن الخطاب إلى التردد فى أمر الحملات البحرية، وقد عزل هذا الوالى. ابن الأثير: الكامل، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٧٧، وأيضا: ابن الجوزى، المنتظم، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٢٤، وعن دلالات هذه الحادثة. انظر: جورج فضلو حورانى: العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت) ص ١٧٦.

على أية حال اجتهد معاوية بن أبى سفيان فى تحصين المدن الساحلية، وإقامة نواة للأسطول الإسلامى تكون فيما بعد قاعدة للانطلاق فى غزواته البحرية، ومركزا لنقل الجنود فى البحر إلى أى مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظاما عرف بالرباط، ويقصد بها الأماكن التى يجتمع بها الجند استعدادا للمقاتلة(١).

وخطا معاوية خطوة أخرى حين شجع الناس على الإقامة بالمدن الساحلية وحصل على أمر من الخليفة بمنح كل راغب فى الإقامة بالمدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها، وترتب على ذلك زيادة سكان هذه المدن دون خوف من الهجمات البيزنطية حيث انتقل إليها الناس من كل ناحية(٢).

وعندما حانت ساعة الغزو البحرى، كانت هذه السواحل قد امتلأت بالمقاتلين الذين خبروا السواحل وتأقلموا بخيراتها

كرر معاوية طلب الاستئذان بالغزو البحرى فى خلافة عثمان بن عفان، وحصل هذه المرة على الإذن بشروط منها: أن لا يكره أحد أحدا على ركوب البحر، وأن يعبئ أساطيله من المتطوعين فقط، وأن تصحبه زوجته معه إذا أراد غزو البحر(٣). واستهل معاوية نشاطه البحرى بغزو جزيرة قبرص وكان ذلك سنة ٦٤٩ م - ٢٨ هـ(٤). حيث أبحر الأسطول الإسلامى من ميناء عكا. واصطحب معاوية معه - بناء على تعليمات الخليفة - زوجته فاختة بنت قريظة من بنى عبد

---

(١) العدوى: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٨٣. ويذكر بعض المؤرخين أن معاوية استفاد هذا النظام من البيزنطيين أنفسهم، وأدخل عليه عدة تحسينات، إذ عرف البيزنطيون نظام الأديرة المسلحة، وهى الأماكن التى انقطع الرهبان فيها للعبادة واجتمعوا فيها سويا لخدمة مطالبهم، وغدا الرباط مجمعا للمتحمسين والمتدينين الذى أوقفوا حياتهم للذود عن الإسلام، ووفد إليها باستمرار المسلمون المتحمسون لشد أزر إخوانهم فى الجند النظامى: انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة رباط، ج ١٠، ص ١٩.

(٢) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٣٥.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٦٢، البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٥٧. تاريخ البحرية الإسلامية، مرجع سابق، ج ١، ص ١٩.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ١٦٠.

مناف، كما اصطحب عدد من الصحابة زوجاتهم [١]. وعبر الأسطول الإسلامى البحر إلى جزيرة قبرص محققا أول عبور بحرى فى البحر المتوسط[٢]. وبعد أن أنزل المسلمون عدتهم على الشاطىء أرسلوا إلى أهالى قبرص يخبرونهم أنهم لم يأتوا طمعا فى جزيرتهم، وإنما ليتفقوا على ما فيه سلامة المسلمين وبلادهم، وتقدم المسلمون نحو عاصمة قبرص "قنسطنطينا" Constantina، وبعد حصار قصير سقطت المدينة فى يد المسلمين، واضطر حاكم المدينة لعقد صلح معهم[٣].. وأخذت هذه الحملة شكل غزوة بحرية، كما كانت فى الوقت ذاته عملا دفاعيا، جمع له معاوية عددا كبيرا من السفن من المدن الساحلية فى الشام، وفرقا محاربة من مصر، ويرجح أرشيبالد لويس مشاركة غير العرب فى هذه الحملة كبحارة أو أدلاء أو محاربين[٤].

وحالف التوفيق معاوية بن أبى سفيان، وعقد صلحا مع أهالى قبرص على أن يدفعوا للمسلمين جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار، مماثلة لتلك التى كانوا يؤدونها للبيزنطيين[٥]، مضافا إليها تعهدا من أهالى قبرص بإبلاغ المسلمين عن أية استعدادات يقوم بها البيزنطيون ضدهم، وألا يساعدوا البيزنطيين فى أية غارة على بلاد الشام، وألا يطلعوهم على أسرار المسلمين، أى أنهم ألزموا أهالى قبرص بالحياد التام فى النزاع بين المسلمين والبيزنطيين[٦]. ولم يلزمهم بأية مساعدة

---

(١) كان ممن اصطحب زوجته الصحابى عبادة بن الصامت، وتسمى أم حرام الأنصارية، وقد استشهدت على أرض قبرص إذ حين رست السفن الإسلامية على الشاطئ وأخذ ينزلون منها تقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وأوقعت أم حرام التى لقيت حتفها، ودفنت هناك، وعرف قبرها باسم قبر المرأة الصالحة، البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٥٩.

(٢) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٩٠ وأيضا: Ostrogorosky, Op. Cit., P.116

(٣) الطبرى، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٦٢

(٤) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص٩١.

(٥) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٥٨. وابن الأثير: الكامل، ج ٣، ص ٤٨.

(٦) العدوى، قوات البحرية العربية، ص ٣٢.

حربية، وأصبح وضعهم كما ينص البلاذرى "فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم، ولم ينصرهم أهل قبرص، ولم ينتصروا عليهم"[١].

وشعر المسلمون أن جزيرة أرواد (Aradus)[٢] القريبة من الساحل السورى تمثل قاعدة متقدمة للبيزنطيين على الأراضى السورية، وسبق أن انطلقت منها عدة غارات لمهاجمة الساحل السورى، وأن تأمين الدفاع عن الساحل السورى يستدعى تطهير هذه الجزيرة من الوجود البيزنطى، وفى طريق عودتهم من غزو قبرص، استطاع الأسطول الشامى أن يسيطر على شواطئ الجزيرة، ولكن الأهالى رفضوا الاستسلام، رغم الوساطة التى بذلها أسقف المدينة ثورماريخوس (Thormarichos)، وأبدوا عنادا شديدا[٣]، وفى العام التالى (٢٩ هـ) جهز معاوية حملة خاصة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة وألزم جميع سكانها على إخلاء جزيرتهم جزاء عنادهم وعدم استجابتهم للصلح فى المرة السابقة[٤].

وأخذ المسلمون يراقبون تطبيق أهالى قبرص لشروط الصلح، ويتأكدون من حيادهم، وفى سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م شعروا أن أهالى قبرص قد أخلوا بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطئ الشامية[٥]، فصمم

---

(١) البلاذرى، فتوح البلدان، مصدر سابق، ص ١٥٨.

(٢) عرف جزيرة أرواد والتى تسمى Aratus منذ القدم بأنها قلعة حصينة تخصص سكانها فى القرصنة واتخذوها حرفة لهم، وجمعوا من هذا الطريق ثروات ضخمة، وقد ذكر استربون الجغرافى اليونانى الذى زار مدن الشرق سنة ٢٥ ق.م، هذه الحقيقة وأشار إليها، حيث استمر سكان الجزيرة فى احتراف القرصنة مدة طويلة من الزمن إلى أن استولى عليها المسلمون. انظر: الدعوى: قوات البحرية، مرجع سابق، ص ٣٧، هامش رقم (٢).

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.289.

(٤) د. إبراهيم طرخان، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٦٠.

(٥) دار جدل فقهى بين علماء المسلمين حول أمر قبرص، وإقرار مدى التزامها بشروط الصلح من عدمه بعد أن تم استشارتهم من قبل الخلافة، ورأى بعضهم أن أهل قبرص لم يفوا بشروط الصلح، ورأى آخرون أن من نقض عهدا فلا ذمة له وأشاروا بإنزال أشد العقوبات بهم، بينما رأى آخرون أن أهل قبرص أذلاء مقهورين من قبل الروم، فهم إلى الحماية أولى، واستشهد بعضهم بحوادث حدثت فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما، عن هذه الآراء انظر: البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٦٠ – ١٦٢.

معاوية على معاقبة الجزيرة وحرمان البيزنطيين منها أو الاستفادة من موقعها، وفى العام التالى ٣٣ هـ / ٦٥٤ م خرجت حملة بحرية كبيرة، استطاعت بعد معركة عنيفة إتمام الاستيلاء على الجزيرة واتخاذها قاعدة دائمة ومتقدمة للأسطول الإسلامى فى البحر المتوسط[١]، وحرص معاوية على وضع قوات نظامية بها تدافع عن الجزيرة وتحمى ظهر الأسطول الإسلامى، حيث نقل إليها اثنى عشر ألفا من الجند النظامى وأجريت لهم الرواتب، ووطن بها بعض العائلات من الشام[٢].

وباحتلال قبرص تمكن المسلمون من تكوين قاعدة بحرية متقدمة لهم فى بحر الروم، وبدأوا يندمجون فى أحداثه العسكرية والاقتصادية بشكل فعال، حيث تطلعوا من قبرص للاستحواذ على الجزر الأخرى الهامة فى هذا البحر، لشل حركة الأسطول البيزنطى، وتحقيق السيطرة على البحر الذى كان يسمى حتى تلك الفترة ببحر الروم[٣].

ومد المسلمون نظرهم بعيدا إلى جزيرة صقلية، التى كانت تبعد كثيرا عن بلاد الشام، لأنهم شعروا أن الروم قد استبدلوا بها قواعدهم فى بلاد الشام، والجزر الأخرى، لذلك صمموا على مهاجمتها.

وقد كانت خطة المسلمين هى إقصاء الروم (البيزنطيين) عن أى مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أراضى الفتوحات الإسلامية، وانطلاقا من هذه الخطة فإنهم قاموا سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م بمهاجمة جزيرة صقلية بقيادة معاوية بن حديج الكندى، وعادوا إلى الشام بعد أن غنموا غنائم كثيرة[٤].

---

(١) Vasiliev, Op. Cit., I,P.212.

(٢) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٥٨.

(٣) نجدت خماش، الشام فى صدر الإسلام (دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر، دمشق، ١٩٨٧م) ص٢٠٢.

(٤) البلاذرى، مصدر سابق، ص ٢٣٧.

ڤاسيليف، العرب والروم، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة، (دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت) ص ٣. ويذكر فاسيليف أن الحملة انطلقت من طرابلس، وأن معاوية أقدم عليها لمنافسة والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح، الذى حظى عند الخليفة عثمان بما أصاب من نصر فى أفريقيا.

ويذكر تقى الدين الدورى (صقلية، علاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية، من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م، ص ٣٢) استنادا إلى رأى بعض المؤرخين الغربيين بأن الحملة على صقلية كانت للفتح ولم تكن للغزو والنهب.

وفى العام نفسه فتح المسلمون تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى[١]، جزيرة رودس Rhodes وبنوا بها حصنا منيعا، ومنها توجهوا إلى جزيرة كريت (أقريطش) ولضخامتها اكتفى جنادة بن أمية بما أصابه من فوز وعاد بأسطوله إلى الشام[٢].

ويرى استروجورسكى أن هذه التحركات التى قام بها معاوية فى جزر البحر المتوسط، أظهرت هدفه الرئيسى الذى كان يسعى إليه وهو الاستعداد لمهاجمة العاصمة البيزنطية ذاتها[٣]، ولم يكن هناك مندوحة من أن تتصدى الإمبراطورية البيزنطية لهذا الهدف الخطير والمبكر، والذى شعرت أن المسلمين يسعون إليه.

وهناك من المؤرخين من يعقد مقارنة بين تفكير معاوية فى مهاجمة القسطنطينية لاختصار وقت وتكاليف الفتوح الإسلامية، بذلك الدور الذى لعبه الإمبراطور هرقل فى حربه مع الفرس حين قام بمهاجمة عاصمتهم لتنتهى المعركة لصالحه[٤].

على أية حال كان على الإمبراطور قنسطانز الثانى أن يتخذ عدة إجراءات داخلية قبل أن يفكر فى التصدى للخطط الإسلامية ومنها أن يدعم القوة البحرية للإمبراطورية بعد الضعف الذى أصابها، وأن يؤكد السيطرة على إقليم آسيا الصغرى، وهو الإقليم الذى كانت تعتمد عليه الإمبراطورية فى الحصول على السفن والجند المحاربين وأمراء البحار، فتوجه إلى آسيا الصغرى وقضى على الحركات المناوئة، وضمن لأسطوله مورده التقليدى من السفن والرجال[٥].

---

(١) البلاذرى، مصدر سابق، ص٢٣٧، ويذكر أن جنادة كان من رواة الحديث، عن رودس يذكر أنها من أخصب الجزائر.

(٢) العدوى، قوات البحرية العربية، ص ٤٠.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.116.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.224.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.393.

كما قضى على تحرك آخر معاد قام به السلاف القاطنون فى بلاد اليونـــان، حيث قام جماعة منهم بالإغارة على سواحل بحر إيجه، ونشروا الاضطراب بـين سكانها، فتصدى لهم الإمبراطور وأعادهم إلى التبعية لسلطانه(١)، محققا بذلك تعاونا وتنسيقا بحريا بين بلاد اليونان وآسيا الصغرى، استعدادا للمعركة التى أخـذ يعـد لها، وكان التنسيق بين أسطولى المنطقتين مفقودا فى أعقاب اضـطراب الأحـوال السياسية فى العاصمة البيزنطية. كما نشط الإمبراطور اتصالاته بعملائه فى بـلاد الشام، والذين كانوا بمثابة عيون له هناك، وفى الوقت نفسه تسند لهم بعض الأدوار لعرقلة الجهود الإسلامية وتعطيلها.

فقد قام اثنان من الجواسيس البيزنطيين بالتسلل إلى سجن مدينـة طـرابلس واستطاعا أن يقتحما السجن ويطلقا سراح الأسرى البيزنطيين، وكان يتواجد مـنهم فى هذا السجن عدد كبير، ثم هاجموا دار الحاكم، وقتلوه وعددا من أتباعه، وأحدثوا حرائق ثم فروا إلى آسيا الصغرى(٢)، ونجت سفن الأسطول الإسلامى مـن هـذه الحرائق لأن معظمها كان فى مدينة عكا(٣)، واستطاع المسلمون تعـويض العـدة والعتاد الذى أتلف.

حشد الإمبراطور قنسطانز الثانى كل ما استطاعه من قوة حربية وبحريـة، وتصف المصادر الإسـلامية هذا الحشد بقولها: ".. وخـرج قسطنطين بن هرقل - قنسطانز الثانى - فى جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فخرجوا فـى

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.293.

(٢) Finalay, Op. Cit., Vol. I, P. 377; Bury, Op. Cit., Vol. II,P.290. وينفرد المنبجـى بـين المصادر العربية التى اطلعت عليها بذكر هذه الحادثة حيث يروى: " وكان بطرابلس أخوان يقال لـه بقطر، وكانا فى خدمة العرب، فلما نظرا ما أعده معاوية أخذتهما الغيرة والحمية، فأتيا السجن ففتحاه، وأخرجا سائر من فيه من الروم، فوثبوا على عامل المدينة فقتلوه، وأحرقوا العدة وركبوا البحر ولحقوا بالروم ". انظر: المنتخب من أخبار المنبجى، مصدر سابق، ص٦١.

(٣) ابن الأعثم، الفتوح، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٥.

خمسمائة مركب أو ستمائة"[١]، وكأن الإمبراطور أرادها معركة فاصلة يضع بها حدا للتواجد الإسلامى فى البحر المتوسط.

وقد تعددت الآراء حول الأسباب التى دعت الإمبراطور قنسطانز الثانى لتجريد هذه الحملة البحرية الشهيرة، والتى سميت بـ "ذات الصوارى" لكثرة السفن التى شاركت بها، فيذكر الطبرى أن سبب خروج قنسطانز هو ما أصاب الروم من فتوحات عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى أفريقيا[٢].

ويوافقه ابن كثير فيما ذهب إليه فيشير إلى أن السبب لما أصاب الروم والبربر ببلاد المغرب فحميت الروم، واجتمعت على قنسطنطين بن هرقل (ويقصد قنسطانز الثانى) وساروا لمحاربة المسلمين[٣]، وهناك من المؤرخين المحدثين من يذكر أن السبب يعود إلى رغبة البيزنطيين فى انتهاز فرصة انشغال عبد الله بن أبى سرح فى محاربة جريجورى عند سبيطلة فى أرض تونس، وأنهم جاءوا بأسطول كبير لمحاربته[٤]. وفى حين يذهب آخرون إلى أن السبب المباشر يعود إلى رغبة الإمبراطور قنسطانز الثانى فى عرقلة الاستعدادات البحرية الإسلامية التى كان المسلمون يعدونها من موانئ الشام، لشن غارة على العاصمة البيزنطية[٥].

---

(١) الطبرى، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٩٠، ابن الأثير، الكامل ج٤، ص ٥٨، وتذكر مصادر أخرى أنه بلغ ألف مركب (الكندى، مصدر سابق، ص١٣. المقريزى، مصدر سابق، ج ١، ص ٣١٤. السيوطى، حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦١. ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٢). وتذكر هذه المصادر، أيضا أن مراكب المسلمين بلغت مائتى مركب ونيفا. كما يذكر ابن الأعثم (الفتوح، ج ١، ص٣٥٥) عن شاهد عيان شارك فى الحرب قوله " فرأينا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ".

(٢) الطبرى، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٠.

(٣) ابن كثير، مصدر سابق، ج ٧، ص ٧٣.

(٤) سعاد ماهر، مرجع سابق، ص ٨١.

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P.116؛ العدوى: الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ٣٥. ويبدو أن هذا هو السبب الأكثر ترابطا مع الأحداث.

على أية حال ومهما تناقضت تعددت الآراء حول الأسباب التـــى أدت إلـــى تجريد الحملة البيزنطية، فإن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها هى أن خروج مصر من يد البيزنطيين وفقدانهم لها، وفشلهم السابق فى استعادتها وهى التى كانت تمثل درة الإمبراطورية، موقعا استراتيجيا، ومركزا حضاريا واقتصاديا، كان لها أبرز الأثر فى تجريد هذه الحملة الكبيرة(١).

ولذا فإن الصدام كان متوقعا وواردًا، فالبيزنطيون كانوا يريـــدون اســـتعادة نفوذهم وسيطرتهم على البحر المتوسط، ووضع حد للتهديدات الإســـلامية، بينمـــا المسلمون كانوا يسعون إلى تأمين فتوحاتهم فى بلاد الشام ومصر، وتوسـعتها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ثم – وهو الأهم – كانوا يريدون دخـــول عـــالم البحـــر المتوسط بكل أبعاده العسكرية والاقتصادية والتجارية، خاصة وأنهم شعروا أن نمو دولتهم واقتصادهم مرهون بمقدار النفوذ الذى يحققه تواجدهم فى البحر المتوســط، وجزره ومحطاته التجارية(٢).

من جانبهم استعد المسلمون للهجوم البيزنطى، وأصدر الخليفة عثمـــان بـــن عفان تعليماته إلى الأسطول المصرى للانضمام إلى أسطول الشام، وانطلـــق عبـــد الله بن سعد بن أبى سرح لمساندة أسطول معاوية(٣).

---

(١) يذكر السيوطى أنه لما استولى المسلمون على الإسكندرية، جاءت الروم إلى قسطنطين بن هرقل (وهو يقصد قنسطانز الثانى) وقالوا: أنترك الإسكندرية فى أيدى العرب، وهى مدينتنا الكبرى)، ثم طلبوا منه أن يخرج بهم لاستردادها قائلين: فاخرج على أن نموت، فتبـاعوا علـى ذلـك (الـسيوطى، حـسن المحاضرة، ج١، ص١٦٢) وقد ذكرت هذه المقولة فى المرة السابقة عندما حاول قنـسطانز اسـتعادة مصر، وأنزل جيشا فى الإسكندرية وتكررت هنا مرة أخرى كسبب لذات الصوارى!!

(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص٨٩.

(٣) ابن الأعثم، الفتوح، مصدر سابق، ص٣٥٤.

سارع الإمبراطور قنسطانز الثانى بالخروج على رأس قوته البحرية الكبيرة التى تمكن من إعدادها، وكان خروجه عام ٣٤ هـ / ٦٥٥ م [١]، حيث التقى الجيشان البيزنطى والإسلامى فى البحر، وكانت الرياح غير ملائمة، فقضى الطرفان ليلتهما انتظارًا لما يسفر عنه الصباح وكان لقاءهما عند فونيكس Phonix غرب شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى[٢]. وبدأ كل فريق ببث الحماسة فى جنوده، فالمسلمون أخذوا يهللون ويكبرون، والبيزنطيون يقرعون النواقيس والطبول لإثارة الحماس فى المعسكرين العائمين على الماء.

---

(١) تختلف المصادر والمراجع الإسلامية فى تحديد تاريخ معركة ذات الصوارى، فالبعض يذكر أنها كانت سنة ٣١هـ (الطبرى، ج٤، ص٢٨٨، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص ١٧١. على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٤٤) والبعض الآخر يذكر أنها كانت سنة ٣٤ هـ (الطبرى)، نفس الجزء والصفحة، الكندى: الولاة والقضاة، ص١٣، ابن الأثير، نفس الجزء والصفحة، ابن كثير: نفس الجزء الصفحة، د. سيدة الكاشف: العرب والبحار، ص ٨٣، العدوى: قوات البحرية العربية، ص ٤٤، وسعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية، ص٨٠، والبعض الآخر يذكر انها كانت سنة ٣٥ هـ (ابن الأثير) نفس المصدر والجزء والصفحة) المقريزى: الخطط، ج ١، ص٢١٥، السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ١٦٢) وقيل قبل مقتل عثمان بن عفان، وقد قتل عثمان فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ (المسعودى، مروج الذهب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨م، ج ٢، ص٣٥٥).

ويذكر المنبجى أن ذلك كان فى السنة التاسعة لخلافة عثمان والرابعة والثلاثين للعرب (الهجرة) والثالثة عشرة لقسطوس (قنسطانز) (تاريخ المنبجى) مصدر سابق، ص٦٠، ويذكر سيدو أن ذلك كان سنة ٣٦ هـ (سيدو، خلاصة تاريخ العرب) الطبعة الثانية، دار الآداب، بيروت ١٤٠٠ هـ ، ص٨٧.

(٢) هناك خلاف أيضا على المكان الذى دارت به المعركة فهناك من يذكر أنها وقعت غرب شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى (Ostrogorosky, Op. Cit., P.116) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٤٣، العدوى، الإمبراطورية البيزنطية، ص٥٢، سيدو، خلاصة تاريخ العرب، ص ٨٧. ويذكر أنها حدثت فى خليج ابصالوق بساحل إقليم ليسيا Lycere من أناضول فى سفح جبل فينكس، وهناك من يذكر أنها حدثت بالقرب من ثغر فونيكة غرب الإسكندرية (د. سعاد ماهر، البحرية الإسلامية فى مصر، ص٨٤. على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٤٤) ويذكر أرشيبالد لويس أناه وقعت قرب موضع يقال لها فونكس Phoenix بآسيا الصغرى (القوى البحرية، ص ٢٩١)، وهناك من يتركها دون تحديد مكتفين بالإشارة إلى أنها حدثت بالقرب من الإسكندرية أو آسيا الصغرى (د. سيدة الكاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص ٨٥. للمؤلفة أيضا، العرب والبحار، ص ٥٤).

ونحن نميل إلى الموقع الذى أثبتناه فى المتن لأن الدلالات والروايات التى أوردها الطبرى لشهود عيان شاركوا فى المعركة (الطبرى: ج٤، ص ٢٩١)، الروايات عن خروج الأسطول المصرى ومشاركته فى المعركة وعودته مؤيدًا (ابن كثير البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٧٣) تؤكد ذلك، ثم أن طبيعة الصراع وتمركزه على بلاد الشام وموانئها وجزر البحر المتوسط تشير إلى ذلك أيضا.

كان الإمبراطور قنسطانز يقود العمليات الحربية ويشارك فيها من خلال سفينة القيادة(١)، بينما قاد الأسطول الإسلامى عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وعدد آخر من القادة المسلمين(٢)، وبدأ المسلمون القتال باستخدام الأقواس والسهام، وأدرك الإمبراطور تفوق جنوده عليهم لأن المسلمين يجيدون القتال بهذا السلاح فى الحروب البرية فقط، المعركة الآن بحرية وليست برية، وأن ذخيرتهم سوف تنفذ سريعا، وتحقق ما توقعه الإمبراطور واضطر المسلمون إلى استخدام الحجارة، وأخذوا يضربون بها سفن الأعداء، ثم ما لبثوا أن غيروا خطتهم بعد أن رأوا أن سهامهم وحجارتهم لم تؤثر فى سفن الأعداء، التى كانت تماطل فى الالتحام، حتى تنفذ ذخيرة المسلمين، حيث قاموا بربط سفنهم إلى بعض ومدوا منها خطاطيف جذبوا بها سفن البيزنطيين إليهم، وبهذا حولوا المعركة إلى معركة برية واتخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ساحة قتال أشبه بالساحات البرية(٣). ووثبوا على البيزنطيين وأعملوا فيهم السيوف والخناجر، وتحول لون البحر إلى اللون الأحمر من هول الدماء التى سفكت، وحملت الأمواج جثث القتلى من الجانبين إلى الساحل،

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.291.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ص ٥٨.

(٣) الطبرى، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٩٠. ويذكر العدوى (قوات البحرية العربية ص ١٨٦) أن المسلمين استفادوا من هذا الأسلوب الذى أثبت أنه سلاح قوى، حيث تعمد السفن الحربية إلى الاقتراب من مراكب الأعداء، وجذبها إليها بواسطة الكلاليب، ثم وضع ألواح بين جوانب السفن أشبه بالجسر من المعارك الحربية القديمة التى كانت تخوضها روما، فقد حدث أن اصطدم الرومان مع أعدائهم فى قرطاجنة سنة ٢٦٠ ق.م وتخلوا عن طريقة دق أو قطع مجاديف الأعداء، والاستعاضة عن ذلك باتخاذ نوع من الكبارى الطويلة القابلة للرفع تشدها بكرة إلى سارية المركب وبنهايتها Corvus تسمى خطاطيف تثبت بواسطتها فى سفن العداء حيث تقترب منها، ثم ينتقل منها، ثم ينتقل الجند عليها إلى سفن العدو. ولكن هل حقيقة كان العرب يعلمون باستخدام الرومان لهذا الأسلوب، أم أن الحاجة والأزمة التى وجدوا أنفسهم فيها تحيط بهم سفن الأعداء، هى التى هدتهم إلى ابتكار هذا الأسلوب، أم هى أفكار أولئك القبط والسوريين الذين ثبت أنهم كانوا يشاركونهم المعركة؟ وعن مشاركة القبط انظر: ابن الأعثم، مصدر سابق، ص ٣٥٦.

وأصبحت ركاما وتلالا[١]، وحاول الإمبراطور أن يتدارك الموقف، وعمل على إثارة الفوضى فى السفن الإسلامية، وأمر جنوده بالتركيز على سفينة القيادة الإسلامية، وألقوا أحد خطاطيفهم على هذه السفينة، وحاولوا جذبها إلى سفنهم، ولكن استبسال المسلمين فى الدفاع عن قيادتهم أفسد هذه الخطة، التى كان من شأنها لو نجحت أن تؤثر فى المعسكر الإسلامى[٢]، ثم ما لبثت أن دارت الدائرة على البيزنطيين، وهزموا هزيمة نكراء، وكاد الإمبراطور أن يقع أسيرًا فى يد المسلمين لولا الاستبسال الذى أبداه الجنود البيزنطيون فى الدفاع عن سفينة قيادتهم، ولكن ذخيرتهم تنفذ سريعا، وتحقق ما توقعه الإمبراطور واضطر المسلمون إلى استخدام الحجارة، وأخذوا يضربون بها سفن الأعداء، ثم ما لبثوا أن غيروا خطتهم بعد أن رأوا أن سهامهم وحجارتهم لم تؤثر فى سفن الأعداء، التى كانت تماطل فى الالتحام، حتى تنقذ الإمبراطور الذى أصيب بعدة جروح[٣] من الهرب من سفينته إلى سفينة أخرى[٤]. وتفرق المعسكر البيزنطى وتشتت سفنه فى البحر، واستطاع الإمبراطور أن يفر هاربا إلى صقلية[٥].

---

(١) ابن الأعثم، مصدر سابق، ص٣٥٥، ابن الجوزى المنتظم، ج٥، ص١٢.

(٢) يذكر ابن عبد الحكم أن الروم كادوا ينجحوا فى أسر مركب القيادة الإسلامى لولا شجاعة أحد الجنود العرب، وبدعى علقمة بن يزيد الغطيفى، إذ قفز على السلسلة وأخذ يعمل فيها القطع برغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه، وكلل عمله بالنجاح وتمكن من قطع السلسلة. ويذكر ابن عبد الحكم أيضا أن ابن أبى سرح سأل زوجته بثينة – أو بسيسة – بنت حمزة بن ليشرح – أو ابن عبد كلال – وكان الناس يغزون بنسائهم: من رأيت أشد قتلا؟ قالت علقمة صاحب السلسلة. وشاء الله أن يظفر علقمة بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها. ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٦١.

(٣) ابن الأعثم، مصدر سابق، ص ٢٥٦، الكامل، ابن الأثير، ج٣، ص ٥٨.

(٤) يذكر مؤرخون غربيون، أن الإمبراطور تنكر باستبدال زيه الإمبراطورى بملابس ابن أحد ضاربى الطبول على سفينة، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر. انظر: Bury, Op. Cit., Vol.، وكذلك: Kremer, Orient under the Caliphs, London 1958, P. 354., Ostrogorosky, Op. Cit., P.116

(٥) ويلخص الطبرى نتيجة المعركة بقوله: والراجح أن قتلى الروم فاق عدد قتلى المسلمين ولم ينج من الروم إلا الشريد، الطبرى، ج٤، ص ٢٩٢ وتخلط المصادر الإسلامية بين نهاية هذه المعركة وهرب الإمبراطور إلى صقلية، ومقتله فيها، حيث يذكرون أنه بعد هربه إلى صقلية مباشرة سأله أهلها عن=

واكتسبت موقعة ذات الصوارى بالنتائج التى انتهت إليها أهمية كبيرة فى الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فقد عملت على تدعيم السيادة الإسلامية على الشواطىء الشرقية لبحر الروم، إذ أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول الإسلامى صار قوة عظيمة فى هذا البحر، وأنهم لن يستطيعوا إخراج المسلمين من المواقع التى أقاموا فيها على شواطئه، وترك أباطرة الدولة البيزنطية فكرة استرداد تلك البلاد، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع(١). كما ترتب عليها أن تداعت سيادة بيزنطية فى البحر المتوسط(٢). والحقيقة أن تلك الموقعة كانت حدًا فاصلاً فى السياسة البيزنطية تجاه المسلمين، فقد أفاق الإمبراطور بعدها إلى نفسه، وأدرك أن إعداد أية حملات بحرية أو برية لاسترداد مصر أو الشام يعتبر مجهودا فاشلا، ومحاولات فات أوانها(٣). ويصف المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس ذات الصوارى بأنها كانت "يرموك" ثانية على الروم(٤)، ويعتبرها بعضهم أعظم موقعة شهدها البحر المتوسط منذ موقعة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق. م(٥). فكما أن معركة أكتيوم جعلت البحر المتوسط، بحيرة رومانية،

=أمره فاخبرهم بما حدث له ولقواته، فقالوا له لقد أفنيت من بقى من عسكر الروم وشتت النصرانية، وجئت إلينا، فلو دخلت العرب إلى بلادنا لما وجدوا من يردهم، فأدخلوه الحمام وقتلوه (!!) انظر: ابن الأثير الكامل، ج٣، ص٥٩، المقريزى: الخطط، ج١، ص٣١٥، السيوطى، ج ١، ص ١٦٢ إبن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٢. وهذا خطأ فالإمبراطور قنسطانز الثانى لم يقتل فى صقلية بعد هربه من ذات الصوارى، وإنما قتل بعد ذلك سنة ٤٨هـ / ٦٦٨م فى صقلية أى بعد ثلاثة عشر عاما نتيجة مؤامرة دبرت ضده وشارك فيها نبلاء القسطنطينية كما سيرد. وانظر أيضا عن هروب الإمبراطور: Theopanes, Op.Cit., P.482.

(١) العدوى، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٥١.

(٢) الباز العرينى، مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٤٣؛ Ostrogorosky, Op. Cit., P.117.

(٣) د. علية الجنزورى، هجمات الروم البحرية، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٤) Theopanes, Op.Cit., P.482.

(٥) أكتيوم: اسم قديم لأحد الرؤوس الأرضية الممتدة جنوب اليونان فى البحر المتوسط، اشتهرت هذه البقعة بعد الموقعة البحرية الهامة التى جرت قربها سنة ٣١ق.م بين أساطيل البطالمة حكام مصر، والقائد الرومانى أكتافيوس، وترجع أهمية هذه المعركة إلى أنها جلبت النصر للرومان، وقضت على=

فإن ذات الصوارى جعلت للمسلمين اليد الطولى فى البحر المتوسط، ودفعتهم إلــى تحقيق المزيد من طموحاتهم فى هذا البحر(1). على أن النتيجــة المباشــرة لــذات الصوارى، أن المسلمين استولوا على عدد كبير من السفن البيزنطية، والتى كانــت نواة الأسطول الإسلامى الكبير الذى اعتمد عليه الأمويون فيما بعد فى نضالهم ضد البيزنطيين(2).

كذلك فإن أهم النتائج المترتبة على هــذا الانتــصار للمــسلمين فــى ذات الصوارى، كان كسر الحاجز النفسى البحرى لدى المسلمين، وإعطاؤهم الثقة فــى إمكانياتهم البحرية، وإمكان تحقيق انتصارات بحرية على سيدة القوة فــى البحــر المتوسط فى تلك الفترة، والمتحكمة فيه. وهو حاجز نفسى احتاج جهــودا كبيــرة، وسنوات طويلة لكسره وتجاوزه. وكان نتيجة مباشرة لتلك الجهود التى بذلت لإقامة أسطول بحرى إسلامى، فى الشام ومصر، وإمكانية تحقيــق الانــسجام والتكامــل بينهما لدخول معارك مشتركة ضد الأسطول البيزنطى، وتحقيق انتصارات كبيرة.

ولكن الظروف التى أحاطت بالدولة الإسلامية فى أعقــاب هــذا الانتــصار الكبير، ما لبثت أن عطلت الاستفادة الحقيقية والكبرى منه، فلم يستفد المسلمون من انكسار البيزنطيين البحرى، كما سبق وأن انكسروا بريا. والذى حدث هو أن الدولة الإسلامية تعرضت لهزة سياسية خطيرة حين قتل الخليفة عثمان بن عفان (٣٥ هـ / ٦٥٦م)(3) فاضطربت أمور الدولة، ونودى بعلى بن أبى طالب خليفــة للمــسلمين،

=البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس الرمان على سيادة البحر المتوسط، وتلا سقوط مصر فى أيديهم تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة رومانية. عن أحداث هذه الفترة انظر: د. حسين الــشيخ، الرومــان، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٦م) ص ٦٦، أيضا د. محمود إبراهيم السعدنى، تاريخ روما القديم، (مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩١م) ص١١٩.

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر فى العصور الوسطى (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م) ص٧٢.

(٢) د. علية الجنزورى، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٣) الطبرى، مصدر سابق، ج ٣، ص٣٦٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص٩٠. وكان مقتله رضى الله عنه فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ذى الحجة سنة ٣٥هـ، ابــن الجــوزى: المنــتظم ج٥، ص٥٥.=

ولكن معاوية بن أبى سفيان اعترض على خلافته وبدأت أزمة سياسية تطورت إلى حروب داخلية، كانت فى صالح الدولة البيزنطية، وصالح إمبراطورها قنسطانز الثانى. وقد اضطر معاوية بن أبى سفيان - الذى حمل لواء المعارضة لعلى بن أبى طالب - إلى مهادنة البيزنطيين، ولم يتردد فى دفع إتاوة للبيزنطيين حتى يحصل على هذه الهدنة. والواقع أن هذه الهدنة(١)، وإن أتاحت لمعاوية أن يتفرغ لمعركته مع على بن أبى طالب، فإنها جاءت بردا وسلاما على الإمبراطور قنسطانز بعد هزائمه العسكرية فى مختلف الجبهات البرية والبحرية، ودخول الإمبراطورية فى بوادر أزمة سياسية على العرش.

وتذكر بعض المصادر أن عمرو بن العاص هو الذى أشار على معاوية بطلب الهدنة، بعد أن قام الإمبراطور البيزنطى بتحريك جيش برى فور أن بلغته أنباء الصراع فى الدولة الإسلامية(٢). ويذكر اليعقوبى أن معاوية قد بلغه فى عام

=ويذكر ابن الأثير تواريخ أخرى لقتل عثمان بن عفان منها أنه كان سنة ٣٦ هـ. وأن عمره حين مقتله كان اثنين وثمانين سنة وقيل ثمانية وثمانين وقيل تسعين وقيل خمسا وسبعين، وقيل ستا وثمانين (ابن الأثير، الكامل ج٣، ص٩٠. على أية حال فيبدوا أن التاريخ المذكور فى المتن، هو محل إجماع أكثر المؤرخين، وعن التاريخ الميلادى انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394

(١) تشير المصادر البيزنطية إلى معاهدة أو هدنة سابقة لهذه الهدنة التى حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، حيث يذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور قنسطانز أرسل رسولا يدعى بركوبيوس Prokopios لعرض رغبة الإمبراطور فى عقد اتفاقية سلام بينهما، وأن معاهدة قد أبرمت لمدة عامين، وأن معاوية احتجز بعض الرهائن البيزنطيين فى دمشق ومنهم جريجورى Gregory ابن ثيودور شقيق الإمبراطور (Theophonos. Op. Cit., P.479) ولا تشير المصادر الإسلامية إلى هذه الهدنة.
ويورد المنبجى رواية أخرى فيذكر أنه فى السنة الثالثة لخلافة عثمان وجه قسطوس (قنسطانز الثانى) ملك الروم رسلا إلى معاوية يسأله الصلح - وكان بدمشق - والرسول " منويل " الذى كان بمصر، فى عدة من الروم، فأجاب معاوية إلى ذلك، على أن يخلف عنده عدة من أهل بيته رهائن. المنبجى، مصدر سابق، ص ٥٧. ويخلط محقق هذا الكتاب الدكتور عمر عبد السلام التدمرى بين هذه المهادنة التى حدثت فى السنة الثالثة لخلافة عثمان، - كما يذكر المنبجى - اى سنة ٢٦ هـ وبين المهادنة التى حصلت بعد مقتل عثمان والصراع بين على ومعاوية أى سنة ٣٧هـ فيورد فى تعليقه على رواية المنبجى أحداث وتفاصيل هذه المهادنة التى حصلت بعد ذلك بعدة سنوات. انظر هامش (٥)، ص ٥٧.

(٢) الدينورى (أبو حنيفة أحمد بن داوود): كتاب الأخبار الطوال (المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٥٩م، ص ١٥٧. تاريخ خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص٢٠٥.

٣٦ هـ / ٦٥٦ م أن طاغية الروم قد زحف فى جموع كثيرة وخلق عظيم، فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبره وإحكامه فوجه إليه فصالحه على مائة ألف دينار[١]. بينما يذكر ابن كثير رواية مخالفة يشير فيها إلى أن الإمبراطور البيزنطى هو الذى طلب المهادنة، فيذكر أن ملك الروم - قنسطانز الثانى - قد طمع فى معاوية بعد أن كان يخشاه، فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين، فأرسل إليه معاوية كتابا يتوعده، فبعث يطلب الهدنة، وكان ذلك قبل قيام التحكيم بن على ومعاوية[٢].

وتعطى المصادر البيزنطية تفاصيل أكثر عن هذه المعاهدة، فيذكر ثيوفانيس أن معاوية أرسل إلى قنسطانز لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين، وتنص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع ألف صولدى Solidi سنويا، وحصانا، وإطلاق أسير بيزنطى كل يوم[٣].

على أية حال أتاحت الاضطرابات التى ألمت بالدولة الإسلامية، - وسيكون دأب الدولتين الاستفادة من الاضطرابات التى تحدث فى الدولة الأخرى - للإمبراطور قنسطانز الثانى الحصول على فترة سلام وهدنة عسكرية، استغلها فى تدبير بعض الأمور الداخلية فى الإمبراطورية، وحل مشكلاتها القائمة. وكان من هذه المشكلات تلك الاضطرابات التى ألمت بالإمبراطورية فى أراضيها ببلاد البلقان، والتى أصبحت مرتعا لهجمات وتحركات السلاف (Slav) والذين يعرفون بالصقالبة.

---

(١) اليعقوبى، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٧.

(٢) ابن كثير، مصدر سابق، ج ٨، ص ١١٩. وهو ما نرجحه ليكون سببا لقيام هذه المعاهدة.

(٣) Theopanes, Op. Cit., P.484; Oman, the Byzanten Empire. Op. Cit., P. 169.

والصولدى عملة بيزنطية تساوى $\frac{١}{٧٢}$ من الرطل ذهبا، وكانت من العملات المتداولة فى الدولة الإسلامية.

انظر: قنسطنطين السابع بورفير جينتيوس: إدارة الإمبراطورية، ترجمة وتحليل د. محمود سعيد عمران (بيروت ١٩٨٠م) ص٨٥.

- تحركات الإمبراطور قنسطانز الثانى فى الغرب لاستعادة النفوذ البيزنطى:

يعود تواجد السلاف[(١)] فى منطقة البلقان إلى منتصف القرن الخامس الميلادى عندما بدأت تحركاتهم على الضفة الشمالية لنهر الدانوب، وبدأوا يغيرون على الأقاليم البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان، مستغلين الظروف التى كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية خلال حروبها مع الفرس فى تكثيف غاراتهم على مدن البلقان، ولم تسلم من غاراتهم معظم مدن ومناطق الإقليم[(٢)].

وإذا كان السلاف والآفار قد اكتفوا خلال هذه الفترة الطويلة بالغزو والإغارة، إلا أنهم فى مطلع القرن السابع تطلعوا إلى الاستقرار فى شبه جزيرة البلقان، وجنوب الدانوب مباشرة[(٣)]، وذلك خلال العهد المضطرب للإمبراطور فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠م) والسنوات الأولى لحكم الإمبراطور هرقل، حيث شهدت الدولة ضعفا وعجزا شديدين، وتركزت جهودها فى مواجهة العدوان الأكبر الذى تمثل فى الفرس واجتياحهم الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية[(٤)].

---

(١) كان السلاف إحدى القوميات الواقعة تحت حكم الهون (Huns)، وعندما انهارت الدولة الضخمة التى أقامها الهون، بوفاة ملكهم اتيلا Attila سنة ٤٥٢م، أدى ذلك إلى حدوث تغيرات فى ميزان القوى فى الأقاليم الواقعة إلى الشمال من حدود الإمبراطورية البيزنطية فى البلقان، وأدى هذا الأنهيار إلى بروز قبائل عديدة كانت تخضع لحكم الهون، ومنها القبائل السلافية. ولا يعرف على وجه الدقة موطن السلاف الأول، ولا أسباب هجرتهم جنوبا، ولا الظروف التى صاحبت ظهورهم المفاجئ على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب فى مطلع القرن السادس الميلادى. ومن المحتمل. أنه فى أعقاب وفاة أتيلا واضمحلال دولته تحركت الأقوام التى كانت خاضعة له سعيا وراء المراعى، وأخذت تضغط على غيرها من الأقوام، مما دفع بالسلاف إلى الاتجاه شطر الدانوب. انظر: د. وسام فرج، السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها، (المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، العدد ٣٠) ص١٤١.

(٢) وسام فرج، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) هس، العالم البيزنطى، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٤) سبق أن استعرضنا اجتياح الفرس للأراضى البيزنطية وتصدى الإمبراطور هرقل لهم، فى الفصل الأول، انظر ص ١٧.

وخلال نصف قرن كان السلاف قد ثبتوا أقدامهم فى البلقان، وأصبح الوقت متأخرا لمحاولة وقف تغلغلهم، أو التصدى لهم، وعوضا عن ذلك أملت الدولة فى احتوائهم، ونشر الثقافة الإغريقية بينهم، وصولا إلى صهرهم فى البوتقة البيزنطية(١). ولكن التحركات السكانية التى كانت تزدحم بها المنطقة والهجرات الجديدة، جعل هذا الأمل يتراجع فى مرات كثيرة(٢).

وشعرت الدولة أنه لابد من إقرار وتأكيد سلطتها فى البلقان، والمحافظة على بقايا جهازها الإدارى، بعد التزايد الذى شهدته المنطقة لهجرات البرابرة، وهجماتهم العنيفة على المدن البيزنطية الهامة، وخاصة مدينة سالونيكا.

واستغلالا للهدنة العسكرية التى عقدها الإمبراطور قنسطانز الثانى مع المسلمين، قام الإمبراطور سنة ٦٥٨ / ٣٨ هـ بقيادة حملة ناجحة ضد السلاف فى شبه جزيرة البلقان(٣)، ومثلت هذه الحملة أول مجهود عسكرى بيزنطى ضد السلاف منذ عهد الإمبراطور موريس، الذى سبق قيام الأسرة الهرقلية.

وفى هذه الحملة الكبيرة هاجم الإمبراطور قنسطانز السلاف الذين استقروا فى إقليم مقدونيا، وأولئك الذين استقروا فى الإقليم المحيط بسالونيكا، إلا أن قنسطانز لم يقم بطردهم وإنما أخضعهم للسيادة البيزنطية(٤)، ولنظام "المعاهد" الذى كان سائدا(٥).

---

(١) Norman, Bayznes, The Byzantien Empir, A. N. S Press, U. S. A. 1986. p. 167.

(٢) وسام فرج، دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ج، ص ١٦٨.

(٣) Theopones, Op. Cit., P.485.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.117.

(٥) يأتى اصطلاح " المعاهد " من الكلمة اللاتينية Foedus (معاهدة) إذ كانت الدولة البيزنطية تعقد معاهدات مع العناصر التى ترغب فى النزول بممتلكاتها مقابل تعهدها بتنفيذ ما تطلبه الدولة منها.

وذهب الإمبراطور بعيدا فى إخضاعهم، فقرر تهجير أعداد كبيرة منهم إلى آسيا الصغرى حيث تم استقرارهم، وتجنيد أعداد أخرى كبيرة منهم فى الجيش البيزنطى(١). والواقع أن قنسطانز الثانى كان أول إمبراطور بيزنطى يهتم بنقل السلاف إلى مناطق الأناضول، لإمدادهم بقوة هؤلاء الرجال، لتجنيدهم من جهة، واستعمالهم فى تعمير الأراضى المهجورة من جهة أخرى، ولمواجهة التهديدات الإسلامية(٢).

وكانت هذه الحملة التى قام بها الإمبراطور تمثل الحد الأدنى من اهتمام الحكومة البيزنطية الضرورى لمواجهة تفاقم مشكلة السلاف، وتمت هذه الحملة بنجاح، وبدون نفقات باهظة، وكانت نتيجتها المباشرة تأمين مدينة سالونيكا من خطر السقوط فى أيدى السلاف، وذلك بإخضاع العناصر السلافية المستقرة فى الإقليم المحيط بالمدينة وفرض الإتاوة عليهم، وتأكيد ولائها للإمبراطورية البيزنطية(٣).

والواقع أن عملية إخضاع السلاف ونقلهم، استدعتها أسباب سياسية وأخرى عسكرية. فالسبب السياسى هو رغبة الأباطرة فى التخفيف من الضغط الذى مارسه السلاف على شبه جزيرة البلقان، وخصوصا فى المناطق حول سالونيكا، والسبب العسكرى استخدام السلاف فى الجيش البيزنطى، وتعويض النقص الحاصل فى القوات البيزنطية نتيجة للحروب مع الفرس ثم المسلمين.

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.292 ؛ Ostrogorowsky, Op. Cit., P.117 ويذكر استروجورسكى أنه فى سنة ٦٦٥م، قامت عسكرية من السلاف المقيمين فى آسيا الصغرى تتكون من خمسة آلاف مقاتل، بانتهاك الولاء للإمبراطورية البيزنطية، والانضمام للمسلمين الذين سمحوا لهم بالاستقرار فى سوريا.

(٢) وسام فرج، السلاف فى شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) Holdon, Op. Cit., P. 63.

وكانت منطقة البلقان قد تأثرت جذريا بالتغييرات السكانية، أو العرقية للسكان، إذا أن السلاف انتشروا فى كل رقعة من البلقان وتركوا تأثيراتهم حتى على أسماء المواقع التى استقروا بها(١).

على أن الجدير بالملاحظة أن استقرار السلاف فى شبه جزيرة البلقان لا يعنى القضاء على السكان الأصليين، وبالرغم من الفيض السلافى فإن الأغلبية اليونانية ظلت هى المسيطرة على شرق البلوبونيز ووسط اليونان بما فى ذلك اتيكا التى كانت مقرا - فيما بعد - لما عرف بثيم هيلاس، ابتداءا من سنة ٦٩٥ م / ٧٦ هـ كما حافظوا على بقائهم فى الجزر(٢)، وتركزت القبضة البيزنطية فى عدة مناطق كان أهمها منومفيسيا Monemvassio، وكورنثا وأثينا وتسالونيكا، وهذه المناطق استفيد منها كمراكز مصالحة وامتصاص وهلنية للسلاف فى بلاد البلقان، أما سالونيكا، بصفة خاصة فيمكن أن يطلق عليها صفة المنقذ والمخلص لليونان من السلاف لأنها هى الموقع الذى تعرض وتحمل هجوم السلاف المتكرر خلال القرنين السادس والسابع، ولولا صمودها ومقاومتها فلربما وقعت بلاد اليونان برمتها فى أيدى السلاف(٣).

وهناك من المؤرخين من يعتبر أن التعامل مع قضية السلاف فى بلاد البلقان، من أخطر التطورات التى طرأت على الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع، ويعتبر أن هذه القضية أهم من التحولات التى حدثت فى الأنظمة الإدارية واستحداث نظام الثيمات(٤).

---

(١) استنادا إلى أسماء الأماكن ذات الأصل السلافى، وجد أن الغالبية العظمى من السلاف قد استقرت فى كل من إبيروس Epirus، وغرب اليونان، حيث وجد (٥٥٨) اسما، ووسط وغرب البلوبونيز ووجد (٣٨٧) اسما، وفى تساليا Thessaly وجد (٢٣) اسما، وفى أتيكا Attica وجد (١٨)، وحول أثينا وأرجوليس Argolis وجد (١٨) اسما، وفى بواتيا Boetia (٢٢) اسما، وفى كورنثا (٢٤) اسما، وفوكس Phokis (٤٥) اسما انظر: د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ٣٣١، نقلا عن: Charanis. Ethnic changes, P. 40.

(٢) Ensslin, Op. Cit., P.210.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٤) Finaly, Op. Cit., Vol. I,P. 383.

فقد كان تحرك السلاف بموجات كثيفة، ونقلهم بأعداد غفيرة إلى آسيا الصغرى، وإعادة إعماره مناطق الإمبراطورية التى أفرغت من سكانها، ثورة ديموغرافية (سكانية) ترتب عليها نتائج بعيدة المدى على الإمبراطورية.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الإمبراطور خلال هجومه على مناطق تواجد السلاف في البلقان، ربما يكون قد فكر، وبدأ فى تأسيس ثيم هيلاس Hilas[١] ليكون أساسا للإدارة البيزنطية فى هذا الإقليم، حيث إن الإدارة البيزنطية كانت تعتمد فى إدارتها لولاياتها على نظام الثيمات.

---

(١) Stratos, Op. Cit., P. 149.

استقرار الإمبراطور قنسطانز في الغرب وتفكيره في نقل العاصمة:

أتاحت فرصة السلام مع المسلمين للإمبراطور قنسطانز الثانى التصدى للأزمة الدينية، حيث عاد الحديث عن الخلاف المذهبى بين أصحاب المشيئة الواحدة للمسيح والمشيئتين، كما تفاقم الخلاف مع بابا روما. وكان حل الإمبراطور قنسطانز الثانى لهذه المشكلة أن ألغى الصيغ الدينية السابقة، وجاء بصيغة دينية جديدة، عرفت باسم التيبوس "Typos" ودخل فى صراع مع البابا مارتن الأول، انتهى بإلقاء القبض على البابا، ووفاته منفيا سنة ٦٥٦ م / ٣٦ بعد أن تعرض للسجن والمحاكمة[١]. وترك هذا التصرف من الإمبراطور ضد البابا وكنيسة روما ظلالا من الحقد والكراهية للإمبراطور حتى داخل القسطنطينية ذاتها[٢].

وكان الإمبراطور قنسطانز الثانى قد رغب فى إحداث تغييرات فى من يخلفه على عرش الإمبراطورية، خاصة وأن شقيقه ثيودوسيوس Theodosius أخذ يطالبه بالاعتراف به ليكون إمبراطورا مساعدا أو قيصرا. Princeps فى الوقت الذى كان هو يسعى إلى حرمان شقيقه من هذا المنصب، ويخطط لإعطاء العرش لولده من بعده[٣].

والواقع أن ذلك لم يكن بدعة جديدة أراد الإمبراطور ابتداعها، وإنما هو شيء مألوف فى تلك الأيام أن يسعى الإمبراطور لخص أبنائه بالعرش بدلا من إخوته، وحتى يقطع الإمبراطور قنسطانز الطريق على شقيقه قام سنة ٦٥٤ م / ٣٥هـ بإعلان ابنه الأكبر قنسطنطين Constantine إمبراطورًا مساعدًا، وأتبع ذلك سنة ٦٥٩م / ٣٩ هـ بتعيين ابنيه الآخرين هرقليوس Heraclius تيبريوس Tiberius فى ذات المنصب[٤].

---

(١) سبق أن تناولنا هذه الأحداث بالتفصيل عند الحديث عن الأوضاع الدينية فى فترة الإمبراطور قنسطانز الثانى، انظر ص (٩٨)

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.121.

(٣) Ibid

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 67.

ويبدو أن ذلك أغضب شقيقه ثيودسيوس، فأساء الإمبراطور الظن به فـأمر بإدخاله سلك الرهبنة، وأودعه أحد الأديرة[1]، ليتبع ذلك باتهامه بالتآمر سنة ٦٦٠ م / ٤٠ هـ، ويأمر بإعدامه[2].

وأثارت هذه الأزمة، والتى انتهت بمقتل شقيقه، العاصمة البيزنطية، وبـدأت الكراهية تزداد للإمبراطور، وبدأ يشعر بها وبتدهور شعبيته بين الناس الذين أخذوا يطلقون عليه اسم "قابيل"[3]، وأثرت هذه الحالة على مشاعره وهواجسه وأقـضت منامه[4].

وكنتيجة مباشرة لهذه التطورات وبالإضافة إلـى فـشل معظـم مـشاريع الإمبراطور قنسطانز الثانى فى التصدى للمسلمين، ومحاولة استخلاص الأراضـى البيزنطية منهم، وخاصة هزيمته الكبيرة فى موقعة ذات الصوارى، إلـى جانـب هزائمه البرية التى تعرضت لها جيوش الإمبراطورية أمام المسلمين[5]، وفشله فى مواجهة الأوضاع الداخلية التى أحاطت به من عداء محكم من قبـل الأرثـوذكس الذين كرهوا الاستسلام للتسوية الدينية التى جاء بها، وقيامه بمصادرة الكثير مـن ممتلكاتهم والتضييق عليهم[6]، وكذلك الآثار التى تركها المصير الذى انتهـى إليـه البابا مارتين وغضب الناس لهذاالمصير - رغم الخلاف المذهبى - حيث انتهـت

---

(١) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٥٧.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.121 ويذكر جيبون أن امر الإعدام تم سـنة ٦٦١م، Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P.783 بينما تذكر موسوعة كمبردج للعصور الوسطى، أن ذلـك تـم سـنة ٦٥٩م، Camb. Med. Hist. Vol. II,P.349، ويبدو أن التاريخ الذى ذكرناه فى المتن هو الأقـرب للدقـة حسب تسلسل الأحداث.

(٣) Theopones, Op. Cit., P.490.

(٤) يذكر الدكتور أسد رستم أن الإمبراطور قنسطانز ثار ضميره، وأصبح يتراءى له فى منامه أخاه حاملاً كأسًا من دمه ويقول له: يا أخى اشرب. الروم، ج ١، ص ٢٥٧.

(٥) عائشة أبو الجدايل، المرجع السابق، ص ١٨١.

(٦) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.224.

حياته فى المنفى وسط الأسر والجوع[1]، وجاءت العملية الأخيرة بقتل شقيقة ثيودسيوس[2]، كل هذا دفع بالإمبراطور قنسطانز الثانى لاتخاذ قراره بمغادرة العاصمة بعد أن أصبحت شعبيته أمام المواطنين والجنود فى الحضيض، ولم تعد القسطنطينية مكانا آمنا لحياته[3].

وتم تبرير مغادرة قنسطانز للعاصمة، تحت غطاء دبلوماسى، هو رغبة الإمبراطور فى زيارة الأماكن الأكثر أهمية فى ممتلكات الإمبراطورية فى الغرب[4]، وإذا كان هروب الإمبراطور من عاصمته جاء كحل للأوضاع الداخلية المتأزمة إلا أنه حمل دلالة أخرى هامة، وهى تمسك الإمبراطورية بأملاكها فى الغرب، وأن الوحدة بين جزئى الإمبراطورية الشرقى والغربى لا زالت قائمة ومستمرة، رغم الأوضاع المتغيرة فى الغرب، وأن البيزنطيين إلى هذا الوقت لم يكونوا يفكرون بالاكتفاء بالشرق وتركيز جهودهم عليه[5]. على أن ذلك كله لا يجعلنا نغفل أن هناك فعلا تحركات حدثت فى الغرب، استدعت تحركا من الشرق، للمحافظة على بقية الممتلكات البيزنطية فى أوروبا، فقد أعلنت صقلية عصيانها على الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة للخلاف المذهبى[6]، وفى إيطاليا تحرك اللمبارد[7] Lombards بالثورة فى وجه بيزنطية واستولى على جنوة ومعظم إقليم

---

(١) الناصرى، الروم، ص ٢٣١، Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394

(٢) المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٠.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٥) Oman, Op. Cit., P. 169.

(٦) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص٩٣.

(٧) اللمبارد أو Longbeard، أى أصحاب اللحى الطويلة، لأنهم كانوا يتركون لحاهم على سجيتها ولا يحلقونها، أو أصحاب الفؤوس الطويلة، إحدى القوميات المتبربرة التى بدأت تحركاتها من شمال أوروبا منذ فترة مبكرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وعندما قام الإمبراطور جستنيان فى أعقاب انتصاراته فى إيطاليا بإجلاء القوط الشرقيين منها، أصبحت إيطاليا خالية من أى قوة مدافعة عنها، وبعد ثلاث سنوات من وفاة الإمبراطور جستنيان الأول سنة ٥٦٥م، تعرضت إيطاليا لهجمة عنيفة من اللمبارد الذين استقروا بها وبدأوا يسيطرون عليها، ودخلوا النصرانية على المذهب الأريوسى. لمزيد من التفاصيل عن تحركات وحروب اللمبارد انظر: د. محمود محمد الحويرى: اللمبارديون فى التاريخ والحضارة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م، عدة صفحات.

ليجوريا البيزنطى فى جنــوب شــرق إيطاليـــا[١]، كــذلك هـــاجم دوق بنفنتيـــوم Beneventum اللمباردى ممتلكات الإمبراطورية فى جنوب إيطاليا[٢].

فتوقيع معاهدة سلام مـــع المـــسلمين، وتـــردى الأوضـــاع الداخليـــة فـــى القسطنطينية، والمخاطر التى ألمت بالأجزاء الغربية مع الإمبراطورية تـــضافرت جميعها لدفع الإمبراطور قنسطانز الثانى لاتخاذ قراره بمغادرة عاصمته، والتوجـــه نحو الغرب.

وهناك خلاف بين المؤرخين حول حقيقة هـــدف الإمبراطـــور مـــن تـــرك العاصمة والانتقال منها إلى الغرب: هل هو انتقال استراتيجى وكامـــل للعاصـــمة البيزنطية؟! وبالتالى إحداث نقلة كبيرة فى سياسة الإمبراطورية وتوجهها[٣]؟ أم هو العمل على إنشاء مركز ثان للإمبراطورية فى الغرب كما كان الحال فـــى القـــرن الرابع الميلادى، آملا فى إيقاف المد الإســـلامى البحـــرى، والتـــصدى لتوســـعات اللمبارد فى إيطاليا[٤]، وأن يكون هذا المركز الثانى رديفا للعاصمة القـــسطنطينية، ونقطة أخرى من نقاط تمركزها وحفاظها على أجزائها المستهدفة؟

على أية حال ومهما كان الهدف الذى استقر عليه تفكير الإمبراطـــور، فقـــد توالت الاستعدادات لانتقال قنسطانز وتحقيق هذه الخطوة الجريئة التى لم تتخذ مـــن قبل.

وفى عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ غادر الإمبراطور قنـــسطانز الثـــانى العاصـــمة البيزنطية على رأس جيش كبير قوامه عشرون ألفا من قوات آسيا الصغرى وجزء كبير من الأسطول البيزنطى[٥].

---

(١) الحويرى، المرجع السابق، ص ١٠٦.
(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص٩٤.
(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.223.
(٤) حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٨٨، رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠.
(٥) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص٩٤.

وكانت مدينة تسالونيكا Thessalonica فى بلاد البلقان هى أول مدينة توقف فيها الإمبراطور، ومنها توجه إلى أثينا Athensحيث استقر بها فترة أطول ليوالى فيها استعداداته لمهاجمة اللمبارد. ثم انتقل عام ٦٦٣ م / ٤٣ هـ إلى مدينة تارنيتوم Tarentum والتى اتخذها قاعدة لشن هجماته على اللمبارد(١).

فى تلك الأثناء كان اللمبارد قد استطاعوا توحيد صفوفهم فى أعقاب الصراع الذى ساد فى مملكتهم بعد وفاة ملكهم اريبرت الأول Aripert (٦٥٣ - ٦٦٢م / ٣٣ - ٤٢ هـ) والذى أوصى قبل موته أن يخلفه على العرش ولداه جودبرت Godebret وبركتارت Perctarit، وهو أمر لم يحدث من قبل فى مملكة اللومبارديين(٢). وما لبث الصراع بعد وفاة أربيرت الأول أن نشب بين الأخوين وتطورت الأمور إلى قيام الحرب بينهما، واستغل الأمر جريمولد Grimwald دوق بنفنتيوم القوى، والذى حاول كلا الأخوين اكتسابه إلى جانبه، وانتهى الأمر بقيام جويمولد بقيادة حملة إلى بافيا Pavia التى كان يتحصن بها جودبرت، حيث تغلب عليه وقام بقتله، وانتزع العرش منه(٣). وعندما سمع الأخ الثانى بركتارت بذلك لاذ بالفرار إلى منطقة الدانوب حيث لجأ إلى الآفار. ولم يلبث جريمولد أن تزوج من أخت جودبرت ونادى بنفسه ملكا على اللمبارديين فى بافيا سنة ٦٦٢ م / ٤٢ هـ. وعهد لابنه روموالد Romuald بحكم دوقية بنفنتيوم نيابة عنه(٤).

فى ظل هذه الأوضاع العسكرية والسياسية قاد الإمبراطور جيشه لمحاربة اللمبارد فى إيطاليا. ومنذ تحركه من تارنيتوم استطاع تحقيق انتصارات سريعة حيث استسلمت له عدة مدن وحصون دون شروط، إلى أن ظهر أخيرا أمام بنفنتيوم وبدأ حصاره الطويل لها(٥).

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II.P.394 ; Ostrogorosky, Op. Cit., P.122

(٢) Oman, Op. Cit., P. 205 ويذكر أومان أن عادة تقسيم المملكة بين أبناء الملك المتوفى كانت من الحقائق الأساسية فى تقاليد الشعوب الجرمانية، وعلى وجه الخصوص الفرنجة ولكنها بالنسبة للومبارديين كانت أمرا غريبا لم يألفوه، وكانت هذه هى المرة الأولى.

(٣) الحويرى، اللمبارديون، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II.P.294

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122

وكان رموالد – دوق بنفنتيوم – قد أدرك صعوبة موقفه، وعجز قواته عن التصدى للأسطول والجيش البيزنطى، لذلك سارع بإرسال رسالة عاجلة إلى والده فى بافيا، حملها أهم شخصيات الدوقية معلم روموالد وأستاذه، سيزوالد Seswald والذى قدم تقريرا عن المخاطر التى تتعرض لها المملكة جراء هذا الهجوم البيزنطى[١].

وسارع الملك جريموالد لإنقاذ دوقيته، دون أن يعبأ بترتيب الأمور فى بافيا، حيث غادرها مسرعا على رأس جيشه لإنقاذها من الحصار البيزنطى، وأضر به ذلك حيث أخذ العديد من جنده ينفضون من حوله، بعد أن راجت الشائعات عن عدم عودته إلى بافيا مرة أخرى، ولكنه لم يكترث لذلك[٢].

وسارع جريموالد بإعادة سيزوالد إلى ابنه فى بنفنتيوم ليخبره بأنه فى الطريق لنجدته، ويحثه على الثبات فى وجه الإمبراطور وعدم الاستسلام للحصار البيزنطى، ولكن لسوء الحظ وقع المبعوث أسيرا فى يد الإمبراطور قنسطانز، وبعد التعذيب كشف عن مهمته، وطُلب منه أن يرسل إلى دوق بنفنيوم بأنه ليس فى وسع والده مساعدته ويحثه على الاستسلام، ولكن سيزوالد رفض القيام بهذا الدور، فصدرت تعليمات الإمبراطور بقتله وإلقاء رأسه من آلة منجنيق إلى داخل أسوار بنفنتيوم، حيث استقبلها روموالد بالدموع والقبلات، إلا أنه رفض الاستسلام[٣] واستمر فى صموده حتى بعد أن علم أن أخته جيسا Gaisa قد وقعت أيضا رهينة فى يد الإمبراطور[٤].

---

(١) Stephenson, medieval History Op. Cit., P.183

(٢) الحويرى، اللمبارديون، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٣) Oman, Dark Ages, Op. Cit., P. 208

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394

والواقع أن الإمبراطور قنسطانز شعر أن الوسائل العسكرية المتاحة له لم تكن تعينه على القيام بعملية حصار طويلة الأمد، كما شعر أن متطلبات ذلك ستكلفه كثيرا من الموارد المالية، التي كانت تمثل له عبئا كبيرا وتثقل كاهل شعبه وخزانته، وكان قد بدأ يلمس نقص هذه الموارد، ووصل إلى قرار بصعوبة البقاء تحت أسوار بنفنتيوم، وزاد تحسبه من وصول جريمولد إلى بنفنتيوم بجيشه، لذلك رفع الحصار[١]، وعند عودته وفى محاولة لمهاجمة كابو Capua تعرض لهزيمة دفعت به إلى العودة إلى نابولى Naplesلقضاء الشتاء[٢].

وفى ربيع ٦٦٣ م / ٤٣ هـ أرسل الإمبراطور قائده الفارسى سابور Sapor فى غزوة سريعة، ولكن سابور استطاع أن ينجو بعد أن واجه روموالد وهزم هزيمة فادحة فى منطقة تدعى فورنيوم[٣] Forinum .

ويبدو أن الإمبراطور قنسطانز الثانى قد شعر أن أثر تواجده فى الجزء الغربى من الإمبراطورية لن يكتمل إلا بزيارة العاصمة القديمة روما، وأن هذه الزيارة ستعالج تلك الآثار التى تركها الخلاف الدينى بين كنيستى روما والقسطنطينية، وما نتج عنه من وفاة بابا روما مارتن الأول منفيا سجينا فى خرسون، واتهام الإمبراطور قنسطانز بأنه تسبب فى هذه النهاية المأساوية للبابا. لذلك سرعان ما غادر الإمبراطور نابولى ليصل إلى روما فى ٥ يوليو ٦٦٣ م / ٤٣ هـ، وهناك استقبل من قبل البابا فيتاليان (٦٥٧ - ٦٧٢ م / ٣٧ - ٥٢ هـ)، والذى سبق وأن جرت المصالحة بينه وبين الإمبراطور وكنيسة القسطنطينية[٤]. وشارك فى الاستقبال عدد كبير من رجال الكنيسة فى روما، الذين قدموا للإمبراطور فروض الولاء والطاعة، وتم الاستقبال على بعد ستة أميال من أسوار روما، حيث رافقوه إلى العاصمة القديمة التى أصبحت أطلالا[٥].

---

(١) Ostrogorsky, Op. Cit., P.122.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394.

(٣) Ibid

(٤) سبق أن ناقشنا تفاصيل ذلك عند الحديث عن الأوضاع الدينية فى عهد قنسطانز الثانى، ص (١٠٤).

(٥) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

واعتبر قنسطانز أول إمبراطور بيزنطي يزور العاصمة القديمة للإمبراطورية بعد سقوط الجزء الغربي في يد البرابرة سنة ٤٧٦ م وزوال سيطرة بيزنطية على روما وأنحاء مختلفة من الممتلكات الغربية[١].

وقد استغرقت زيارة الإمبراطور قنسطانز لروما اثنى عشر يوما، أمضاها في المشاركة في الاحتفالات والطقوس الدينية[٢]. ورغم الأهداف التي سعى إليها الإمبراطور من هذه الزيارة، والأجواء الطيبة التي حاول أن يبثها خلال أيامها إلا إنه حدث ما عكر أجوائها وانتقص من أهدافها، ذلك أن الإمبراطور قنسطانز لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة والزخارف البرونزية التي وجدها في روما، وأرسلها إلى القسطنطينية[٣]. وهكذا انتزع الإمبراطور الطمأنينة من روما[٤] في الوقت الذي لم يغفر له الإيطاليون ما فعله بالبابا مارتن، الذي اعتبروه شهيدا. ويبدو أن الإمبراطور شعر خلال هذه الزيارة بخطورة ازدياد نفوذ البابوية، وعمل على قمع هذا النفوذ، وفي محاولة لتقليم أظافر البابوية، منح رئيس أساقفه رافنا حق الاستقلال والانفصال عن كنيسة روما، وعدم الخضوع لسلطانها الروحي، وقد استمر هذا الإنفصال بين روما واسقفيه رافنا – وكانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في الغرب ومقر ممثليها – زهاء عشرين عاما، حتى انتهى بعودة رافنا إلى حظيرة البابوية[٥].

---

(١) تختلف المراجع في تحديد المدة التي لم تشهد فيها روما إمبراطورا من أباطرة بيزنطة، فيقدرها أومان على سبيل المجاز بمائتي سنة (Oman, The Byzantien Empir, Op. Cit., P. 169)، بينما تقدرها موسوعة كامبردج للعصور الوسطى بأنها ١٩٠ سنة. وإذا أرجعناها لسنة سقوط روما في يد القوط الشرقيين فإنها تكون بالتحديد (١٨٧) عاما. كما أن أومان يذكر تاريخا مختلفا للزيارة إذ يجعلها عام ٦٦٤م وهو ما تخالفه فيه معظم المراجع التي تعيدها إلى عام ٦٦٣م.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٣) Oman, The Byzantien Empir, P. 169.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.394.

(٥) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٣، الحويرى، اللمبارديون، مرجع سابق، ص ١٠٨.

والواقع أن البابوية فى فترة ولاية البابا ڤيتاليان، وحكم قنسطانز قد شـــهدت ضعفا كبيرا وتراجعا فى نفوذها، على عكس ما كان متوقعا أن تكون عليه الحـــال نتيجة للظروف العصيبة التى كانت تمر بها الإمبراطورية أواخر عهد الإمبراطور قنسطانز. فلو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية، يستطيع اســتغلال فترة الانكسارات التى مرت بها الإمبراطورية، ويستفيد من القوى المحليـــة التـــى ظهرت فى إيطاليا، لوقف من الإمبراطور قنسطانز موقفا صلبا وعنيـدا، ولربمـــا أدى الأمر إلى التبكير فى ظهور النـــزاع الخطيـــر الـــذى نـــشب بـــين البابويـــة والإمبراطورية بعد ذلك بوقت قصير[١]. ولكن البابا ڤيتاليان كان ضعيفا ويخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له سلفه مارتن من قبل، فآثر الاستسلام والخـــضوع الأمر الذى أجل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية إلى فترة لاحقة.

على أية حال استغرقت الزيارة الإمبراطورية لروما اثنى عشر يوما، وفـــى السابع عشر من يوليو ٦٦٣ م الرابع من ربيع الثانى ٤٣ هـ غادرها الإمبراطـــور متوجها إلى نابولى، وسرعان ما غادرها بحرا إلى جزيرة صقليةSicily التى كانت بحاجة إلى تقوية دفاعاتها ضد الهجمات الإسلامية التى كانت تتعرض لها. وهنـــاك اتخذ من عاصمتها سيراكوز Syracuse[٢] مركزا لدولته فى الغرب[٣]. ويذكر أحـــد المؤرخين أن الإمبراطور عندما استقر به المقام فى سيراكوز فكر فى أن يتخـــذها عاصمة للإمبراطورية، وهى خطوة لو تمت لربما تغير وجه التـــاريخ الأوروبـــى بشكل أساسى[٤].

---

(١) Oman, The Dark Ages, P. 227.

(٢) وسماها المسلمون فيما بعد عندما فتحوها باسم سرقوصة.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٤) وسام فرج الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦١.

ويمكن القول أنه ليس هناك من المعطيات ما يؤكد أن الإمبراطور - باستقراره فى صقلية، وإرساله فى طلب زوجته وأبنائه من القسطنطينية إلى مقره الجديد[1] - كان يهدف إلى نقل عاصمة الإمبراطورية من القسطنطينية إلى سيراكوز، إذا أن الأمر لا يعدو أن الإمبراطور كان يشعر بحاجة هذه المناطق التى أصبحت عرضة للهجمات اللمباردية، والإسلامية إلى الدفاع عنها، ومحاولة تركيز هذا الدفاع بتواجده هناك حتى لا تصبح معبرا جديدا للهجمات الإسلامية إلى جوف الإمبراطورية من جانبها الجنوبى أو الغربى، ثم أن الإمبراطور ولو أراد فعلا أن ينتقل بالعاصمة إلى الغرب انتقالاً نهائيا، فربما كان من الأجدى والأكثر واقعية أن يختار روما، العاصمة القديمة والتاريخية للإمبراطورية.

كما أن تفكير الإمبراطور قنسطانز للانتقال إلى صقلية لم يكن عملا لا سابق له، فقد فكر فى هذا الانتقال (التكتيكى) أو المؤقت الإمبراطور هرقل، ومن قبله الإمبراطور موريس، عندما تعرضت الإمبراطورية وبالتحديد عاصمتها لأزمات أمام الفرس والآفار[2].

كذلك فالواقع الجديد الذى أضحت عليه الإمبراطورية ابتداء من القرن السابع الميلادى، بتحولها بشكل تدريجى إلى الهللينية (أى اليونانية) لغة وثقافة، وإلى الشرق عسكريا واقتصاديا[3]. والخلاف مذهبيا مع الجزء الغربى، كل ذلك يضعف من الجزم بأن الإمبراطور قنسطانز كان يفكر فعلا فى إحداث انتقال نهائى وحاسم للعاصمة من الشرق إلى الغرب. وأن الأمر لا يعدو أن يكون بحثا عن مركز دفاع ثان للإمبراطورية أو بالأحرى تقوية الجبهة الغربية من الإمبراطورية البيزنطية، ضد هجمات أعدائها[4]، والتى شهدت تركزا فى ذلك الوقت من الجانب الغربى والجنوبى - كما هو الحال فى الجانب الشرقى - وكذلك محاولة للتصدى

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.395.

(٢) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) هسى، العالم البيزنطى، مرجع، ص ١٢٥. والجدير بالذكر أن التحول إلى الهلينة ونعنى بها التحول إلى الحضارة الهللينية أو اليونانية الإغريقية قد بدأ فى أواخر عهد الإمبراطور هرقل كما ذكرنا فى ص٧.

(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.224.

لانتقاص اللمبارد للإمبراطورية ومحاولة التوسع على حسابها استغلالا للفراغ العسكرى البيزنطى هناك، ومحاولات البابوية الحثيثة للانفراد بحكم الجزء الغربى وإحكام السيطرة عليه.

لقد كان واضحا ابتداء من القرن السابع الميلادى أن الروابط بين الشرق والغرب قد أخذت تضعف ويزداد التباعد بين الجزأين.

ويرى أحد المؤرخين أن العرب وتسربهم إلى بحر الروم ونفوذهم فيه وبالذات فى المنطقة الوسطى من هذا البحر، هو السبب الرئيسى فى ضعف تلك الروابط[١]، بينما يرى آخرون أن التواجد السلافى فى البلقان هو الذى صنع هذا الحاجز بين الشرق والغرب والقضاء على العلاقات الطبيعية بين الشطرين[٢]، على أننا نرجح أن التباعد بين الشطرين كانت بذوره قد بدأت منذ فترة مبكرة وبالتحديد منذ السيطرة الفعلية للبرابرة على الجزء الغربى من الإمبراطورية ومحاولاتهم إقامة حكومات مستقلة بهم بعيدا عن حكم وسيطرة بيزنطة، وبروز الخلافات الدينية التى كانت تجذر هذا التباعد وتوسعه على أرض الواقع، وعندما أقبل القرن السابع أصبحت هذه القطيعة وذلك التباعد أمرا واقعا وملموسا فى مختلف نواحى الحياة وأهمها اللغة والثقافة، فهل يعقل والحال كذلك أن يفكر الإمبراطور البيزنطى فى الانتقال بعاصمته إلى وسط أصبح غريبا عنه، ولا يحمل له نفس الدرجة من التعلق والولاء؟!

ثم إن العاصمة البيزنطية – وهو الأهم – لم تكن تتعرض فى تلك الأثناء لأخطار محدقة، تدفع إلى البحث عن موقع آخر يقوم مقام العاصمة، فلم تكن محاصرة بأعداء، كما حدث أيام هرقل، عندما كان الفرس على الضفة الأخرى من المضيق، واقعة تحت هجمات الآفار وحصارهم، والمسلمون لم يصلوا بعد فى

---

(١) Henri Pirenne, Economic and social History of Medieval Europe, London 1961, P. 37.

(٢) على الغمراوى: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط، جـ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٩٤.

هجماتهم على البيزنطيين إلى محاصرة العاصمة - كما سيحدث بعد فترة بسيطة - وإنما كانت العاصمة بمأمن تام، وأوضاع خارجية آمنة، فالمشكلة تعود إلى الإمبراطور قنسطانز نفسه، وعلاقاته بأركان الدولة والكنيسة وشعب بيزنطة.

ورغم كل ذلك فإن أهالى القسطنطينية والفعاليات السياسية والدينية فى المدينة، خشيت من خطوة الإمبراطور هذه، وتأثيرها المستقبلى على عاصمتهم فحاولوا عرقلة طلب الإمبراطور، ومنعوا خروج أسرته من القسطنطينية وترأس هذه المعارضة أمين الخزانة أندريو Andrew والبطريرك ثيودور Theodore[١].

ويبدو أن التوفيق قد حالف الإمبراطور قنسطانز فى اختيار سيراكوز مركزا لحكمه فى الغرب، فمنها استطاع أن يحكم سيطرته على جنوب إيطاليا ويوقف تهديدات اللمبارد، وكذلك تصدى للهجمات الإسلامية التى كانت تنطلق من مصر وجزر البحر المتوسط، كما أعاد السيطرة البيزنطية على شمال أفريقيا[٢]. إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة البيزنطية بفضل ولاء بطريقها نيقفور، على حين فر جناديوس، خليفة جريجورى[٣] (الذى يسميه العرب جرجير) الذى اغتصب الحكم فى شمال أفريقيا، لاجئا إلى الغرب[٤].

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.395; Oman, Op. Cit., P. 169; Theopanes, Op. Cit., P.489.
أسد رستم، الروم، ج، ص ٢٥٧.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.122.

(٣) المعروف أن جويجورى الذى كان قد أعلن انفصاله عن الدولة البيزنطية قُتل أمام المسلمين سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م، وذلك أن المسلمين فى أعقاب تدعيم حكمهم في مصر قد خرجوا في حملة بقيادة واليها عبد الله ابن سعد بن أبى سرح، واشترك فيها جماعة من الصحابة وأبناءهم، والكثيرون منهم يسمون عبد الله من أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ولهذا سمى هذا الجيش جيش العبادلة، وعند عاصمة ولاية إفريقيا والتى تسمى Sufeltula (سبيطلة) - وهى جنوب غرب المكان الذى سينشئ فيه المسلمون فيما بعد عاصمتهم القيروان - قتل جريجورى، وقام المسلمون بغزو العاصمة، وقرروا على السكان إتاوة كبيرة ثم انسحبوا إلى قواعدهم فى مصر، ووقف المسلمون على حالة تلك البلاد، وأنه لم يعد للدولة البيزنطية قوة كبيرة بها. انظر عن هذه الحملة وآثارها، الطبرى، ج ٤، ص ٢٥٤، ابن الحكم ١٨٥.

(٤) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص٩٤.

وظل قنسطانز خمس سنوات[1]، ومنذ أن اتخذ سيراكوز مركزا له، يعمل على إعادة بسط سلطانه على الغرب. وعلى الرغم من أنه لم يحسم النزاع الديني بين الأرثوذكسية والمونوثولستية، فإنه أحرز بعض النجاح هناك، حيث ساد السلام في صقلية، وسائر الجزر التابعة لبيزنطة، لا سيما سردينيا، وتوقفت الهجمات اللمباردية، ورغم أنه لم يتم استعادة كل الأراضي البيزنطية منهم. إلا أن الإيطاليين لمسوا ما لبيزنطة من قوة بحرية وبرية[2].

ولا شك أن موقع سيراكوز، الذي يحتل مركزا متوسطا بين الأملاك البيزنطية في إيطاليا المهددة من قبل اللمباردين، وبين شمال أفريقيا الذي تعرض لغزوات المسلمين، ساعده على تحقيق هذا النجاح[3].

ولكن يبدو أن هذا النجاح كانت ضريبته كبيرة على بيزنطة، وعلى ولاياتها في الغرب، إذا أن تكاليف البلاط، والاهتمام بالجيش ودخوله عددا من المواجهات قد تطلبت مبالغ كبيرة أرهقت ميزانية الدولة، وأقاليمها في الغرب[4].

على أن الجدير بالذكر هنا أن قنسطانز الثاني، وهو منهمك في الجانب الغربي من إمبراطوريته، لم يهمل الجانب الشرقي منها، وحاول أن يكون على صلة بالأحداث، وتطورات الأمور في المعسكر المناوئ له وهم المسلمون، والاضطلاع بكل ما يمكن أن يفيده في نزاعه معهم. وشعر سنة ٦٦٦ م / ٤٦ هـ بأمن كافٍ في البر والبحر، سمح له بمعاودة النزاع مع معاوية؛ ففي ذلك العام

---

(١) يحدد الدكتور الباز العريني الفترة التي قضاها الإمبراطور قنسطانز الثاني في الغرب بعشر سنوات (الدولة البيزنطية، ص ١٤٧)، ويحدد أرشيبالد لويس (القوى البحرية، ص ٩٤) بأنها قرابة عشر سنوات. والواقع أننا لو حسبناها منذ استقرار الإمبراطور في سيراكوز إلى حين مقتله بها فسنجد أنها لا تتجاوز خمس سنوات.

(٢) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص٩٤.

(٣) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I,P.224.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.123.

أرسل إلى الأراضي الداخلية في سوريا رجالا وصلوا حتى فلسطين، وعرف هؤلاء باسم الجراجمة أو المردة Mardites[^١].

وجاء نزولهم إلى بلاد الشام وإمدادهم عن طريق البحر[^٢]، وبدأوا في مشاغله الدولة الإسلامية وإثارة الاضطراب بها.

وكان معاوية بن أبى سفيان قد اصطدم بالجراجمة مبكرا، وذلك حين اتجه إلى تحصين العواصم والثغور بشمال الشام المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية، ووجد فيهم جماعة خارجة عن طاعة الدولة الإسلامية عرقلت تقدم مشروعاته فترة من الزمن[^٣]. وكان استقرارهم فى جبال اللكام (Amanes) وكانوا تابعين قبل الفتح الإسلامى لبطريرك أنطاكية وواليها[^٤]. وعندما فتح أبو عبيدة عامر بن الجراح أنطاكية سنة (١٧ هـ / ٦٣٨م) اعتصم أولئك السكان بجبال اللكام دون أن ينتبه المسلمون لخطورتهم، وأخذوا يحيون حياة مستقلة حياة شبه مستقلة فى صياصى

---

(١) سموا الجراجمة نسبة إلى عاصمتهم الجرجومة، ويسميهم العرب المردة لكثرة تمردهم وعصيانهم وقطعهم للطرق، ويطلق عليهم السوريون اسم الوقحين، والكلمة الفارسية التى سموا بها merd تعنى الرجل الشجاع. وكانوا يسكنون فى الأصل منطقة جبال اللكام فى إقليم الثغور الشامية. وكانوا كثيرى التواطؤ مع الروم ضد المسلمين. وجندتهم بيزنطة وأطلقت عليهم حائط آسيا الصغرى النحاسى. ودخلوا فيما بعد فى عهد عبد الملك بن مروان فى بنود الاتفاقية التى أجراها مع الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى، وسنتعرض لهذه الاتفاقية فى حينه. والمعروف أن الباقيين منهم تجمعوا فى جبل لبنان وهم أحد جذور المجتمع المارونى فى لبنان. انظر: عبد العزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبى، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٠م، ص ١٢٦، Vasiliev, Op. Cit., P.140، Bary, Op. Cit., Vol. II.P.317

(٢) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص٩٥.

(٣) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١١٦. والعواصم جمع عاصم وهو المانع، والعواصم حصون موانع، و كان المسلمون يعتصمون بها من العدو، إذ انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر. وهى تعصم الثغور وتمدها فى أوقات النفير (ليلى عبد المجيد، الثغور البرية الإسلامية، ص٨)

(٤) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٦٣.

الجبال ولهم مدينة أشبه بالحاضرة وتسمى "الجرجومة"[1]. واشتهر هؤلاء بأنهم كانوا عصاة لكل سلطة حاكمة في بلاد الشام، حتى منذ أيام دولة الرومان، وبأنهم أعداء شديدو البأس[2].

وفى الفتح الثانى لأنطاكية الذى قاده حبيب بن مسلمة الفهرى، آثر الجراجمة الهدوء مؤقتا، وتجنبوا الصدام مع حبيب الفهرى، وصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وأن يؤخذوا بالجزية[3]، وبذلك أعفوا من الجزية واحتفظوا باستقلالهم الذاتى.

واستطاعت الدولة البيزنطية أن تجتذبهم إليها، بإغداق المنح المالية عليهم ووجهتهم لعرقلة جهود المسلمين، وغدوا وكلاءها فى الأراضى الإسلامية.

ويبدو أن البيزنطيين شعروا بالتحرك الذى قام به معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م؛ حين قام بنقل أعداد كبيرة من الفرس من ديارهم وأقامهم فى مدن سوريا وفلسطين الساحلية مثل صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعكا، وبعض المدن الأخرى[4]، لتعمير المدن الساحلية، وإحكام السيطرة عليها. فقاموا بتحريك أعوانهم المردة وبثهم فى مدن سوريا لمشاغلة الدولة الإسلامية فى عقر دارها، بعد أن كانوا يشاغلونها على الحدود.

ويبدو أن هذا الإجراء البيزنطى، قد أزعج الدولة الإسلامية كثيرا واستغرق جهدا كبيرا من نشاطها للتعامل معه ولم تستطع التصدى له أو وقفه، إلا عن طريق الاتفاق السياسى، حين وقع الخليفة عبد الملك بن مروان اتفاقية مع الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى، كان من بين بنودها مغادرة المردة لمواقعهم الجديدة فى بلاد الشام، وسنتعرض لهذه الاتفاقية فى حينه.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٦٦. أسد رستم، كنيسة أنطاكية، مرجع سابق، ج ٢، ص٣٢.

(٢) فيليب حتى، تاريخ الشرق الأدنى، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٣) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٦٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ج٣، ص ٧٢.

اغتيال الإمبراطور فى سيراكوز بصقلية:

وعودة إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى، نجد أن مشروعاته وتحركاته قد أوجدت له أعداء فى القسطنطينية وخارجها، وفى ابتعاد كثير من المواطنين عن تأييده وكان بقاؤه فى سيراكوز بعيدًا عن عاصمته الرئيسية سببا فى تدنى شعبيته. ففى ١٥ سبتمبر من عام ٦٦٨ م / ٢ شعبان ٤٨ هـ(١)، دبرت مؤامرة لاغتيال الإمبراطور شارك فيها كثير من العائلات البيزنطية والأرمينية النبيلة، ونفذها واحد من أولئك الوصفاء الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور، وهو ابن أندريو أحد وجهاء القسطنطينية إذ قام بوضع كمية كبيرة من الصابون على وجه الإمبراطور وهو يغتسل بقصد أن يعميه أو يحجب عنه الرؤية، ثم قتله بضربه بإبريق فضى على رأسه(٢).

---

(١) يذكر استروجوسكى أن ذلك تم يوم ١٥ سبتمبر (Ostrogorosky, Op. Cit., P.123) بينما تذكر موسوعة كمبردج أن ذلك تم يوم ١٥ يوليو (Camb. Med. Hist. Vol. II,P.395). ويذكر الدكتور العدوى أن ذلك تم يوم ١٢ يوليو عام ٦٦٨م. (العدوى، قوات البحرية العربية، ص ٨٠).

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.395. ويذكر أومان (Oman, Op. Cit., P. 169) أن قاتله كان اسمه دافن أندرياس Daphne, Andreas، وأنه ضربه بصندوق الصابون ثم فر هاربا، وكانت الضربة مميتة. ولا يذكر الدكتور أسد رستم الاسم ولكنه يذكر أنه كان خادم حمامه وأنه ضربه بصندوق من الصابون (أسد رستم، الروم، ج ٢، ص ٢٥٧). ويذكر المنبجى (مصدر سابق، ص ٧٠) "أن قنسطانز (ويسميه قسطوس) دخل الحمام، وأخذ بعض خدمه سطلا فضرب خطيمًا مع صابون، وجعله على رأسه. فلما امتلأت (عيناه) غشاء من الخطمى والصابون لم يقدر على فتحهما. فتناول الخادم السطل فضرب رأسه فقتله، وبادر وخرج من الحمام هاربا ولم يدر به أحد، ولبث الخدم ينتظرون خروج الملك، فلما طال جلوسهم وجاز الوقت ولم يخرج دخلوا الحمام فوجدوه مغشيا عليه، فأخرجوه وعاش يومين ومات بعد أن ملك تسعا وعشرين سنة، ثم اجتمع الروم فملكوا عليهم بربريا جنسه من أرمينيا، وكان حكيما ذا نجدة وبأس".

ونادى الجنود بأحد ضباط الأمن ويدعى ميزيزيوس Mezezius[١] إمبراطورا، والذى لم يكن يتمتع بأى مواصفات سوى وسامته وأناقته، ولم يكن راغبا فى هذا المنصب الرفيع[٢]، ورغم ذلك فإن وصوله إلى العرش لم يكن مرحبا به فى أى مكان آخر من الإمبراطورية.

واندلعت الفوضى فى الإمبراطورية البيزنطية، حيث أصبح هناك إمبراطوران: مغتصب للعرش فى صقلية، وابن الإمبراطور قنسطانز، (قنسطنطين) الذى كان فى القسطنطينية وكان يطالب بالعرش، وبالانتقام من قتلة والده الإمبراطور.

وتختلف المصادر هنا فى التصرف الذى تم لمواجهة الموقف، فبعضهم يذكر أن قنسطنطين – ابن قنسطانز – جرد حملة من القسطنطينية استطاعت الوصول إلى صقلية وقتل هذا المغتصب وأعوانه واسترداد الحكم[٣]. بينما يذكر آخرون أن جنود إيطاليا وبالذات أرخون راقنا، وسردينيا وأفريقيا، قد اتحدوا لإسقاط هذا المغتصب، حيث انهارت ثورته فى فبراير ٦٦٩ م / محرم ٤٩ هـ. وواجه القاتل أندريو، وميزيزيوس نفسه، والمشايعين الرئيسيين لهما الموت، ومن بينهم البطريق جستنيان الذى جدع أنفه[٤]. كما تم نقل جثمان الإمبراطور قنسطانز الثانى من صقلية إلى القسطنطينية حيث دفن فى كنيسة أيا صوفيا[٥].

وكان اللمبارديون أكثر المستفيدين من فترة الفوضى التى دخلتها الإمبراطورية فى أعقاب اغتيال الإمبراطور قنسطانز الثانى. فقد استغل ملك اللومبارد "روموالد" ذلك وخرج على رأس قواته للقضاء على القوات التى خلفها

---

(١) هكذا أورد الاسم استروجورسكى، وتورده موسوعة كمبردج بصيغة أخرى هى: Mzhezh، وتورده الدكتورة عائشة أبو الجدايل بصورة أخرى هى: Nizizios نيزيزيوس.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II,P.302

(٣) Theopanes. Op. Cit., P.491 ، وأيضا المنبجى، مصدر سابق، ص ٧١.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II,P.395،Ostrogorosky, Op. Cit., P.123

(٥) Ibid

قنسطانز وراءه، فعجزت عن الصمود وولت هاربة، مما مكنه من النجاح في الاستيلاء على مدن: تارنت وبرنديزى وكالابريا البيزنطية[1]. وكانت هذه المدن تشكل أهم ممتلكات الإمبراطورية فى إيطاليا.

كما أتاحت له هذه الأوضاع أن يعود إلى عاصمته «بافيا» التى غادرها لمواجهة هجوم قنسطانز على بنفنتيوم، وقام بالانتقام من أولئك الأمراء والأدواق الذين تخلوا عنه أو انقلبوا عليه أثناء صراعه مع الإمبراطور البيزنطى، كما كافأ أولئك الذين ساندوه، ووقفوا معه فى هذا الصراع، ومن هؤلاء "ترانساموند" دوق كابو، حيث زوجه من ابنته وأسند إليه دوقية سبوليتو[٢].

والواقع أن هذه التحركات اللمباردية فى هذه الفترة، هى التى مكنت اللمبارديين من التوسع والسيطرة ليصبحوا إحدى القوى الثلاث المسيطرة على إيطاليا، حيث كانت القوتان الأخريان: الإمبراطورية البيزنطية والبابوية.

ولا شك أن مؤامرة اغتيال الإمبراطور قنسطانز في صقلية قد رسمت وأعدت أدوارها فى القسطنطينية، حيث كان العداء يتزايد تجاه الإمبراطور، فابتداء من الأزمة الداخلية التى ترك فيها القسطنطينية، حيث قتل أخاه وأعاد ترتيب أمور وراثته على العرش، إلى توجهاته الدينية ومعارضة الكثيرين لها، إلى هزائمه المتتالية أمام المسلمين وتصرفه المشين فى مواجهة بابا روما، إلى خروجه عن سيطرة رجال السناتو، وهم الذين لعبوا الدور الأهم في وصوله وانفراده بالعرش، ثم ما لبث أن تنكر لهم، وحد من نفوذهم وسيطرتهم، ثم جاءت الطامة الكبرى حين أشيع أنه يفكر فى نقل العاصمة إلى الغرب واستشعار وجهاء وأعيان القسطنطينية لخطورة ذلك، وزيادة نفقات بلاطه فى سيراكوز، والمبالغ الكبيرة التى تكبدتها الخزينة الإمبراطورية نتيجة ذلك، ثم ما أخذ يتردد فى العاصمة عن سوء سلوك الإمبراطور فى الغرب.. كل ذلك أدى إلى النفور منه، وجعل عددا من العائلات الكبيرة البيزنطية والأرمينية تتضافر فيما بينها لتدبير وتنفيذ عملية اغتياله.

---

(١) Oman, Dark Ages, P. 274.

(٢) الحويرى، اللمباريون، المرجع السابق، ص ١٠٩

كذلك فإن سرعة مناداة الجنود البيزنطيين وبالذات الأرمن الذين كانوا يرافقون الإمبراطور فى صقلية، بواحد منهم، لم يكن راغبًا فى العرش، دون انتظار للتعليمات من القسطنطينية، أو إقامة أى وزن للورثة الشرعيين للإمبراطور الذين كانوا يحكمون باسمه فى العاصمة، تؤكد أنه حتى الجنود الذين كانوا يرافقون الإمبراطور كانوا ساخطين عليه وعلى استمرار الحكم فى أسرته للقسوة التى تعرضوا لها أثناء المعارك فى الغرب[1]، لذلك عادوا إلى العادة القديمة بالمناداة بأحدهم ليكون إمبراطورا.

وكاد العرش البيزنطى أن يخرج من أحفاد هرقل، لولا ذلك التصرف السريع الذى قاده أرخون رافنا الذى كان مواليا للإمبراطور قنسطانز، والذى تمتع بنفوذ كبير ومكاسب كبيرة أثناء فترة حكم قنسطانز، وجاء الوقت ليرد دينه للإمبراطور ولورثته من بعده، فعمل على توحيد القوات الأخرى فى سردينيا وأفريقيا، واستطاع أن يجهض المحاولة الانقلابية التى استمرت عدة أشهر قبل أن يتمكن من القبض على المتآمرين والإمبراطور الدعىّ وأعوانه.

وهكذا كما تسلم قنسطانز الثانى الإمبراطورية وهى على فوهة بركان وصراعات مع عمه هرقليوناس وأمه مارتينا، ولم يصفو له الحكم إلا بعد أن تم له الخلاص منهما، كذلك سلم الإمبراطورية إلى وريثه قنسطنطين الرابع، وهى واقعة تحت سيطرة إمبراطور مغتصب فى الجزء الغربى من الإمبراطورية، وأعداء جدد يتهددونها ويتربصون بها.

لقد ورث الإمبراطور الجديد عن أبيه صراعه مع المسلمين الذى سيتزايد وتزيد مخاطره، كما ورث منه الصراع مع البابوية الذى سيتفاقم وتتفاقم حدته، وليشهد أطوارا جديدة.

وستتعرض الإمبراطورية فى عهدها الجديد لخطر جديد وداهم، هو خطر البلغار الذين سيقيمون دولة لهم ستكون شوكة فى خاصرة الإمبراطورية البيزنطية لقرون عديدة.

وهذا ما سيركز عليه الفصل التالى من هذه الدراسة.

---

(١) العدوى، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٨٠.

الفصل الرابع

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم
قنسطنطين الرابع (الملتحى)
(٦٦٨ – ٦٨٥ م / ٤٨ – ٦٥ هـ)

- إخماد الثورات التى نشبت بعد مقتل والده.
- الصراع مع المسلمين وحصار القسطنطينية، وأسباب فشله.
- الصراع البيزنطى / البلغارى.
- الإصلاحات الداخلية والدينية.
- مشكلة ولاية العهد، ونهاية حكم قنسطنطين الرابع.

إخماد الثورة التى نشبت بعد مقتل والده:

استطاع قنسطنطين الرابع، رغم صغر سنه، والذى لم يكن يتجاوز السادسة عشر من عمره[1] أن يستعيد العرش من ثوار صقلية وأن ينفرد به، بعد أن جرد حملة عسكرية[2] أبحرت من القسطنطينية إلى صقلية استطاعت إلقاء القبض على الثائرين والمؤيدين لهم وإجهاض حركتهم. لقد استطاعت هذه الحملة التى قادها قنسطنطين، ابن الملك القتيل، وولى عهده، أن تتكاتف مع الجهود المحلية والتى قادها أرخون راقنا للتصدى للثوار – كما سبق وأوضحنا – حيث تمكنت من إلقاء القبض على قاتل الإمبراطور قنساطنز الثانى، والإمبراطور المغتصب والحفاظ على العرش للوريث الشرعى، والذى سيعرف بقنسطنطين الرابع، كما سيعرف بصفة أخرى هى الملتحى (Pogonotus)، وذلك أنه عند عودته إلى القسطنطينية من صقلية لاحظ الناس أنه كان مرخيًا لحيته، والتى لم يحلقها منذ أن خرج من اللقسطنطينية مطالبًا بعرشه، فسماه الناس بالإمبراطور الملتحى[3]

---

(١) استطعنا أن نصل إلى هذا التحديد الزمنى لسن الإمبراطور عند استلامه للعرش من مقارنة تاريخ وفاته والتى كانت سنة ٦٨٥م وبداية توليه الحكم سنة ٦٦٨م ، والفترة التى قضاها فى الحكم وكانت ١٧ عامًا، وعمره عند وفاته والذى بلغ ٣٣ عامًا، فبذلك يكون عمره عند اعتلائه العرش ستة عشر عامًا.

(٢) سبق أن وضحنا أن هناك خلافًا بين المؤرخين حول حقيقة استعادة الإمبراطور قنسطنطين للعرش، وهل كان نتيجة حملة عسكرية جردها قنسطنطين أم نتيجة لقيام أرخون راقنا متضامنًا مع جنود أفريقيا وسردينيا، وأشرنا إلى هذا الجهد، كما أشرنا إلى حملة الإمبراطور. والواقع. أن خروج الإمبراطور قنسطنطين من القسطنطينية على رأس حملة عسكرية، وعودته إلى عاصمته بعد عدة شهور مرخيًا لحيته حتى أنه سمى بالإمبراطور الملتحى تؤكد على قيام الحملة العسكرية، ولا يعنى ذلك استبعاد التنسيق بين الإمبراطور وبين أرخون راقنا لإجهاض المؤامرة. انظر. Ostrogorosky. Op. Cit., 123; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 123 والمنجى، مصدر سابق، ص ٧١.

(٣) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٥٨. رانسيمان، الحضارة البيزنطية ص ٤٠.

والواقع أن قنسطنطيين الرابع كان قد تمرن مبكرًا على إدارة أمور الحكم، منذ أن أعلن والده قنسطانز الثانى اختياره إمبراطورًا مساعدًا ووليًا للعهد عام ٦٥٤م/٣٩هـ[١]، أخذ يشارك فى الإدارة، وتأكدت هذه المشاركة حين غادر الإمبراطور قنسطانز الثانى سنة ٦٦٢م / ٤٢هـ وترك لابنه الأكبر قنسطنطين أمر إدارة الدولة فى العاصمة البيزنطية[٢]. وأتاحت هذه الفترة الطويلة لقنسطنطين الرابع أن يلم بأمور البلاط، وشؤون الدولة. ثم جاءت مبادرته السريعة للتعامل مع الثائرين فى صقلية الذين حاولوا انتزاع العرش وإعلان إمبراطور جديد من هناك، ومسارعته لإعداد حملة عسكرية رغم الأوضاع المتردية فى الشرق الأوسط، دليلاً على شجاعته وسرعة تعامله مع الأحداث، ولم تكن ثورة صقلية هى الثورة الوحيدة التى تصدى لها قنسطنطين الرابع، بل سبقها عصيان أو تمرد عسكرى قادة سابوريوس Saborios قائد أرمينيا العسكرى، والذى استعان بالمسلمين لدعمه[٣]، ففى سنة ٦٦٨م / ٤٨ هـ اشتعلت ثورة سابوريوس، قائد أرمينيا لتضيف مزيد من الأخطار على الإمبراطورية البيزنطية، وأرسل سابوريوس سرجيوس Sergiuo أحد الخاضعين له إلى معاوية بن أبى سفيان خليفة المسلمين فى دمشق، يطلب دعم الخلافة لعصيانه وتمرده[٤]، وعندما سمع قنسطنطين – الذى لم يكن وقد انفرد بالعرش – بذلك أرسل أندريو Andrew حاملاً الهدايا إلى خليفة المسلمين، وملتمسًا منه دعم هذا العصيان، والتقى المبعوثان – البيزنطيان – فى بلاط الخلفية بدمشق، وقرر الخليفة، انطلاقًا من مصلحته، الاستجابة لسرجيوس – مندوب سابريوس – الذى حقر أندريو بأن دعاه خصيًا، وليس رجلاً[٥]وعاد أندريو يجر أذيال الهزيمة إلى الإمبراطور.

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., Vol. II, p.121; Gibbon p. 783.

(٢) Vasiliev, op. Cit., Vol.I, p. 223، أسد رستم، مرجع سابق، جـ١، ص ٢٥٨.

(٣) Theophanes, op. Cit., P. 488، أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦١، كنيسة أنطاكية، جـ ٢، ص ٤٥.

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 396

(٥) Theophanes, op. Cit., P. 489

وكان قنسطنطين قد أعطى تعليمات إلى رجاله بإلقاء القبض على سرجيوس فى طريق عودته إلى أمنيسيا Amnesia والتى كانت تقع فى طريق يسيطر عليه رجال قنسطنطين، حيث تم إلقاء على سرجيوس، وأحضر كسجين وانتقم منه أندريو بأنه جذع أنفه، وأخيرًا تم شنقه[١]

أما سابريوس فقد تقدم إلى هادريانوبوليس Hudrianopolis فى إقليم بيثينيا – أحد أقاليم آسيا الصغرى – وأرسل معاوية بن أبى سيفيان قائده فضالة بن عبيد الأنصارى لمساندته[٢]، ولدراسة خطوط الدفاع البيزنطية، وقام قنسطنطين بإرسال قائده نيقفوريوس nicephorus للتصدى له. ولكن حدث أن سابريوس عندما كان يعتلى فرسه عند أحد الأسوار، أن جمح به وارتطم رأسه بإحدى البوابات مما تسبب فى موته[٣]. وعاد رجاله إلى ولائهم للإمبراطورية البيزنطية[٤].

أما فضالة والذى كان قد وصل إلى هكسابوليس Hexapolis فقد اضطر إلى طلب المدد من الخليفة، الذى أرسل إليه مددًا تحت قيادة يزيد بن معاوية فى حين تحرك أسطول بحرى بقيادة فضالة لدعم هذا الجيش[٥].

واستطاع فضالة أن يكتسح المعاقل البيزنطية التى اعترضت طريقه حتى وصل إلى مدينة خليقدونية Chalecdon، وكانت ضاحية من ضواحى القسطنطينية على الشاطئ الآسيوى، ومعقلاً لفيلق من الجيش البيزنطى مكون من الحرس الإمبراطورى الخاص، فأقام فيها فصل الشتاء الذى حل عليه بها[٦].

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P. 347

(٢) الطبرى، مصدر سابق، جـ ٦، ص ١٣٠.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 490

(٤) Camb. Med Hist. Vol. II, P. 497

(٥) ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٢٢٧.

(٦) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٣.

وخلال هذه الظروف المحيطة أعلن قنسطنطين الرابع إمبراطورًا على الدولة البيزنطية، بعد أن استطاع المحافظة على العرش، والقضاء على المتمردين والطامحين.

ويرى أحد المؤرخين أن صغر سن الإمبراطور، وقلة تجاربه، والفوضى التى سادت الإمبراطورية عند توليه العرش، سواء فى الغرب أو فى الشرق، هى التى شجعت المسلمين على استئناف قتالهم للبيزنطيين، والزحف على الولايات الشرقية للإمبراطورية[1]. ولكن رغم ذلك فإننا نجد أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع تمكن من إخماد هذه الثورات، وبدأ يسرع فى إعداد العدة للتصدى للمسلمين، دفاعًا عن عاصمته التى ولى عرشها، وسفن المسلمين تهدد بالوصول إليها.

---

(١) محمد محمد مرسى الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٨.

الصراع مع المسلمين، وحصار القسطنطينية وأسباب فشله:

يستدعي الأمر أن نلقي نظرة سريعة على الأوضاع في الدولة الإسلامية، فقد أسفر الصراع الذي نشب في أعقاب وفاة الخليفة عثمان بن عفان، وتولي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة إلى تراجع المسلمين في صراعهم مع البيزنطيين واضطرار معاوية – الذي أعلن تمرده ومطالبته بالعرش – إلى طلب الصلح مع الإمبراطور قنسطانز الثاني – كما مر بنا – وخلال فترة تتجاوز العشر سنوات، سادت الدولة الإسلامية صراعات سياسية وعسكرية، تمخضت في النهاية عن الدولة الأموية وعلى رأسها معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ/ ٦٦٢م خليفة للمسلمين، وأصبحت دمشق القريبة من منطقة الصراع مع البيزنطيين عاصمة للدولة الجديدة.وكان ذلك مؤشرًا إلى استتباب الأوضاع في الدولة الإسلامية، وإيذانًا باستئناف الصراع مع الدولة البيزنطية.

والواقع أن المسلمين استغلوا انشغال الإمبراطور البيزنطي الثاني في الغرب في معالجة أوضاعهم وترتيب البيت الأموي، وعندما تم ذلك بدأ معاوية بن أبي سفيان يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته والإمبراطورية البيزنطية، فمنذ موقعة ذات الصواري واستقرار أقدم المسلمين في الشام ومصر دخل النزاع بين الطرفين مرحلة جديدة، فقد تخلت الإمبراطورية بعد هزيمتها في ذات الصواري عن محاولتها القديمة في استعادة مصر والشام، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلائم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على شواطئ بحر الروم الشرقية، ومن ثم كانت مسألة السيادة على البجر المتوسط هي شغل معاوية الشاغل، وحجر الزاوية في سياسته إزاء القسطنطينية، والتي بدورها جهدت على منع المسلمين من التوسع البحري[١].

---

(١) العدوي، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٢.

وقد تبلورت سياسة معاوية بن أبى سفيان البحرية منذ فترة مبكرة، فعندما كان واليًا على الشام، انهمك فى وضع خطة للهجوم على الأراضى البيزنطية القريبة،فقد استولى المسلمون على قبرص ورودوس وكوس، وعندما أصبح خليفة أكمل من النقطة التى وصل إليها بالاستيلاء على جزيرة خيوس، ليحكم إحاطته بالعاصمة البيزنطية(١).

وبدأ معاوية يستغل الظروف السياسية التى أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية فى أعقاب انتقال قنسطانز الثانى إلى الغرب، ومقتله هناك، فى تحقيق طموحاته ومشروعاته التى عمل جاهدًا على تحقيقها، ووفر لها جميع سبل النجاح،والتى كان منها الاهتمام بقيام صناعة السفن، وبناء أسطول إسلامى، وتحقيق التكامل والتنسيق بين أسطول الشام ومصر، وكذلك التنسيق بين الجيوش البرية والأساطيل البحرية(٢).

وبدأ معاوية بن أبى سفيان جولته الجديدة من الصراع مع البيزنطيين بعدة حملات استطلاع، كان أولها حملة فضالة بن عبيد الأنصارى(٣)، والتى وصلت إلى مدينة خلقيدونية واستولت عليها، حيث عسكر بها المسلمون واستطاعوا أن يتعرفوا عن كثب على تحصينات العاصمة البيزنطية.

وكانت الحملة الثانية بقيادة ابنه يزيد بن معاوية(٤) والتى تم إعدادها إعدادًا يفوق ما سبقها من حملات، بحيث وفرت لها إمكانيات أكبر من الرجال والعتاد، بل

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P. 123.

(٢) نجدت خماش، بلاد الشام فى صدر الإسلام، مرجع سابق ص ٢٠٦.

(٣) ابن الجوزى، المنتظم ، مصدر سابق ج ٥، ص ٢٤١.

(٤) هناك من المؤرخين من يرى أن إرسال معاوية لابنه يزيد على رأس هذه الحملة لإعطاء ابنه الفرصة لكى يعلى مركزه واسمه فى ميدان الجهاد ضد البيزنطيين، وليرد على الأشخاص الذين أبدوا انتقادهم وامتعاضهم من المحاولات التى بذلها معاوية لأخذ البيعة لابنه بالخلافة من بعده، إذ صورته الدعاية المعارضة بأنه أميل للمجون والخلاعة وعدم أهليته لتصريف شؤون المسلمين، وشعر معاوية أن ميدان الصراع مع البيزنطيون هو أفضل فرصة لابنه ليثبت عكس ذلك، ويحسن صورته لدى المعارضين. انظر: الطبرى ج ٥، ص ٣٠٢. ويذكر ابن الأثير رواية أخرى لمشاركة يزيد بن معاوية فى الحرب، فيقول: إن معاوية أمر ابنه يزيد بالمشاركة فى الغزو فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس فى غزوتهم جوع ومرض شديد فأنشد يزيد يقول: =

وصحبها عدد من كبار الصحابة ومنهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب النصارى(١).

وكان الهدف من مشاركة هؤلاء الصحابة إكساب الحملة طابع الجهاد المقدس، وتقوية روح الجند وبث الثقة والتفاؤل الطيب فى نفوسهم(٢).

وانضم يزيد إلى قوات فضالة ومن هناك انطلقوا إلى الشاطئ الأوروبى حيث قابلتهم القسطنطينية بأسوارها العالية والحصينة(٣).

ويذكر المؤرخون أنه أضاف إلى الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها القسطنطينية لإحاطتها بالمياه من ثلاث جهات فإن أباطرة الدولة البيزنطية قد بالغوا فى تشييد الأسوار الضخمة حولها(٤)، وكان السور الذى يحيط بالقسطنطينية عبارة عن ثلاثة أسوار وخندق. السور الداخلى منه حوالى ثمانية عشر مترًا فوق سطح الأرض وعليه مجموعة من الأبراج الضخمة منها المربع والمثمن أو بشكل آخر، يصل ارتفاعها إلى حوالى ثلاثين مترًا، وكانت المسافة بين كل برج وآخر تصل إلى أربعة وخمسين مترًا، أما السور الثانى فكان يبعد عن السور الأول الداخلى بمسافة ثمانية عشر مترًا، وهو أقل ارتفاعًا من السور الداخلى، ارتفاعه حوالى عشرة أمتار، وكانت عليه مجموعة من الأبراج ذات الأشكال المختلفة، وكانت

= ما أنا أبالى بما لاقت جموعهم ... بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا ... بدير مران عندى أم كلثوم

وأم كلثوم امرأته، فبلغ معاوية شعره فأقسم ليلحق بالمسلمين فى أرض الروم ليصيبه ما أصابهم، فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه. وتذهب هذه الرواية إلى أن مشاركة يزيد جاءت بإجبار من والده والتى كان يهدف منها أهداف سياسية بعيدة المدى. أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٢٢٧.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨ ص ٣٢.

(٢) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٦٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٢٢٨.

(٤) Michael whiby, The long walls of constantionople, Byazantion, Tome IV, Bruxells, 1985, P. 561.

المسافة بين كل برج وآخر حوالى أربعة وخمسين مترًا، والسور الثالث أو الخارجى يبعد عن السور الثانى أو الوسط بحوالى اثنا عشر مترًا، وفى النهاية يوجد الخندق الذى تبعد نهايته عن السور الثالث بحوالى عشرين مترًا، ويمكن أن يملأ هذا الخندق بالمياه عند الضرورة(١).

وفوجئ المسلمون بهذا التحصين الكبير الذى يحيط بالقسطنطينية ولكن ذلك لم يفت من عضدهم، فأخذوا فى محاصرة العاصمة البيزنطية بصبر وجلد، وأخذوا فى التضييق على سكانها، ومناوشة الجند وتبادل القتال معهم، وسقط عدد كبير من الشهداء المسلمين، كان فى مقدمتهم أبو أيوب الأنصارى، ودفن بالقرب من أسوارها(٢)

وبعد سنة من الحصار، رفع المسلمون حصارهم عن القسطنطينية سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م(٣)، بعد أن حققوا عدة نتائج كان أهمها: التعامل عن قرب مع تحصينات القسطنطينية، وتقدير القوات والمعدات اللازمة لاختراق هذه التحصينات. وعاد الجيش الإسلامى إلى دمشق انتظارًا لجولة جديدة يكون المسلمون فيها أكثر استعدادًا فى الرجال والعتاد والخطط الحربية.

---

(١) د. محمود سعيد عمران، تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، (بحوث ودراسات) اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، ص ٣١١

(٢) بن كثير، جـ ١، ص ٣٢. زهو يذكر رواية أخرى تحمل تاريخًا آخر لوفاة أبى أيوب الأنصارى، حيث يذكر أنه قيل أن أبا أيوب لم يمت فى هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو أثنتين أو ثلاث وخمسين، وينفرد ابن كثير بهذه الرواية، إلا أن هناك إجماعًا أن وفاته كانت فى حملة يزيد بن معاوية، وهو مدفون عند أسوار القسطنطينية وعلى قبره مزار ومسجد، معظم لدى المسلمين والبيزنطيين، وكان دفنه هناك بناء على وصيته حيث أوصى: "إذا مت فأدخلونى فى أرض العدو، فادفنونى تحت أقدامهم حيث تلقون العدو". ابن كثير،البداية والنهاية، جـ ٨ ص ٥٩.

(٣) فتحى عثمان، الحدود، جـ ١، ص ٣٦٠ وهو بعد الحصار الأول للقسطنطينية، وهو يعدد ثلاثة حصارات قام بها المسلمون للعاصمة البيزنطية.

لقد كان لعامل نقص الأغذية، والبرودة الشديدة، أثرها المباشر في جعل المسلمين يرفعون حصارهم عن القسطنطينية ويعودون أدراجهم إلى دمشق. وفي طريق عودتهم استولوا على عمورية Amorium، والتي كانت موقع عسكري هام ولم يتمكن المسلمون من الدفاع عنها، فما لبث البيزنطيون أن قاموا باستعادتها، حيث استغلوا الظلام والجليد الكثيف في مباغتة المسلمين وأحدثوا فيها مقتلة كبيرة دفعت المسلمين إلى مغادرتها(١).

وكما كان لهذه الحملة، وحصار المسلمين للقسطنطينية نتائج هامة بالنسبة للجانب الإسلامي فكذلك كان لها نتائج أخرى على البيزنطيين. فقد انتابهم الخوف والقلق، وجعلهم يعيدون حساباتهم لمواجهة المسلمين، الذين اقتربوا هذه المرة من قلب الإمبراطورية وعاصمتها. وبدأوا يرسمون سياسة للتصدى للمسلمين، والتركيز على مزيد من التحصينات للعاصمة البيزنطية، ومحاولة عرقلة أى جهد إسلامى قبل أن يصل إلى أسوارها(٢).

وقام البيزنطيون بتطوير نظام الثيمات الذى وضعه الإمبراطور هرقل عند بداية وصوله إلى الحكم فى بيزنطة، وكان هذا النظام النواة لجيش وطنى يدافع عن الإمبراطورية. وفى بداية حكم الإمبراطور قنسطنطين الرابع تم تكوين ثيمين جديدين هما: ثيم الأناضول Anatolie، وثيم كبيرهايوت Cibraiots(٣)، وضمهما إلى الثيمين أرمينيا، "الأرمينياك Armeniaakos"(٤).

وكذلك اهتم الإمبراطور قنسطنطين الرابع بتخزين المواد الغذائية والمياة داخل أسوار القسطنطينية، لشعوره بأن الحصار الذى استمر طوال العام الأول من حكمه لن يكون آخر محاولات المسلمين لتهديد عاصمته(٥).

---

(١) Camb. Med. Hist.Vol. II, P. 393.

(٢) Michael whiby, op. Cit., P. 579.

(٣) Bury. op. Cit., Vol. II, P. 342.

(٤) Holdon. op. Cit., P. 194.

(٥) Oman, op. Cit., P. 171.

كما اهتم بوسائل الإنذار التى كانت تحتوى عليها أبراج أسوار القسطنطينية، وكذلك الاهتمام بتطوير وزيادة فاعليتها، وكانت عبارة عن نيران توقد علـى تلـة أبـراج مرتفعة للتحذير والإرشاد[١] ووفرت هذه الوسائل للعاصمة البيزنطية نظـام إنـذار مبكر أمام الخطر، وكانت تعتمد على إرشادات خاصة يستطيع المتلقون والمراقبون من خلالها إيصال رسائل مفهومة وواضحة إلى العاصمة فى أسرع وقـت، وذات مدلولات متفق عليها.

وقد أنشأ هذا النظام مبكرًا فى الإمبراطورية البيزنطية، وتم تطويره فى فترة الصراع مع المسلمين، خاصة أثناء عمليات الحصار الطويلة التى تعرضـت لهـا العاصمة من قبل[٢].

كما قامت بتطوير أسلحتها للتصدى للمسلمين، ومنها سلاح "النار البحريـة" والذى سيكون له أثره الفعال فى حسم الصراع فى هذه المرحلة، وسيأتى التفـصيل عن هذا السلاح الخطير فى حينه.

من جانب آخر فإن المسلمين واصلوا استعداداتهم الحربية علـى جبهتـين، الجبهة البرية عبر آسيا الصغرى، والبحرية فى البحر الأبيض المتوسط، وتكررت غزواتهم البرية والبحرية والتى تسمى بالشواتى والصوائف، وشارك فيها عدد كبير من القادة المسلمين، منهم بسر بن أرطأة، وفضالة بن عبيد الأنصارى، ومحمد بـن مالك، ومعن بن يزيد السلمى، وجنادة بن أمية، وعبد الرحمن بن خالد، وسفيان بن عوف الأزدى، وغيرهم من القادة[٣].

---

(١) مزيد من التفصيل عن هذا النظام وتطويره انظر البحث المفصل لـ:
Philip Patrenden, The Byzantne Early Warnig System, Byzntium، Tome LIII, Bruxeles 1983,P.261.

(٢) Ibid, P. 263

(٣) هناك خلاف بين المصادر الإسلامية عن السنوات التى قاد فيها هؤلاء القادة حملاتهم وأيهم كان أسـبق للآخر، انظر الطبرى،جـ ٥ ص ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠٩، وأيضًا ابن كثير، جـ٨ ص ٥٨، ٦١، ٦٦.

ففى سنة ٥٤هـ / ٦٧٣م[1] فتح المسلمين شبه جزيرة قريبة من القسطنطينية تسمى "أرواد" على يد جنادة ابن أمية، ويسميها البيزنطيون باسم "جزرية كزيكوس Cyzicus".

والواقع أن فتح هذه الجزيرة القريبة من العاصمة البيزنطية، جاء فى أعقاب حملة برية يؤازرها أسطول بحرى، انطلقت لمهاجمة الأراضى البيزنطية، وعندما حل فصل الشتاء والقوات الإسلامية فى طريق زحفها عبر آسيا الصغرى، ألقت السفن مراسيها على شاطئ قليقيا واستولت عليه، كما أقام أسطول آخر بالاستيلاء على سميرنا Smyrna (أزمير الحالية)[2]، وفى الربيع واصلت القوات البحرية تقدمها وتعزز الأسطول البحرى بأسطول آخر، حيث استأنفت القوات جميعها زحفها نحو القسطنطينية[3].

وفى طريق عودة الأسطول من مهاجمة القسطنطينية، تم الاستيلاء على جزيرة كزيكوس، حيث قرر المسلمون اتخاذها مقرًا لإدارة الحملات الإسلامية على القسطنطينية، مستفيدين من القرب الشديد لها من القسطنطينية، وما يمكن أن تمثله من قاعدة استراتيجية لتجهيز وراحة المقاتلين بعد حملاتهم على العاصمة البيزنطية.

---

(١) هكذا تذكر المصادر الإسلامية تاريخ فتح جزيرة أرواد "كيزيكوس" وهى غير جزيرة أروادالقريبة من الساحل السورى، بينما تذكر المراجع الأوربية أن فتحها تم سنة ٦٧٠ م وهى تعادل سنة ٥٠هـ. انظر: الطبرى، جـ ٥، ص ٢٩٣ وأيضًا:Ostrogorosky. Op. Cit., P. 124
Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310; Camb. Med. Hist.Vol. II, P. 397.
وهناك من يذكر إن الذى فتح جزيرة كزيكوس هو عبد الرحمن بن خالد: العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧٢.
ويبدو أن سنة ٦٧٣م٥٤ هـ هى الأنسب لتكون سنة فتح جزيرة كزيكوس حسب تسلسل الأحداث والهجمات على القسطنطينية، فمنذ تلك الفترة كانت الأساطيل تنطلق من هذه الجزيرة ثم تعود لتعسكر بها خلال فترة الشتاء، ولم نلاحظ قبل هذه الفترة أنه كان لها مستقر أو قاعدة تعسكر بها بجوار القسطنطينية، وإنما كانت تعود إلى السواحل السورية..

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.397; Ostrogorosky, Op. Cit., P124
ويذكر كلا المرجعين أن الاستيلاء على شاطئ قليقيا، وسميرنا تم فى عام ٦٧٢م، وهو يؤكد ما ذهبنا إليه من ترجيح الاستيلاء على جزيرة كزيكوس سنة ٦٧٣م / ٥٤، بعد هذين العملين.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310

وابتداء من سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣م أخذ المسلمون يركـزون هجمـاتهم علـى القسطنطينية، مستفيدين من الإمكانيات التى وفرتها لهم جزيرة كزيكوس، وبذلك بدأ ما عرف تاريخيًا بحرب السنوات السبع لحصار القسطنطينية، حيث كانوا يقـضون فصلى الربيع والصيف فى محاصرة القسطنطينية ومهاجمتها وفى الخريف والشتاء يعودون إلى كزيكوس[١].

ويبدو أن البيزنطيون قد أزعجهم خروج جزيرة كزيكوس عـن سـيطرتهم، وتصميم المسلمين على مهاجمة عاصمتهم، وقاموا كرد فعل لكل ذلك ورغبة فـى الانتقام وشغل المسلمين عن مهاجمة عاصمتهم، بتجريد حملة فـى أواخـر سـنة ٦٧٣م / ٥٤هـ هاجمت الشواطئ المصرية ونزلت بمدينة البرلس[٢]،.واستطاع والى مصر فى تلك الفترة مسلمة بن مخلد، التصدى لهذه الحملة حيث خرج المـسلمون إليهم فى البر والبحر، واستشهد منهم جمع كثير[٣]، ورغم كثرة الذين استشهدوا إلا أن هذه الحملة فشلت ولم يكن لها سوى تأثير ضئيل[٤]، بل ربما كـان لهـا تـأثير

---

(١) أرشيبالد لويس، القوات البحرية، مرجع سابق، ص ٩٦ وهناك خلاف بـين المـؤرخين حـول هـذه الحروب، بعضهم يسميها حروب السنوات السبع (العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٢). (البـاز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٥٠)، (محمد مرسى الشيخ، الدولة البيزنطيـة، ص ٩٨) وبعـضهم يحددها بخمس سنوات (د. وسام فرج، النار الإغريقية طبيعة تركيبها وأثرهـا فـى نـشاط المـسلمين الحربى، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، اتحاد المؤرخين العرب، القـاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص ٢٨٧). وهناك من يحددها بأربع سنوات فقط (أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٢) ويعود السبب إلـى أن البعض يحددها قبل الاستيلاء على كزيكوس، وبعضهم بعد الاسـتيلاء علـى جزيـرة كزيكـوس، والبعض الآخر يحددها منذ اشتدادها سنة ٦٧٤م إلى نهايتها سنة ٦٧٨م فلذلك يسمونها حـرب الأربـع سنوات فقط.

ولمزيد من التفاصيل عن هذا الخلاف أنظر الهامش رقم (٣) فى تعليق مترجمى "حوليات ثيوفانيس":
Theophanes, Op, Cit., P. 444, not(3)

(٢) د. علية الجنزرى، هجمات الروم البحرية، مرجع سابق، ص ٤٧ والبرلس بلدة على شاطئ النيل قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموى، مصدر سابق جـ ١، ص ٤٠٢.

(٣) الكندى الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص ٢٨ وممن استشهد فى ذلك اليوم وردان مولى عمـرو بـن العاص.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٦ ى. الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٤٩.

معاكس حيث جعلت المسلمين يصرون على التعامل مع القسطنطينية بشكل أكثر حدة، كما دفعت معاوية بن أبى سفيان إلى بناء أول دار لصناعة السفن بمصر، فى جزيرة الروضة حيث تخصصت فى بناء السفن الحربية. بوصول الصراع بين الدولتين إلى هذا الحد، اتضحت أهداف المسلمين فى قتال البيزنطيين فى آسيا الصغرى، وبرزت هذه الأهداف فى تأمين الحدود ومحاولة التوسع داخل آسيا الصغرى والوصول إلى القسطنطينية وإسقاطها، وهذا ما حدث فعلاً، إذ أن المسلمين درجوا على عبور الممرات الجبلية من جبال طوروس الداخلية لتدمير القواعد والتحصينات البيزنطية، ثم أخذت شدة الإغارات تتطور إلى حملات عسكرية واسعة النطاق تجتاح معظم أقاليم آسيا الصغرى(١)، فى حين كانت استراتيجية الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق تستهدف إقامة منطقة حاجزة غير آهلة بالسكان بين أقاليم الإمبراطورية الشرقية والحدود الشمالية للدولة الإسلامية، ومن أجل تحقيق ذلك لجأت الإدارة البيزنطية إلى تدمير الحصون والقلاع الواقعة على الحدود الشرقية والجنوبية لآسيا الصغرى بدلاً من وضع حاميات فيها، وسرعان ما بدأ المسلمون من جانبهم ينشؤون التحصينات التى عرفت باسم "الثغور" فى أطراف دولتهم المواجهة للأقاليم البيزنطية لتكون حصناً يحمى دار الإسلام من جهة، ولتكون قواعد لشن الغارات(٢)

وظهر فى هذه الفترة، وفى ظل تكرار الهجمات الإسلامية أن هناك عجزًا من الدولة البيزنطية فى وقف هذه الهجمات فضلاً عن التصدى لها أو الرد عليها، والواقع أن هناك أسبابًا كثرة أدت إلى هذا الموقف لعل منها:

---

(١) د. عبد الرحمن عبد الغنى، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) وسام فرج، الدولة البيزنطة مرجع سابق، ص ١٦٤ وأشار البلاذرى كذلك (فتوح البلدان، ص ١٧٠) إلى سياسة الإخلاء التى اتبعتها بيزنطة فى الأقاليم الحدودية، حيث لم يكن المسلمون يجدون أى أثر للبيزنطيين أو لمقاومتهم.

١- أن إعادة تنظيم أقاليم آسيا الصغرى، وتوزيع الفرق العسكرية البيزنطية بها - وهو تنظيم بدأه الإمبراطور هرقل فى أعقاب هزائمه المبكرة أمام المسلمين وواصله خلفاؤه من بعده - كان لا يزال فى مرحلة التكوين، ولم يكتمل إلا بعد فترة طويلة، وبالتحديد فى عهد الأسرة التى تلت حكم الأسرة الهرقلية، ونتيجة لذلك فإن الإدارة البيزنطية اتبعت سياسة مغايرة فى هذه الفترة المليئة بالصراع والتى تمتد من ٦٥٠ - ٦٩٠ /ض ٣٠ - ٧١ هـ كى تتجاوز محنة الغزو الإسلامى، وتتلخص هذه السياسة فى العمل على تجنب الصدام المباشر بالجيوش الإسلامية تفاديًا للهزائم التى لا بد وأن يتبعها استسلام المدن وضياعها من الإمبراطورية، خاصة وأن الغزوات الإسلامية كانت تتكرر كل عام وربما أكثر من مرة فى العام الواحد، وكان معنى ذلك مزيدًا من الهزائم وانهيار الروح المعنوية للجنود[(١)].

٢- كما أن الفرق العسكرية التى أعدتها الإمبراطورية البيزنطية منذ منتصف القرن السابع الميلادى، لم تعتمد على الاحتفاظ بطابعها كجيوش قتال ميدانية تعسكرفى منطقة حصينة وتستطيع التحرك بسرعة لمواجهة الخطر الذى يهدد منطقة أخرى، وسبب ذلك أن الظروف التى أحاطت بالإمبراطورية وقت الغزوات الإسلامية حتمت على الإدارة البيزنطية أن تقتصد فى نفقاتها، وأصبح على الفرق العسكرية فى كل إقليم أن تعتمد على ما يقدمه لها سكان الإقليم المحليين من مال أو عطايا عينية[(٢)]

٣- ففى مواجهة كل ذلك، لجأت الإمبراطورية البيزنطية إلى نظام الإنذار المبكر، فالقوات العسكرية كانت موزعة على أقاليم آسيا الصغرى فى القلاع والقرى والمدن، ومن الصعب تركيزها فى مكان واحد، وأصبح الواجب على جنود كل منطقة إنذار السكان المحليين المعرضيين للخطر والعمل على نقلهم بعيدًا عن

(١) Holdon, Op. Cit.. P.170.

(٢) Kaegi, Byzantine Miletry, Op. Cit., P. 103.

طرق الغارات الإسلامية[١]، ومن ثم استخدم أسلوب حرب العصابات مع المغيرين، والتربص لهم فى الممرات الجبلية أثناء عودتهم محملين بالغنائم ثم مهاجمتهم، وظلت هذه السياسة هى الأساس فى خطة الدفاع البيزنطية لمواجهة غارات المسلمين، وهى سياسة فرضتها أوضاع وظروف الإمبراطورية البيزنطية وضرورة الاعتماد على الإمكانيات البشرية المحلية، وطبيعة الغارات الإسلامية، التى تتكرر كل عام، وهى سياسة أفادت إلى حد ما فى التعامل مع الغزوات الإسلامية، وإن لم تستطع التصدى لها أو وقفها[٢].

وانطلاقًا من هذه الأوضاع، استكملت الدولة الإسلامية خطتها لضرب الإمبراطورية البيزنطية فى العمق، حيث أبحرت الأساطيل الإسلامية من مصر والشام، منضمة إلى تلك التى كانت تعسكر فى جزيرة كزيكوس، لتشكل فى مجموعها حملة عسكرية كبيرة جعلت كثيرًا من المؤرخين يطلقون عليها "عمارة بحرية كبيرة"[٣].

ولا يوجد حصر لعدد أو حجم السفن والقوات المشاركة فى هذه الحملة، إلا أن هذا الوصف يجعلنا نجزم بأنها كانت حملة ضخمة، أثارت القلق فى القسطنطينية.. على أن الإصلاحات التى أدخلها الإمبراطور قنسطنطين الرابع على أسوار العاصمة، وعدم استكمال الحصار حولها، حيث كانت ما تزال متصلة بالبحر الأسود، وكذلك بقيت الطرق البرية المؤدية إليها مفتوحة، مما مكنها من الحصول على كل ما تحتاج إليه من المؤن والإمداد[٤]. وكذلك الاستعداد المبكر لخزن المؤن والعتاد فى العاصمة. كذلك كان له أكبر الأثر فى كسر حلقة الحصار الإسلامى لها. ثم أن المسلمين عادوا لخطتهم القديمة التى كانوا مجبرين عليها

---

(١) Pattenden, Op. Cit., P. 266.

(٢) وسام فرج، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٦٢، Ostrogorosky, Op. Cit., P.124.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٦.

بسبب الظروف المناخية وشدة البرودة، حيث واصلوا حصارهم وقتالهم للبيزنطيين في فصلى الربيع والصيف، وعودتهم في الشتاء والخريف إلى قاعدتهم في كزيكوس، فكان هذا يعطى للبيزنطيين الفرصة لإصلاح ما أفسدته المناوشات خلال الهجوم والحصار، وتجديد الاستعدادات لجولة قادمة. ولا شك أن الظروف المناخية إضافة إلى عوامل أخرى قد عملت على الوصول إلى النتيجة التى انتهى إليها هذا الحصار الطويل والمضنى.

وكانت الأساطيل الإسلامية تنقل الجنود من جزيرة كزيكوس إلى البر الملاصق للقسطنطينية لمحاصرة أسوارها، في حين يكمل الأسطول حلقة الحصار بأن تقف سفينة بين رأس هبدومون Hebdomon الذى يبعد سبعة أميال عن الأسوار، وبين رأس كيكليبوس Kyklobios الواقع بالقرب من باب القرن الذهبى(١)

وبدأت الحملات تأخذ وتيرة سنوية، ففى كل عام تعود الأساطيل حاملة الجنود المسلمين لمحاصرة القسطنطينية، ثم تعود في نهاية فصلى الربيع والصيف إلى قواعدها في جزيرة كزيكوس. وفى العام الذى يليه تعود مرة أخرى، مضافًا إليها المدد الذى أرسله الخليفة من بلاد الشام أو من مصر(٢)

وقد توالى على قيادة هذه الحملات عدد من القادة المسلمين من بينهم سفيان بن عوف، ومالك بن عبد الله، وفضالة بن عبيد الأنصارى، وبسر بن أرطأة، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى، وعمرو بن محرز، وجنادة بن أمية، ويزيد بن شجرة، غيرهم من القادة(٣)

ورغم ضراوة الهجمات الإسلامية وتكرارها، الأمر الذى جعل الجند المسلمين فى حالة تأهب دائم واستعداد للحرب(٤)، إلا أن القسطنطينية استعصت

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 310.

(٢) الطبرى، مصدر سابق جـ ٥، ص ٣١٥.

(٣) ابن الأثير، الكامل،جـ ٣ عدة صفحات، ابن كثير، البداية والنهية، جـ ٨ عدة صفحات.

(٤) فيليب حتى، الشرق الأدنى، مرجع سابق، ص ١٦٣.

على الفتح الإسلامى، وذلك لعدة أسباب لعل منها الحصانة التى كانت تتمتع بهـا، وصعوبة الظروف المناخية التى كانت تمـر بالمقـاتلين فتـضطرهم إلـى قطـع حصارهم طوال فصلين من العام، وعندما يعاودون القتال يبدأون من نقطة جديـدة، ثم التوفيق الذى حالف البيزنطيين فى الوصول إلى سـلاح فعـال ومـؤثر، قلـب موازين المعارك، وأفقد الحصار فعاليته، وفتّ فى عضد المسلمين. ذلك هو سلاح "النار البحرى" الذى اخترعه البيزنطيون واستخدموه فى المعركة.

وغير معروف بالتحديد متى توصل البيزنطيون إلى هذا السلاح، واستخدموه فى المعركة، إلا أن أحد المؤرخين يذكر أن ذلك تـم فـى الـسنة الرابعـة مـن الحصار(١).

ويرجع اختراع هذا السلاح الفتاك إلى مهندس سـورى كـان لـه اهتمـام بالكيمياء والهندسة، وكان قد فر من بلاد الشام أثناء الفتح الإسلامى لها، وغادر إلى العاصمة البيزنطية، وهناك استطاع مواصلة تجاربه حتى وصل إلى هذا الـسلاح الفتاك فى وقت مناسب.

وهذا المهندس السورى والذى يسمى كالينكوس Kallinikos فر هو وأسرته من مدينة بعلبك Heliopolis، واستفادت الإمبراطورية البيزنطية من ولائه لها.

وعـرف الـبيزنطيون هذا السلاح باسم "النار المصنعة المركبـة سـريعة الالتصاق" To skeuaston kai Kollutikon pur أو النـار الـسائلة Hygron pur أو النار البحرية Thalassion pur(٢)، وكانت عبارة عن خليط كيميائى يـدخل الـنفط Aptha كعنصر أساسى فى تركيبه، مضافاً إليه القار والكبريت والراتينج والجيـر

---

(١) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦١.

(٢) د. وسام فرج، النار الإغريقية، مرجع سابق، ص ٢٨٨

قسطنطين السابع، إدارة الإمبارطورية البيزنطية، مصدر سابق، ٦٨.

هكذا كان اسمها، أما الذين أطلقوا عليها "النار الإغريقية" فهم الصليبيون عندما استخدموها فى القـرن الحادى عشر الميلادى.

الحى، حيث يغمس هذا الخليط فى نسيج الكتان، ويوضع فى أنبوبة ضيقة تقذف فى الهواء وهى مشتعلة بواسطة المنجنيق فيسمع لها انفجار مدوى يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب حارق(١).

واستخدم البيزنطيون هذه النار الحارقة بوسيلتين فكانوا يقذفونها من على الأسوار على محاصريهم، أو من السفن التى كانت من طراز درمون Drmon، حيث كانت كل سفينة تشتمل على صفين من المجاديف، فضلاً عن خمسين مقعدًا خشبيًا طويلاً يسمح الواحد بجلوس اثنين من المجدفين(٢)، وكان جهاز قذف النار يوضع فى مقدمة السفينة ويتولى توجيهها المجدف الأمامى بينما يتولى زميله إلقاء ورفع المرساة الأمامية(٣).وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية – لإرهاب العدو – ينبعث من أفواهها النار التى تلقى على سفن الأعداء(٤) ولم يكن العرب لهم سابق معرفة بهذا السلاح الفتاك، ورغم تأثيره البالغ على سفنهم وجنودهم إلا أن ذلك لم يمنعهم من مواصلة حصارهم للعاصمة البيزنطية.وكان من مزايا هذه النار البحرية، أن اشتعالها يستمر حتى فى الماء، ولم يستطع المسلمون التوصل إلى كيفية انطفائها، أو التعامل معها.

ويذكر أحد المؤرخين أن الرمل والخل فقط هما القادران على إطفائها وهو السر الذى لم يتوصل إليه المسلمون فى ذلك الحين(٥).

على أية حال عملت هذه العوامل المباشرة، وهى التيارات البحرية التى كانت تتعرض لها سفن المسلمين، فتعيق تقدمهم فى اقتحام أسوار القسطنطينية (٦)، إلى جانب الظروف المناخية التى لم يتعودها العرب فى بلادهم، والمجاعات التى

---

(١) Oman, Art of war, Op. Cit., P. 46

(٢) رانسيمان: الحضارة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.124

(٤) Gibbon, Op. Cit., Vol. II, P. 797.

(٥) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 319.

(٦) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، مرجع سابق، ص ١٧٦.

كان يتعرض لها المعسكر الإسلامي[١]. وحصانة القسطنطينية ومناعة أسوارها وافتقار المسلمين إلى المعدات والآلات التي تعينهم على التعامل مع هذه الحصانة، وكذلك عدم استكمال حلقة الحصار حول القسطنطينية، وقد كانت الجهات الشمالية والغربية للعاصمة بعيدة عن تأثير الحصار الإسلامي[٢]. يضاف إلى كل ذلك توصل البيزنطيين إلى اختراع النار البحرية، وإدخال هذا السلاح في المعركة، وعجز المسلمين عن التوصل إلى وسائل فعالة للتصدي لهذا السلاح أو التعامل معه، وكذلك تحريك البيزنطيين لأعوانهم من المردة لإحداث القلاقل على حدود الدولة الإسلامية وفي داخلها[٣] كل ذلك مثل عوامل مباشرة جعلت المسلمين يفكرون في رفع حصارهم عن القسطنطينية والدخول – للمرة الثانية – في مفاوضات لتوقيع معاهدة سلام مع البيزنطيين.

يضاف إلى ذلك أن هناك عاملاً غير مباشر، دفع إلى ذلك التراجع، وهو طول فترة الحصار، واحتياج معاوية للقوات للمحافظة على الأمن الداخلي في الدولة الإسلامية، حيث كان يخطط لإعلان ابنه يزيد خليفة من بعده، وهو ما يمثل توجهًا جديدًا في الدولة الإسلامية[٤]؟! وقد توقع أن يكون له معارضون في بعض

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.398.

(٢) Stewart, Byzantine legacy, Op. Cit., P. 96.

(٣) المنبجي، مصدر سابق، ص ٧٢، ٧٣ وكذلك: د. إحسان عباس، العرب والمردة في تاريخ قسطنطين. (مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، العدد الثالث، بيروت ١٩٧٩ م) ص ٦.

(٤) تذكر المصادر الإسلامية كالطبري وابن الأثير وابن كثير، أن هناك معارضات قد ظهرت عندما بدأ معاوية يستمزج آراء الولاة والزعامات في تعيين ابنه يزيد خليفة للمسلمين من بعده. وسبق أن أشرنا إلى بعضها والمعروف أن معاوية بن سفيان قد اتجه إلى أخذ البيعة لابنه يزيد بتحريض من المغيرة بن شعبة، وفي سنة ٥١هـ خرج معاوية إلى الحجاز، وجهد على أخذ البيعة لابنه من أهل الحجاز بعد أن ضمن موافقة أهل الشام والعراق، وقد بايع أهل الحجاز تحت تهديد معاوية، ولكن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر، وغيرهم رفضوا المبايعة ليزيد ولذلك كان الموقف الذي ينتظر تولي يزيد الخلافة بعد أبيه قلقًا. أنظر: الطبري، مصدر سابق، جـ ٥ ص ٣٠١. ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٢٤٩، ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨ ص ١٤٦. الذهبي، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، (حوادث سنة ٤٠ – ٦٠)، ص ٢٢. ابن الجوزي، المنتظم، مصدر سابق، جـ ٥، ص ٢٨٥.

الولايات. كما أنه لم يستبعد قيام فوضى فى البيت الأموى، وفضل أن يستعد لها مبكرًا قبل وفاته وقبل أن تندلع الاضطرابات فى الدولة الإسلامية، لذلك رأى أن ينهى حالة الصراع مع الدولة البيزنطية(١).

ولأن الإمبراطورية البيزنطية كانت أشد حاجة إلى وقف الحرب، والدخول فى مفاوضات سلام مع المسلمين، فسرعان ما استجابت للعرض الإسلامى، وبدأ السفراء يتنقلون بين البلاطين الأموى والبيزنطى لإقرار اتفاقية السلام وشروطها(٢).

وكانت هذه هى المرة الثانية التى يضطر فيها معاوية بن أبي سفيان لطلب الصلح، والدخول فى مفاوضات سلام مع البيزنطيين، فقد كانت المرة الأولى أثناء ولايته لبلاد الشام، وقبل أن يصبح خليفة للمسلمين، ليكرس جهوده فى صراعه مع على بن أبى طالب (رضى الله عنه) على الخلافة.

ولأنه فى كلا الحالتين كان طلب الصلح من الجانب الإسلامى، فقد اضطر معاوية أن يقدم بعض التنازلات والأموال، والخضوع لبعض الشروط، لشراء السلام.

وقامت سفارة بيزنطة برئاسة يوحنا Jhon، والذى يتميز بالدبلوماسية والذكاء والفطنة، بالتوجه إلى دمشق، وإجراء مفاوضات مباشرة مع الخليفة، حيث عقدت عدة جلسات، حضرها نخبة من أبناء البيت الأموى وقياداته، وقد أبدى المبعوث البيزنطى إجلاله وإكباره للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، وسهل مهمته فى الوصول إلى شروط الصلح(٣).

---

(١) محمد مرسى الشيخ، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٩٩.

(٢) صلاح الدين المنجد، رسل الملوك ومن يصلح للسفارة (وهو الجزء الثانى والذى وضعه الدكتور المنجد استكمالا لكتاب ابن الفراء الذى قام بتحقيقه)، ص ١٥٢.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 312.

وقد تمخض عن هذه المفاوضات عقد معاهدة سلام بين الدولتين مدتها ثلاثين عامًا، وتم توقيع واعتماد هذه المعاهدة عام ٥٨هـ / ٦٧٨م، من الجانبين البيزنطي والإسلامي وبعد أداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من المعاهدة، وعاد المبعوث الإمبراطوري إلى موطنه محملاً بالكثير من الهدايا النفيسة(١)

وقد نصت بنود الاتفاقية بين الدولتين على وقف الأعمال الحربية، وأن يتعهد معاوية بن أبي سفيان بدفع إتاوة للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة آلاف نوميسماتا (قطعة ذهبية) وخمسين حصانًا أصيلاً وإطلاق سراح خمسين أسيرًا من الأسرى البيزنطيين كل عام(٢)

ثم أعقب هذا الفشل الأموي، وهذا الصلح أن تم تجميع بقايا السفن الإسلامية التي نجت من النار البحرية ومن العواصف ومن التيارات استعدادًا للعودة إلى السواحل الشامية، ولكن لسوء حظها فقد تعرضت لعواصف شديدة أثناء سيرها نحو الجنوب تجاه ساحل بامفيليا Pamphylia، ولم يصل من ذلك الأسطول الضخم الذي كان يملأ شواطئ القسطنطينية، سوى عدد قليل من السفن والرجال(٣)

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، جـ ١، ص ٣٢٩.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة، مصدر سابق، ص ٣٩. Vasiliev, Op. Cit.. P. 215
Ostrogorosky, Op. Cit., P.125 ويذكر الدكتور إبراهيم سلامة أن هناك مصدرًا بيزنطيًا هو موناخوس همرتولوس Monachus Hamartlus ذكر أن الجياد المتفق عليها كان مائة من الجياد الأصيلة وليس خمسين كما تذكر المصادر والمراجع الأخرى) د. إبراهيم خميس سلام: معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين، مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، المجلد (٤١) الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ٢٧١). ويذكر الباز العريني) الدولة البيزنطية، ص ١٥١) بدلاً من الخمسين أسير، خمسين عبدًا. والواقع أنهم كانوا خمسين أسيرًا لا عبدًا، فالمنطقة الإسلامية لم تكن منطقة تجمع عبيد، وإنما كانت تعج بالأسرى البيزنطيين، الذين يحتفظ بهم لمثل هذه المواقف، وفيما بعد استفيد منهم عندما ظهرت عملية فداء الأسرى أو تبادلهم بين الدولتين Camb. Med. Hist. Vol. II, P.397

(٣) أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ٩٧. سديو، خلاصة تاريخ العرب، مرجع سابق، ص ٧٨

وترتب على ذلك أن سقطت القواعد التى أقامها المسلمون فى زدوس. كما أن عددًا من الحصون والمواقع التى سيطر عليها المسلمون فى بعض جزر البحر المتوسط، أو فى آسيا الصغرى ما لبث أن عادت إلى السيطرة البيزنطية[١]. وكذلك فإن جزيرة قبرص التى مضى على الوجود الإسلامى بها ثلاثون عامًا، ما لبث يزيد – الذى خلف أباه معاوية – أن اضطر إلى سحب الحامية الإسلامية منها، تحت الضغط البيزنطى[٢].

على الرغم من أن أهم الآثار التى ترتبت على هذا الفشل، وهذه المعاهدة، أن توقف الزحف الإسلامى إلى أوربا عن طريق الشرق، مما أعطى قيمة جديدة للعاصمة البيزنطية، بأنها حامية أوروبا والسد الواقى لها من الهجمات الإسلامية[٣]. ولو أن هذا الزحف لن يلبث أن يتواصل فى بداية عهد الأسرة التالية الهرقلية، وهى الأسرة الايسورية[٤].

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II. P.397.

(٢) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٥٨. ويذكر البلاذرى رواية أخرى عن انسحاب المسلمين فى قبرص، فيروى "بلغنا أن يزيد بن معاوية رشا مالاً عظيمًا ذا قدر حتى قفل جند قبرص، فلما قفلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساجدهم" والجدير بالذكر أن انسحاب الحامية الإسلامية من قبرص لم يسقط الجزية عنها، حيث كان الاتفاق منذ البداية أن يتم اقتسام خراج قبرص بين المسلمين والبيزنطيين. انظر: البلاذرى، ص ١٥٩، وأيضًا: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.398

ويصف أرشيبالد لويس هذا الانسحاب بأنه مبالغة فى إذلال يزيد بن معاوية (المرجع السابق ص ٩٧)

(٣) Oman, The Byzantione Empire, Op. Cit., P. 171، ولم يخف ايتروجوزريكى تقديره لنجاح بيزنطة فى حمل العرب على الانسحاب بل ويروى أن قنسطنطين الرابع لم ينقذ القسطنطينية معقل النصرانية فحسب، بل أنقذ الحضارة الأوروبية من الطوفان الإسلامى والكفرة العرب على حد تعبيره، وقارن بين عمله وبين عمل ليو الثالث بعد ذلك، وانتصار شارل مارتل على العرب الأندلس فى موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م، حيث رأى أن انتصار قنسطنطين الرابع كان أهم وأبعد أثرًا. انظر: Ostrogorosky, Op. Cit., P.125

(٤) تم ذلك فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ / ٧١٥ – ٧١٧م) وقاد مسلمة بن عبد الملك – شقيق الخليفة الأموى – أساطيل وجنود المسلمين والذين حاصروا القسطنطينية لمدة عام واحد، ولكن الإمبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ – ٧٤٠م / ٩٩ – ١٢٣هـ) استطاع أن يدبر أمر الدفاع عنها، والتصدى للحملة الإسلامية، وتكبيدها أقصى الخسائر، وقد تكررت العوامل ذاتها التى أفشلت الحضارة زمن معاوية بن أبى سفيان، يضاف إليها عوامل جديدة، ليتوقف المسلمون عن مهاجمة القسطنطينية مباشر، لأكثر من سبعة قرون، حتى تمكنوا أخيرًا من إسقاطها سنة ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثمانى.

على الجانب الآخر، فإنه كان لهذه النهاية، والفشل في حصار القسطنطينية، والصلح الذي ترتب عليه، أثر الكبير على الإمبراطورية البيزنطية وعلى الإمبراطور قنسطنطين الرابع شخصيًا.

فقد حظيت الإمبراطورية بفترة سلام وهدوء، كانت في أشد الحاجة إليهما[١]. كما أعيد الاعتبار والمهابة لها لدى الأعداء المتربصين بها، أو الذين خرجوا عن سلطاتها في فترات ضعفها، كما حصل في البلقان. فقد تسابق الآفار ورؤساء القبائل الصقلبية في البلقان على إرسال السفراء والمبعوثين، وأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم للإمبراطور البيزنطي، والتمسوا إقامة علاقات مودة وسلام، معترفين بالسيادة البيزنطية[٢]. ورأت الدولة الأخرى في غرب أوروبا أن روما الجديدة لا تقل في عظمتها وأهميتها عن روما القديمة[٣].

وانعكس هذا الانتصار على شخصية الإمبراطور البيزنطي وشعبيته داخل دولته، وفي أوروبا، وفي كنيسة روما، مما ساعده على القيام بمشروعات عدة في الجانب الديني.

وعلى أرض الواقع استفادت بيزنطة من هذا الموقف، وعاودت الظهور مرة أخرى في شرق البحر المتوسط، وفي جزره، مما مكنها من استعادة مكانتها البحرية وإلى حد بعيد أجزاء من مواقعها السابقة[٤].

ووصلت نتائج فشل الحملة الإسلامية أمام القسطنطينية إلى جهات أخرى من جبهات الصراع الإسلامي البيزنطي، فخلال محاصرة القسطنطينية كانت هناك تحركات إسلامية في شمال أفريقيا، فقد واصل المسلمون غزواتهم داخل شمال

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 496.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 171; Ostrogorosky, Op. Cit., P.125; Camb. Med. Hist. Vol. II, P.398.

(٣) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٣.

(٤) لويس، القوى البحرية، ص ٩٧.

أفريقيا، حيث صمم عقبة بن نافع بعد أن تولى حكم القيروان للمرة الثانية سنة ٦٢هـ / ٦٨١م على مواصلة الجهاد. ووصل جنوده إلى مدينة باغية[١]، حيث اصطدم هناك مع الحامية البيزنطية، وحقق انتصارًا كبيرا عليها، أخضع قبائل البربر، ونشر الإسلام بينهم.

ولما كان المسلمون لا يملكون قوة بحرية هناك فإنهم تركوا المدن والحصون التى فى أيدى البيزنطيين على الساحل دون أن يتعرضوا لها. وواصل عقبة بن نافع تقدمه نحو الغرب، إلى طنجة والمحيط الأطلنطى، دون أن يلتفت إلى انتعاش قوة البيزنطيين فى البحر، نتيجة لفشل حصار القسطنطينية، مما أدى إلى نكبته، فقد ظهرت تجمعات معادية من قبائل البربر بزعامة شخص يدعى كسيلة[٢] وانضم إليه البيزنطيون المقيمون فى المعاقل الساحلية، بعد أن ضمنوا وصول المدد إليهم عن طريق البحر الأحمر، فى الوقت الذى انقطعت فيه خطوط إمداد المسلمين البعيدة، وأبيد عقبة وجيشه فى تهوذة بالجزائر، وزحف البيزنطيون فاستولوا على القيروان، ولم ينج من المسلمين إلا القليل[٣]

---

(١) ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٣٠٨. وباغية مدينة كبيرة بأفريقيا بين مجانة وقسطنطينية بالجزائر.

(٢) هو كسيلة بن كبرم البربرى كان قد أسلم لما ولى أبو المهاجر أفريقية، وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر ولكن عقبة استخف به وأهمله، وكان داخل المعسكر الإسلامى وعرف خططه، ثم انحاز إلى أهله وجماعته والروم، وانقلب على عقبة بن نافع، وقتله وحكم القيروان. ابن الأثير، الكامل، جـ ١ ص ٣٠٩.

(٣) ابن عبد الحكم، مصدر سابق، ص ١٩٨. أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٣. لويس، القوى البحرية، ص ٩٨. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب (مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة د. ت) ص ١٩٩.

الصراع البيزنطى / البلغارى:

أتاحت الهدنة التى تم توقيعها مع المسلمين الفرصة أمام الإمبراطور قنسطنطين الرابع ليتفرغ لمشكلات أخرى تحيط بالإمبراطورية. وكان أهم هذه المشكلات مشكلة البلغار، والذين بدأوا يهددون الإمبراطورية الشمالية، ويمثلون خطرا جديدًا من الأخطار التى طالما تعرضت لها الإمبراطورية.

والبلغار Bulgars هم إحدى الجماعات المتبربرة التى انثالت على الإمبراطورية منذ فترة مبكرة، ويعيد ثيوفانيس تحركهم إلى الفترة التى شهدت فيها الإمبراطورية هجمات الهون تحت قيادة أتيلا Atel[١]. وقد برزوا خلال الآفار ضد الإمبراطورية البيزنطية، وكانوا إحدى الجماعات التى انضمت إليهم خلال حصارهم للعاصمة البيزنطية سنة ٦٢٦م أثناء حكم الإمبراطور هرقل وحروبه مع الفرس وقد عقد الفرس معهم معاهدة مشتركة لمهاجمة الدولة البيزنطية، وتشديد الضغط عليها من جهة الغرب، حيث، وصلوا فى زحفهم إلى العاصمة القسطنطينية[٢].

لقد انضوى تحت لواء الآفار خليط من القبائل المتبربرة، استطاع الآفار أن يفرضوا عليهم سلطانهم، وكان البلغار أحد العناصر التركية التى انضوت تحت لواء الآفار.

وعندما استطاع البيزنطيون القضاء على حصار الآفار وانسحبوا من أمام القسطنطينية، أندلعت الثورة بين الأقوام السلاقية والتركية الخاضعة لسيطرة الآفار، ونجحوا فى التخلص من حكمهم، وكان البلغار من بين هذه القبائل الثائرة[٣].

---

(١) Theophanes. Op. Cit., P. 497.

(٢) وسام فرج، الإمبراطورية البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 498.

وقد استقر البلغار فى البداية فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين عندما كانوا يخضعون لسلطان الآفار، وبعد زوال هذا السلطان طلب قائدهم كوفرات Kuvrat من الإمبراطور هرقل تأييده، حيث رحب الإمبراطور بولائه ومنحه لقب بطريق Patticins، وتم تعميده فى القسطنطينية، وكان ذلك طريقًا لدخول البلغار إلى النصرانية بالتدريج[1] والواقع أن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترحب بمثل هذه الولاءات بين الشعوب المتبربرة التى استقرت فى أراضيها، وكانت تشجعها، وتعمل على الاستفادة منها فى تأكيد سلطتها ونفوذها، حتى وإن لم تتخذ هذه السلطة وذلك النفوذ شكلاً حقيقيًا وإنما إسميًا فقط.

ولأن منطقة البلقان كانت تموج دائمًا بالصراعات والهجرات الجديدة، فقد شهدت فترة الإمبراطور قنسطانز الثانى تحركًا جديدًا للبلغار، فقد قام أسباروخ Asbaruch ابن كوفرات بقيادة جموع البلغار غربًا، حيث انطلقوا من مناطق الاستبس المجاور لبحر آزوف Azov شمال البحر الأسود، واستقروا عند مصب نهر الدانوب ثم تحركوا جنوبًا، ليصلوا سنة ٦٧٠م / ٥٠هـ إلى نهر الدانوب[2] ويبدو أن تحركهم هذا جاء نتيجة لعاملين:

١ – للهرب من مخاطر ضغط العناصر المتبربرة الأخرى التى تقدمت غربًا بسبب هجرة الخزر[3].

٢ – رغبتهم فى السيطرة على الأراضى الزراعية جنوب غرب الدانوب، لغناها وخصوبتها[4]

---

(١) وسام فرج، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 498; Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 220.

(٣) حسين ربيع، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 125.

والواقع أن البلغار في هذه المرحلة، بدأوا في تحقيق كيان حضاري مستقل قادر على الأقل في نظر العناصر السلافية المستقرة في البلقان أن يكون بديلاً عن الإمبراطورية البيزنطية(١).

ومما زاد من مصاعب الإمبراطورية أن البلغار كانت لهم تطلعاتهم التي تفوق تطلعات تلك العناصر السلافية، التي سبق وتعاملت معها الإدارة البيزنطية. ولأن الظروف لم تكن مناسبة للتصدي للبلغار بسبب الصراع البيزنطي مع المسلمين، فقد ترك لهم المجال مؤقتًا، ولكن ما إن تم توقيع معاهدة السلام مع المسلمين، حتى بدأ الإمبراطور قنسطنطين الرابع يستعد للتعامل مع البلغار، ويعد العدة للقيام بحملة عسكرية ضدهم، بعد أن شعر بالخطر الذي تمثله تحركاتهم على الحدود الشمالية للإمبراطورية. وقرر الإمبراطور أن يكون على رأس الحملة العسكرية(٢).

وفي سنة ٦٧٩م / ٦٠هـ أبحر أسطول كبير مجتازًا البحر الأسود إلى شمال مصب نهر الدانوب، وسارت فرق من الخيالة البيزنطية من آسيا الصغرى، واجتازت تراقيا إلى الضفة الشمالية من النهر(٣). وفي مطلع عام ٦٨٠م / ٦١هـ التقى الفريقان، البيزنطيون بقيادة الإمبراطور نفسه، في محاولة لطرد البلغار، والبلغار بقيادة أسباروخ، والذين كانوا يطمحون إلى المحافظة على ما تحت أيديهم من أراضٍ.

وشعر البلغار بقوة الحملة البيزنطية وكثافتها، فبدأوا بالمراوغة وتأخير الالتحام المباشر، الذي لن يكون في مصلحتهم، واستفادوا من جغرافية المكان في عرقلة تقدم البيزنطيين حيث أعاقت المستنقعات الجيش البيزنطي في القيام بحرب ناجحة(٤).

---

(١) وسام فرج، السلاف في شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، المجلة التاريخية المصرية، العدد ٣٠ ص ١٤٩.

(٢) Theophanes, Op. Cit, P. 498.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332; Ostrogorosky, Op. Cit., P.220

(٤) حسنين ربيع، مرجع سابق، ص ٩٢.

وفى هذه اللحظات الحرجة أصيب الجيش البيزنطى بنكسة كبيرة، حين تعرض الإمبراطور لنوبة حادة من النقرس الذى كان يعانى منه [1]. وقرر ترك المعسكر البيزنطى بعد أن اصطحب معه حاشيته وخمسة من العدائين وتوجه إلى مدينة ميزيمبريا Mesambiria[2]، بعد أن زود نوابه من القادة بتعليمات أمرهم فيها بالتظاهر بالهجوم لإجبار البلغار على الخروج من معاقلهم وتحصيناتهم، وقتالهم، إذا تصادف خروجهم، وأن يستمروا فى محاصرتهم ومراقبة دفاعاتهم إن ظلوا فى معاقلهم. ولكن الخيالة البيزنطيين أساؤوا تفسير مغادرة الإمبراطور للمعسكر، حيث أشاعوا بين الجنود أن الإمبراطور قد فر من المعركة، مما أثر على روحهم المعنوية وأدى إلى انهيارها، وكانت النتيجة أن سارعوا إلى الفرار.

وعندما رأى البلغار ذلك بدأوا فى مطاردتهم، وقتلوا كثيرًا منهم، وجرحوا عددًا آخر، واستمروا فى مطاردة فلولهم حتى نهر الدانوب، حيث عبروه متجهين إلى ڤارنا Varna، التى تقع بجوار أوديسيوس، وهناك عسكر الجنود الفارين حيث شعروا بالأمان، لأن هذا المكان كان محروسًا من الخلف بنهر الدانوب ومن الجوانب بممرات جبلية تؤدى إلى البحر الأسود.

ونتيجة لهذه الهزيمة الفادحة اضطر الإمبراطور قنسطنطين الرابع لتوقيع معاهدة سلام مع البلغار، وهى المعاهدة التى جعلت البيزنطيين يشعرون بالخجل والمهانة[3]

نصت معاهدة السلام التى وقعها الإمبراطور قنسطنطين الرابع سنة ٦٨١م / ٦٢هـ على أن يقوم البيزنطيون بدفع إتاوة سنوية للبلغار، وأن تترك لهم الأقاليم الواقعة بين الدانوب وجبال البلقان، وهى المعروفة قديمًا باسم مؤيسيًا وسيزيا

---

(١) وسام فرج، السلاف فى شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٤٩. رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) Op. Cit, P. 499.

(٣) Theophanes, Ibid

الصغرى[١]. وأن يبقى مصب نهر الدانوب، وجزءًا من شاطئ البحر الأسود فـي أيديهم، حيث أقاموا لهم دولة، شكلت خطرًا كبيرًا على الإمبراطوريـة البيزنطيـة طوال سنوات عديدة[٢].

لقد كانت هذه الهزيمة التي تعرض لها الإمبراطور الشاب، والإمبراطوريـة المنتشية بانتصارها الذى حققته على المسلمين، هزيمة فادحة ومكلفة كثيـرًا، فقـد أصبح هناك دولة مستقلة باعتراف الإدارة البيزنطية، إذا أنه لأول مرة فى تـاريخ الإمبراطورية تضطر الإدارة البيزنطية إلى التنازل رسميًا عن سيادتها على جـزء هام من شبه جزيرة البلقان، ولم يسبق أن سجلت هذه الإدارة تنازلاً رسميًا عن أى منطقة خسرتها فى أى من حروبها، بل وتحصل هذه الدولة على إتاوة سنوية مـن الخزينة الإمبراطورية، وتأكد خطر هذه الدولة وحجم تلك الكارثة، عنـدما بـدأت التوسع على حساب القوميات الأخرى السلافية التى كانت تقطن فى منطقة البلقان، وتقوى بهم ويزداد نفوذها وخطرها على الإمبراطورية البيزنطية، مما مثل خطـرًا وتهديدًا متزايدًا للسلام الرومانى الذى كانـت تمثلـه الإمبراطوريـة البيزنطيـة، وتحرص عليه فى هذه المنطقة[٣].

شعر الإمبراطور قنسطنطين الرابع بفداحة هذه الهزيمة رغم الإعداد الجيـد لها حيث كان قد حشد لها جميع جند الثيمات[٤]، الذين عبروا تراقيا للقضاء علـى البلغار، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، واستطاع البلغار أن يؤكدوا سـيطرتهم على القبائل السلافية السبع التى كانت تستقر فى المنطقـة، إضـافة إلـى قبائـل السيفرين Severi، وأن يستثمروا هذا التحالف فى الوصول إلى دولة مـستقلة عـن الإمبراطورية البيزنطية.

---

(١) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٥٣. وتعرف هذه المنطقة حاليًا باسم ديبوجا Debrudja.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 127.

(٣) هسى، مرجع سابق، ص ١٢٦. محمد مرسى الشيخ، مرجع سـابق، ص ١٠١. الناصـرى، الـروم، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٤) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٨٣.

وكان من آثار هذه الهزيمة أيضًا أن سعت قوميات سلافية أخرى، للاستقلال عن الدولة البيزنطية، بعد أن شجعها انتصار البلغار وحصولهم على تنازل رسمى من الإمبراطورية البيزنطية. ومن هذه القوميات الصرب Cerbs والكروات Croat، الذين سبق وأن استقروا بموافقة من الإدارة البيزنطية.

واعتنقت هذه الجماعات النصرانية على يد بعثات تبشيرية جاءت إليهم من روما بناء على أوامر من الإمبراطور البيزنطى[١].

لقد استفاد الصرب والكروات من الصراع البيزنطى / البلغارى، فاستطاعوا تكوين دويلات شبه مستقلة تمكنت بالتدريج من أن تسيطر على قرارها بعيدًا عن تحكم الدولة البيزنطية وسيطرتها[٢]

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 105.

(٢) عادل حمزة، الصرب بين البيزنطيين والبلغار، (مجلة المؤرخ العربى، العدد ، المجلد الأول، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٩٧م)، ص ٣٤٣.

الإصلاحات الدينية:

عاد الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى عاصمته، ليفكر فى مشروع جديد، وهو التصدى لإصلاح الأوضاع الدينية فى إمبراطوريته، ومحاولة رأب الصدع والخلاف الدينى، الذى تخلف عن قرارت والده قنسطانز الثانى مع كنيسة روما.

والمعروف أن أباطرة الأسرة الهرقلية ابتداءًا من هرقل وابنه هرقليوناس وحفيده قنسطانز الثانى، قد تصدروا للمشكلة الدينية، وعمل كل منهم من جانبه على عقد المجالس والمجامع الدينية وإصدار القرارات التى يعتقد أن فيها الحل لتهدئة الصراع والخلاف حول المسألة الدينية فى أرجاء الإمبراطورية.

ولما جاء الإمبراطور قنسطنين الرابع للحكم فى بيزنطة كانت الأوضاع الدينية متأزمة والمشكلات حولها بين الشرق والغرب محتدمة، خاصة بعد القرار الذى أصدره والده قنسطانز الثانى والذى عرف بـ "التيبوس"[1] وكان هذا القرار أو التوجه بدلاً من أن يطفئ المشكلات الدينية ويضع حدًا للجدل حولها قد زاد الأمور تعقيدًا والصراع احتدامًا، خاصة بعد تطرف الإمبراطور قنسطانز الثانى فى التعامل مع البابا مارتين الأول الذى دفع حياته ثمنًا لموقفه من قرار الإمبراطور، وغيره من رجال كنيسة روما.وكانت محاولات الإمبراطور قنسطانز الثانى فى استرضاء نصارى الجزء الشرقى السابق من الإمبراطورية (الشام وفلسطين ومصر) اعتقادًا منه أن هذا الاسترضاء سيكون سبيلاً لعودة تلك المناطق إلى سيادة الإمبراطورية هو الذى دفعه لمحاولة التوفيق بين المذهبين الدينيين المونوفيزتية والمونولستية، فكان قراره أو برنامجه الذى عرف بـ "التيبوس"، ولكن الغريب أن القرار لم ينل رضا أتباع أى من المذهبين وإنما سخطهم، ونقمتهم على الإمبراطور قنسطانز وموقفه الدينى.

---

(١) انظر الفصل السابق، ص (٩٨) حول المسائل الدينية فى عهد قنسطانز الثانى.

ولما وصل الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى العرش وتأكد انسلاخ ولايات الشرق (مصر وفلسطين والشام وأرمينيا)، وفشل الإدارات البيزنطية المتتالية في استعادة هذه الأراضي، وتركيز الوجود الإسلامي فيها، واستحالة خروجهم منها، وابتعادها عن سلطة وسيطرة الإدارة البيزنطية، وتبعيتهم للدولة الإسلامية [١]، وجد أنه لم يعد من الضروري أخذ توجههم الديني في الحسبان، أو في تقرير السياسة الإمبراطورية التي يحكمها أو يمتد إليها نفوذه، فقد بدأت سياسته تتبلور في هذا الاتجاه.

فكان أهم توجهاته محاولة استرضاء الغرب واستعادة العلاقات والتواصل معه، من خلال حل المشكلة الدينية العالقة بينهما، خاصة وأن أجزاء كثيرة من أملاك الإمبراطورية وولايتها، تقع في هذا الجزء، والأهم من كل ذلك أن الأباطرة البيزنطيين – حتى هذه الفترة – كانوا لا يزالون يعتبرون الجزء الغربي، جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية.

كما أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع هدف من وراء ذلك إلى تدعيم إمبراطوريته[٢]، والمحافظة على أجزائها فحدث أن شتتها، وانتقصت منها التطورات الأخيرة.

وبدأ الإمبراطور برنامجه بأن أجرى تعديلات في كنيسة القسطنطينية، تم بموجبها عزل بطريك القسطنطينية ثيودوروس الأول Theodourus (٦٧٧ – ٦٧٩م / ٥٨ – ٦٠هـ) والذي كان مقربًا منه[٣]

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225
أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٥٨. الناصري، مرجع سابق، ص ٢٣٣.
(٢) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٣) أسد رستم، الروم جـ١، ص ٢٥٨.

وكان البطريق المعزول قد اتخذ موقفًا استاء منه بابا روما، حيث طالب بحذف اسم الباب فيتاليان من الدبتيخة[١]، والذى يعنى عدم اعترافه ببابويته، مما كان كفيلاً بتجدد الصراع بين الكنيستين[٢]

وكذلك قام الإمبراطور فى سبيل إنجاح مشروعه ولفت انتباه بابا روما، بإعطاء البابا سلطة على بطريركية رافنا[٣]، بعد أن كانت خاضعة بالكامل لسلطة كنيسة القسطنطينية. كما صرح بأن موافقة النائب الإمبراطورى (Exarch) فى رافنا كافية للموافقة على انتخاب بابا جديد، بعد أن كانت من اختصاصات الإمبراطور[٤].

وبعد أن أجرى الإمبراطور كل الاستعدادات التى تصور أنها ستساعد فى تسهيل مهمته لحل الخلاف الدينى بين الشرق والغرب ووضع حد للصراع المذهبى، بين قطبى النصرانية، أعلن عن رغبته فى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية، وأنه سيكون برعايته الشخصية، وأرسل دعوة إلى بابا روما، حيث وصلت الدعوة إلى البابا أجاثيوس Agathius، الذى كان قد تسلم كرسى البابوية خلفًا لدونوس Donus. وطالبت رسالة الإمبراطور البابا بأنه يرسل اثنى عشر أسقفًا إيطاليا إلى مؤتمر ينظر فى الخلاف القائم فى العقيدة[٥]. كما كتب الإمبراطور خطابًا إلى أرخون رافنا، يأمره بتسهيل سفر هؤلاء الأساقفة وإبحارهم إلى القسطنطينية[٦]. ويقدم

---

(١) Diptych، وهى لوحة رسم أو نقر ذات طيتين بينهما رابط، وكانت السجل الرسمى لكنيسة القسطنطينية، وتسجل فيها أسماء البابوات والبطاركة الذين يتم الاعتراف بهم من قبل كنيسة القسطنطينية، رانسيمان، مرجع سابق، ص ٤٠٠، ويعتبرها تيموثى وير بأنها عبارة عن لوائح يحتفظ بها كل بطريك وقد سجلت عليها أسماء البطاركة الآخرين الأحياء منهم والأموات، تيموثى، الكنيسة الأرثوذكسية فى الماضى والحاضر، ترجمة هاشم الحسينى، (دار النور، بيروت، ١٩٨٢م)، ص ٨٠.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، جـ ٢، ص ٤٦. ويرجع أسد رستم ذلك إلى أن ثيودوروس كان ضعيف الرأى، شديد الاصغاء إلى زميله مكاريوس بطريك أنطاكية الذى كان يقيم فى القسطنطينية.

(٣) أسد رستم، الروم جـ ١، ص ٢٥٨.

(٤) رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٤٠.

(٥) أسد رستم، كنيسة انطاكية، جـ ٢، ص ٤٧.

(٦) Oman. Op. Cit., P. 172.

الدكتور أسد رستم في كتابه "كنيسة مدينة أنطاكية العظمى" وغيره من الكتب التي تناولت تفاصيل الخلاف الديني بين الكنيستين(١)، تفاصيل كثيرة عن هذا المجمع الديني الذي دعا إليه الإمبراطور، والذي سيعرف بالمجمع السادس.

جاء رد بابوية روما، بأن أرسلت وفدًا إلى القسطنطينية مؤلفًا من ثلاثة أساقفة وقسيسين وشماس وإيبوذياكون Epithiacon (أحد أعضاء الكنيسة)، وحمل الوفد رسالة من البابا أجاثيوس إلى الإمبراطور، تهرف بالوفد، وباستعداد أعضائه لتأييد قرارات المجامع المسكونية، وحمل الوفد بيانًا بالإيمان موقعًا من الباب ومئة وخمسة وعشرين أسقفًا غربيًا يؤكدون فيه نبذ التعليم بالمشيئة الواحدة(٢) وطلب الإمبراطور بعد أن استقبل الوفد البابوي إلى كل من البطريرك جاورجيوس بطريك القسطنطينية، ومكاريوس بطريرك أنطاكية (الذي كان يقيم في العاصمة) دعوة الأساقفة الخاضعين لسلطتهما إلى القسطنطينية للاجتماع بزملائهم الغربيين. فلبى الدعوة أولاً ثلاثة وأربعون أسقفًا، ثم تكاثروا حتى أصبح مجموعهم مئة وأربعة وسبعين(٣). ومثل كنيسة الإسكندرية القس بطرس وكنيسة القدس جاورجيوس، وبدأت أعمال المجمع في السابع من نوفمبر سنة ٦٧٠م، وانتهت في السادس عشر من ديسمبر سنة ٦٨١م(٤) وبلغ عدد الجلسات الرسمية ثماني عشرة جلسة، وقد رأس الإمبراطور الإحدى عشرة جلسة الأولى، وهي الأهم، كما حضر الجلسة الختامية، حيث تولى إدارة الجلسات والنقاش(٥).

---

(١) من هذه الكتب: حرب الكنائس، ط ٢ (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩١، نحن ورومة والاتيكان،. ط ٢ (المكتبة البولسية، بيروت ١٩٩١) وغيرها.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية جـ ٢، ص ٤٧.

(٣) يذكر ثيوفانيس أن حضور المجمع كانوا (٢٨٩) أسقفًا ديـن. Theophanes, Op. Cit., P.501. ويذكر المنبجي أن عددهم كان مائة وتسعة وثمانون أسقفًا (المنبجي، مصدر سابق، ص ٧٤)

(٤) الغريب أن ثيوفانيس يدرج أحداث المجمع في حوليته تحت سنة ٦٧٨م،، وهذا خطأ ويخالف المصادر والمراجع الأخرى، وهو ما يستدركه عليه مترجمًا حوليته حيث يذكر أن التاريخ المدون أعلاه، ويذكر أيضًا أنه تم في السنة الثانية عشر من حكم قسطنطين، انظر Theophanes, Op. Cit., P. 501، والهامش رقم (٣) في الصفحة ٥٠٢، ويبدو أن ثيوفانيس اعتبر بداية تحركات الإمبراطور وتفكيره في عقد المجمع منذ سنة ٦٧٨م، هي انعقاد للمجمع.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.II, p. 225.

وعقد المجمع جلسته فى قاعة القبة Trullo، وجلس الإمبراطور قسطنطين الرابع فى حفل الافتتاح فى صدر المجلس وعن جانبه قضاة الدولة، ثم جلس عن يساره وفد البابا ونائب بطريك القدس، وجلس عن يمينه جاورجيوس بطريك القسطنطينية ثم مكاريوس بطريك أنطاكية، ثم نائب الإسكندرية، فسائر الأساقفة بعضهم عن اليمين وبعضهم عن اليسار، وجعل الإنجيل فى الوسط.

وطلب نواب البابا فى الجلسة الأولى إلى إكليروس (رجال الدين) القسطنطينية أن يشرحوا القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة، وطلب الإمبراطور إلى البطريكين جاورجيوس ومكاريوس أن يجيبا. فقال بطريك أنطاكية: إنه موجود فى مجامع أشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية، ومعتقدات كيروس الإسكندرى وأونوريوس بابا روما. فطلب المجتمعون البيِّنة على ذلك. فأحضرت أعمال المجامع وقرئت فى الجلسات الأربع التالية.

وتبين أن الرسالة التى نسبها سرجيوس بطريك القسطنطينية إلى سلفه فى الكرسى هيتاس لم تتفق فى الخط والترقيم وما بعدها من أعمال المجمع الخامس. ولدى التفتيش فى مخطوطات بطريركية القسطنطينية وجدت نسخة أخرى من أعمال هذا المجمع نفسه وتبين أنها خالية من نص الرسالة موضوع البحث.

وفى الجلستين الخامسة والسادسة فى السابع من ديسمبر سنة ٦٨٠م، والثانى عشر من فبراير سنة ٦٨١م، قدم مكاريوس البطريرك الأنطاكى ثلاثة مجلدات ضمنها نصوصًا ادعى أنها تؤيد القول بالمشيئة الواحدة. وفى الجلسة السابعة فى الثالث عشر من فبراير قدم الوفد البابوى مقتطفات من أقوال الآباء فى تأييد القول بالمشيئتين.

وفى الجلسة الثامنة فى السابع من مارس سنة ٦٨١م طلب الإمبراطور إلى البطريركين جاورجيوس ومكاريوس أن يبديا رأيهما فى بيان البابا أجاثيوس، فعاد جاورجيوس إلى نصوص الآباء ودرسها على ضوء ما جاء فى بيان زميله

الرومانى، فتبين له وجه الصواب وقال بالمشيئتين، ووافقه فى ذلك جميع الأساقفة الخاضعين لسلطته. ثم مكاريوس والأساقفة الأنطاكيون عن رأيهم، فوافق هؤلاء الأساقفة على القول بالمشيئتين، ولكن مكاريوس أبى مقررًا أن القول بالمشيئتين يعرضهما إلى الاختلاف والتناقض، فأعاد الإمبراطور الطلب، فأنكر البطريرك – مفضلاً الموت مقطعًا – على القول بالفعلين والمشيئتين.

وانصرف المجتمعون فى الجلسة التاسعة إلى التدقيق فى المجلدات الثلاثة التى وضعها مكاريوس لتأييد القول بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة. وقابلوا بعض ما أخذه عن السابقين فظهر التبديل والتحريف. فاقترح المجتمعون قطع مكاريوس وتلميذه اسطفانوس، وخصصت الجلسة العاشرة للتدقيق فى ماقدمه الوفد البابوى ومقابلته بالأصول.

والتأم الجمع للمرة الحادية عشر والثانية عشر فى العشرين والثانى والعشرين من مارس لدرس جميع ما صنف مكاريوس، فتليت جميعها، وسئل مكاريوس عنها فاعترف بصحة نسبتها إليه. فسأل القضاة المجمع ماذا يكون مصير مكاريوس بعد الندامة والتوبة وهل يظل بطريركًا على أنطاكية، فلم يرض الأعضاء المجتمعون، خلع مكاريوس، وأعلن ثيوفانيس(١) خلفا له.

وفى الجلسة الثالثة عشر حكم بالحرمان والقطع على سرجيوس وبيروس وبطرس بطاركة القسطنطينية، وعلى كيروس بطريرك الإسكندرية وعلى أونوريوس بابا روما، وثيوذوروس أسقف فارانة(٢).

---

(١) بالطبع هو غير ثيوفانيس المؤرخ الرئيسى لهذه الفترة، والذى اعتمدنا على حوليته كثيرًا فى هذا البحث، فيثوفانيس المؤرخ والذى كان راهبًا أيضًا توفى سنة ٨١٨م.

(٢) سرجيوس هو بطريريك القسطنطينية فى عهد هرقل، وبيروس هو بطريرك القسطنطينية فى عهد هرقليزناس ومارتينا، وكيروس هو المقوقس بطريرك الإسكندرية وحاكمها فى عهد هرقل وهرقليوناس ومارتينا، وأنوريوس الأول هو بابا روما للفترة (٦٢٥ – ٦٣٨م) وقد وافق على قرارات هرقل الدينية، انظر الفصول السابقة لمعرفة مواقف هذه الشخصيات الدينية، والتى بسببها استحقوا قرار الحرمان من هذا المجمع.

وفى الجلسة السابعة عشر صدق المجمع أعماله السابقة، وحرم المعتقدين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد، وفى الجلسة الثامنة عشر وهى الأخيرة والتى انعقدت فى السادس عشر من سبتمبر ٦٨١ م / محرم ٦٢ هـ أعلنت قرارات المجمع واعترف بمشيئتين وفعلين طبيعيين للمسيح بلا انقسام ولا تجزؤ ولا تضاد[١]. واختتم المجمع بالدعاء بالسنين الكثيرة لأجاثيوس بابا روما سنة ٦٨١م إلا أنه مات قبل أن تصله قرارات المجمع ودعائه – وجاورجيوس بطريرك القسطنطينية، وثيوفانيس – الذى تم إقراره بطريركًا على أنطاكية – ولكل المجتمعين. كما اختتم المجمع بالهتاف للإمبراطور قنسطنطين الرابع "تصير الأرثوذكسية، وعمود الكنيسة وحارس الإيمان"[٢] وبالغوا فى تقدير الإمبراطور حتى أنهم اعتبروه محطمًا للهراطقة[٣]

وأقر الإمبراطور جميع أعمال المجمع وأوجب القول والعمل بها، بمرسومين إمبراطوريين الأول صدر بتاريخ السادس عشر من سبتمبر ٦٨١م، والثانى بتاريخ الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ٦٨١ م[٤]

ولقيت هذه القرارات موافقة جميع النصارى ما عدا المكانيين (اليعاقبة)، الذين رفضوا هذا التوجه، وأظهروا الاشمئزاز منه، واتهموا قنسطنطين الرابع بالخيانة، وادعوا أنه باع ضميره لقاء مئة وسبعين قنطارًا من الذهب دفعها إليه بابا روما[٥]

---

(١) حاشى لله من كان يزعمون، فعيسى صلى الله عليه وسلم بشر ورسول كريم، وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله: (وإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) "المائدة من ١١٥ – ١١٨"

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، جـ ٢، ص ٤٧ – ٥٠، نحن وروما والفاتيكان، ص ٢٤.

(٣) Theophanes. Op. Cit. P. 500

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II. P 404

(٥) أسد رستم، كنيسة أنطاقية، جـ ٢، ص ٥٦.

كانت النتائج المباشرة لهذا المجمع وللقرارات التى تم التوصل إليهـا هـو عودة السلام والوئام مع الغـرب وبالـذات مـع كنيـسة رومـا، حيـث نعمـت الإمبراطورية بسلام دينى، قضى على ذلك الاختلاف والتناحر الذى كان سائدًا، فقد غسلت القسطنطينية يدها مـن المونوفيزتيـة، والمونوثلـستية، وتوجهـت إلـى الأرثوذكسية، وبعد أن شعرت أنه لا جدوى أو فائدة من أخذ أولئك النصارى الذين أصبحوا تحت السيادة الإسلامية بعين الاعتبار فى قرارها الدينى، وأن الأفضل أن تؤكد ارتباطها بالغرب وأهله وكنيسته. كما أن هذا القرار أفادها فى كـسب تأييـد بعض النصارى الذين كانوا خاضعين لسلطة الدولة الإسـلامية، إلا أنهـم كـانوا معارضيين أشد المعارضة للمونوفيزتية، مما قوى نفوذ بيزنطة على تلك الطائفة فى الدولة الأموية[١]

فى الوقت الذى عمل فيه هذا القرار على زيادة الترابط والتعاون بين البعض الآخر من نصارى مصر والشام والدولة الإسلامية، حيث اندفع عدد كبيـر مـنهم للعمل فى الأساطيل الإسلامية للقضاء على هذه الإمبراطوريـة المهرطقـة فـى نظـرهم[٢]

لقد شعر الإمبراطور قنسطنطين الرابع أن تفاهمه مع روما، وتحسين العلاقة معها هو أجدى للإمبراطورية من محاولة استرضاء أو تسوية النزاع الـدينى فـى أقاليم لم تعد تابعة لها[٣] ولا شك أن هذه القرارات التى توصل لهـا الإمبراطـور قنسطنطين قد ساعدت على تحسين صورته ومركـز الإمبراطوريـة فـى نظـر الأكثرية النصرانية، وبالذات تلك التى ما زالت تحت السلطة البيزنطية فى الغـرب وفى شمال أفريقيا، فقد كان البربر من المخالفين لعقيدة بيزنطة الدينية ويـضمرون

---

(١) المنجى، مصدر سابق، ص ٧٤. أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) الناصرى، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٣) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٥٤. ويلحظ أيضًا أن كنائس الشرق لـم يـشارك بطاركتها فى المجمع، وإنما شاركت بنواب عنهم أو ممثلين لهم. انظر: حسين ربيع، مرجع سابق، ص ٩٤.

لها الكراهية والبغضاء، ويتمنون زوال سيادتها عنهم. ولكن هذا التحول العقائدى، ساعد على تهدئة البربر، وعودتهم إلى حظيرة الدولة البيزنطية، وجعلهم يتعاونون مع قواتها فى صراعها ضد المسلمين، ويحققون مجتمعين عدة انتصارات على المسلمين فى شمال أفريقيا(١).

لقد مثل هذا المجتمع الدينى، وكان ثالث المجامع الدينية التى عُقدت فى العاصمة البيزنطية(٢)، أهمية كبيرة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، والولايات التابعة لها، وفى تاريخ الإمبراطور قنسطنطين الرابع شخصيًا، فبالنسبة للإمبراطورية البيزنطية أعطاها فترة سلام دينى مع ولايتها ومع الغرب الأوروبى، وأما بالنسبة للإمبراطور البيزنطى فقد أضيف هذا المكسب الهام إلى انتصاره على المسلمين، حتى أن المجتمعين فى هذا المجمع دعوه بجستنيان الجديد، ومحطم المهرطقين(٣) وهذا أطلق يده فى القسطنطينية ومختلف ولايات الإمبراطورية، وأعطاه شعبية كبيرة، ومكانة على المستوى الشعبى والدينى. وجعله يصدر عملة جديدة عليها صورته، وصورة أخويه اللذين كانا يشاركانه الحكم(٤). كما قرر إنشاء ثيم جديد فى ثغرتراقيا (Thrace) لمنع خطر البلغار الذين فشل فى التصدى لهم، واضطر إلى مسالمتهم(٥)، وتمتعت الإمبراطورية البيزنطية فى عهده بمركز قوى، زاده بروزًا تلك الخلافات والصراعات التى دخلتها الدولة الأموية فى أعقاب موت معاوية بن أبى سفيان.

---

(١) العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٤٠.

(٢) عقد المجمع الأول فى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول سنة ٣٨١ م، والثانى فى عهد ثيودسيوس الثانى سنة ٤٤٨ م، والثالث فى عهد قنسطنطين الرابع سنة ٦٨٠ م، أما المجامع الأخرى فقد عقدت خارج القسطنطينية مثل نيقيه وخلقيدونيه وغيرهما.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.228.

(٤) Holdon, Op. Cit., P. 103.

(٥) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٦١.

مشكلة ولاية العهد ونهاية حكم قنسطنطين الرابع:

يبدو أن المكانة التى تمتع بها الإمبراطور قنسطنطين الرابع، جعلته يفكر في إجراء تغيير في ولاية العهد، فقد ورث العرش على أن يكون أخويه الصغيرين هرقل Herakleios وتيبريوس Tiberius، شريكاه في الحكم ووريثاه من بعده، وقد تم تتوجيهما في حياة أبيهما قنسطانز الثاني، وقبل أن يغادر القسطنطينية إلى صقلية، ولكن قنسطنطين الرابع أراد أن يكرر ما فعله أبوه مع أخيه ثيودسيوس حتى ينفرد بالعرش، ثم ينفرد ابنه من بعده بوراثته[١].

أراد قنسطنطين الرابع من هذا التصرف الذى كاد أن يحدث شرخًا في الأسرة الإمبراطورية الحاكمة، أن تكون له السيطرة كاملة وغير منقوصة، وأن تكون له الحرية في تولية العرش من يشاء، دون إملاءات سابقة [٢]، والواقع أن قنسطنطين الرابع لم يكن نشازًا في ذلك، وإنما درج على العرف الذى كان متوارثًا في أسرة هرقل، والذى سيصبح بعد ذلك قاعدة مطبقة اكتسب الثبات والاستمرارية.

عندما بلغ ابنه جستنيان الثانية عشر من عمره، قام قنسطنطين سنة ٦٨١م/٦٢ هـ، بحرمان أخويه من لقبهما الإمبراطورى، وعين ابنه وليا للعهد ووريثًا للعرش[٣]

ولم يمر تصرف الإمبراطور قنسطنطين الرابع دون معارضة، فقد اعترض رجال السناتو، ورجال الجيش، على هذا التغيير، بل وذهب عساكر ثغر الأناتوليك (الناطليق) في معارضتهم بعيدًا حين أعلنوا التمرد على الإمبراطور، واحتجوا على

---

(١) Brooks, The Brother of Emperor Constantion IV, English Historical Review, 30 (1915) P. 43

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II. P.405.

(٣) Theophanes, Op. Cit.. P. 502.

تصرفه[1]. وأكسب هؤلاء المتمردين معارضتهم صبغة دينية، حين قالوا إننا نؤمن بالتثليث، ونرغب أن يشمل التثليث أيضًا الحكام[2] ! ولكن الإمبراطور قنسطنطين الرابع لم يعر أى اهتمام لمعارضة مجلس السناتو، فقد سبق للمجلس أن فقد فعاليته ودوره فى أواخر عهد قنسطانز الثانى، بعد أن اكتمل نضجه، وزاد انحسار هذا الدور فى عهد قنسطنطين الرابع الذى أعانته إنتصاراته العسكرية على تحقيق مكانة كبيرة بعيدًا عن سيطرة رجال السناتو [3]. وكذلك أضمر الشر لزعماء ثغر الأناتوليك الذين تزعموا هذه المعارضة. وحتى يقضى على هذه المعارضة قام فى ذلك العام بجدع أنفى شقيقيه هرقل وتيبريوس، حتى يصبحا غير صالحين للمطالبة بالعرش، وكذلك أمر بإعدام زعماء ثغر الأناثوليك الذين تزعموا المعارضة [4].

ولكن ما هو موقف رجال الدين من هذا التغيير؟! ينفرد المؤرخ أجابيوس المنبجى بذكر رواية تلقى الضوء على الموقف فيذكر "أن قنسطنطين عزل أخويه عن الملك وانفرد هو به، ورخص له بطارقة الروم فى ذلك لأنه أرضاهم، سوى بطريق واحد منهم يقال له "لاون" فإنه لم يرخص له فى ذلك ولا رضى به. وقال: إنه لا يحل أن تعزل قومًا ملكوا علينا طوال هذا الزمان. فأمر قنسطنطين أن يقطع لسانه ويداه ورجلاه، وأن ينفى أخوته إلى جزيرة من جزائر البحر [5]"

إلا أن الجدير بالملاحظة هنا أن الخطوات التى أقدم عليها الإمبراطور قنسطنطين الرابع سيكون لها آثار بعيدة المدى فى تثبيت نظام وراثة العرش فى الدولة البيزنطية، حيث استقر مبدأ جعل السيادة لإمبراطور واحد، وقصر ولاية العرش على الابن الأكبر لهذا الإمبراطور [6].

---

(١) الناصرى، الروم، ص ٢٣١. أسد رستم، الروم، ص ٢٦١.
(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 491.
(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129.
(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406; Oman, Op. Cit., P. 172
(٥) المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٤.
(٦) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129; Brooks, Op. Cit., P. 49.

وسيكون لهذا الجانب أثره فى مستقبل الإمبراطورية وفى رسوخ نظام الحكم فيها حيث ستتخلص من إحدى أهم الأزمات التى كانت تواجهها عادة عند انتقال الحكم، بل إن هذا العامل سيكون أحد أهم أسباب بقاء واستمرار الإمبراطورية فترة أطول من الزمن[1].

ولا شك أن الإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع – وبالتحديد فى النصف الثانى منه قد شهدت تحولات وتطورات كثيرة على مختلف الصعد، سواء فى سياستها الداخلية وفى شؤونها العسكرية أو الدينية، خاصة وأن الإمبراطور قنسطنطين الرابع استطاع أن يضع حدًا للهزائم المتوالية التى كانت تتلقاها من جارتها الدول الإسلامية، وأن يحصل على معاهدة سلام مكنته من أن ينعم بفترة هدوء طويلة ساعدته على أن ينطلق بقوة لتحقيق إصلاحاته المختلفة داخل الإمبراطورية، وأن يعمل على رأب صدعها، والتصدى لأهم المشكلات التى كانت تعصف بها، وهى المشكلة الدينية والخلافات المذهبية داخل الإمبراطورية ومع الغرب الأوروبى، وأن يعمل على تدعيم عرشه والانفراد بالسلطة فى الإمبراطورية، وأن يعيد الجهاز الإدارى والعسكرى.

لقد كان من أهم التحديات التى تصدى لها الإمبراطور قنسطنطين الرابع هو وقف الهجمات الإسلامية على الأراضى البيزنطية، وهى هجمات مريرة استطاعت فى فترة حكم هرقل وقنسطانز أن تنتشر بسرعة كبيرة، وأن تحقق انتصارات واسعة أدت إلى ضياع ولايات عديدة، وأرض شاسعة من أراضى الإمبراطورية، بل وربما كانت أهم أراضى الإمبراطورية وأكثرها تحضرًا وإنتاجية، فخلال سنوات قليلة استطاعت الدولة الإسلامية أن تستحوذ على مصر وبلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى، وشمال أفريقيا، مما ترك أثره البالغ على الإمبراطورية اقتصاديًا واجتماعيًا ودينيًا. وكان يمكن لتلك الهجمات أن تتسع وأن يتعاظم تأثيرها وخطرها، لولا تمكن الإمبراطور قنسطنطين الرابع من التصدى لها، وقفها،

---

(١) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الإسلام والدولة البيزنطية (مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٤م) ص ٣٠.

والاستفادة من الاضطرابات التى سادت الدولة الإسلامية فى تحقيق مكاسب لدولته وإمبراطوريته، كان أقلها تلك الفترة من الهدوء التى شـــهدتها الجبهـــة الحربيـــة، واستغلال بيزنطة لها فى فرض شروطها والحصول على مكاسب مادية منها.

لقد تصرف الإمبراطور قنسطنطين الرابع بحكمة ودهاء حين شعر باستحالة استعادة الأجزاء الضائعة من الإمبراطورية فى مصر والشام وفلسطين، فأخذ يعمل على تدارك الأمر، والمحافظة على ما بقى تحت سلطته وإدارته من أراضٍ، يعيـــد رسم سياسته للمحافظة على الولايات الغربية، بعد أن أفلتت مـــن يديـــه الولايـــات الشرقية، فنفض يده ويد دولته من مشكلات تلك الولايات وتوجهاتها الدينيـــة لكـــى يستطيع الاحتفاظ بولاء الولايات الغربية من الإمبراطورية، ويعمل علـــى تحـــسين العلاقة معها. وهى سياسات أثبتت جدواها وفاعليتها فى تلك المرحلة مـــن تـــاريخ الإمبراطورية.

وبعد فترة حكم استمرت سبعة عشر عامًا(١)، توفى الإمبراطور قنـــسطنطين الرابع وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره متأثرًا بإصـــابته بمـــرض الزحـــار(٢). وكانت وفاته فى سبتمبر ٦٨٥م / صفر ٦٦ هـ (٣).

والواقع أن وفاة الإمبراطور قنسطنطين فى مرحلة مبكرة من حياته جـــاءت نتيجة للأمراض التى يعانى منها، وإذا كان توليه العرش جاء مبكرًا، فـــإن وفاتـــه أيضًا كانت مبكرة. وترك الإمبراطور قنسطنطين الإمبراطورية وهى فى أوضـــاع شبه مستقرة سياسيًا واجتماعيًا وداخليًا، فبمجرد وفاته أعلـــن ابنـــه وولـــى عهـــده جستنيان – الذى أمن له العرش قبل وفاته – إمبراطورًا، وكان فى السادسة عشر مـــن عمره وهى سن يقترب من السن الذى تولى فيها والده مقاليد الأمور فى القسطنطينية.

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 504.

(٢) أسد رستم، الروم جـ ٢، ص ٢٦٤.

(٣) هناك خلاف حول الشهر الذى توفى فيه الإمبراطور قنسطنطين فبعضهم يذكر سبتمبر ويقول فى أوائل سبتمبر، وبعضهم يحدد اليوم الثالث منه، وهناك من يذكر أنه فى العاشر من يوليو، إلا معظم المصادر والمراجع تذكر التاريخ الذى سجل فى المتن.
انظر: Theophanes, P. 505, note.

الفصل الخامس

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم
جستنيان الثانى

(٦٨٥ – ٧١١ م / ٦٥ – ٩٣ هـ)

- تجديد المعاهدة مع المسلمين.
- السياسة الداخلية والخارجية للدولة فى عهد جستنيان الثانى.
- الأوضاع الدينية فى عهد جستنيان الثانى.
- العلاقات الاقتصادية بين الدولتين.
- الثورة على جستنيان الثانى ونفيه.
- الإمبراطورية البيزنطية فى فترة مغتصبى العرش.
- .عودة جستنيان الثانى إلى العرش البيزنطى.

تولى جستنيان – والذى سيعرف بالثانى – عرش الإمبراطورية دون أيه مشكلات أو اعتراضات، فقد وطد له والده قنسطنطين الرابع الأمر، منذ أن استبعد أخويه الصغيرين اللذين كانا معلنين كورثة للعرش، حتى أنه ظهر اسمهما إلى جانبه فى أول عملة فضية سكت فى عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع(١)، حيث حسم الأمر لصالح ابنه، مما أوجد قاعدة أصبحت راسخة فيما بعد، لتصبح وراثة العرش من نصيب الابن الأكبر للإمبراطور.

اعتلى جنستيان الثانى العرش فى سبتمبر ٦٨٥م / صفر ٦٥ هـ وهو لم يتجاوز السادسة عشر من عمره(٢).

واختلفت وجهات نظر المؤرخين فى الإمبراطور جستنيان الثانى، وفى تحليلهم لشخصيته وأبعاد هذه الشخصية، من واقع الأحداث التى شهدتها فترة حكمه والتى تجاوزت الخمسة عشر عامًا، وتمت على مرحلتين حيث حكم المرحلة الأولى من سنة ٦٨٥ – ٦٩٥م / ٦٦ – ٧٦ هـ، ثم عزل عن الحكم، وتعرض لجدع أنفه والسجن والنفى، ولكنه ما لبث أن عاد مرة أخرى ليحكم من سنة ٧٠٥ – ٧١١م / ٨٦ – ٩٣ هـ(٣). والواقع أن أحكام هؤلاء المؤرخين على الإمبراطور جستنيان الثانى، جاءت من خلال تصرفاته، وتعامله مع الأحداث التى أحاطت بالعرش البيزنطى خلال تلك الفترة الهامة من خواتيم القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلاديين.

---

(١) Warren, The Byzatine state Finance, P. 103.

(٢) Theophanes. Op. Cit., P. 506.

(٣) Ostrogorosky, Op. Cit., P.125.

فيرى أحد المؤرخين أن جستنيان الثانى كان مجردًا مما يتصف به السياسى الماهر من سداد الرأى والرزانة(١). بينما يرى مؤرخ آخر أنه كان كأبيه وجده ذكيًا شجاعًا نشيطًا، وكان طموحًا متشبعًا بحب العظمة والمجد، فأراد أن يحتذى مثال سميه جستنيان الكبير، ولكنه كسائر أفراد أسرته كان يشكو شيئًا من قلة الاتزان. فتطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف إلى شراسة فى الخلق ورغبة فى سفك الدماء(٢).

ويحدد مؤرخ آخر شخصيته بقوله: إنه كان إمبراطورًا ذا نموذج مختلف عن كل الأباطرة الذين حفلت بهم سجلات الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية)، فقد كان طائشًا، متهورًا، مهملاً، قاسيًا، أنانيًا، وشابًا ذا عزم ثابت فى الإصرار على فرديته، وكانت له طريقته الخاصة. باختصار كان مغرورًا ومهملاً فيما يعمله، وعندما تولى الإمبراطورية وكان فى السادسة عشرة من عمره، سرعان ما أظهر أنه يريد أن يحكم الإمبراطورية طويلاً قبل أن يتعلم براعة الحكم (٣).

وهناك من صوره بأنه كان يتوقد ذكاء وفطنة، ولكنه كان طاغية لا يؤمن جانبه، ميالاً للمؤامرات والقتل، عاطفيًا سريع الانفعال ولا يملك القدرة على التعقل والتفكير، حريصًا على المجد والعظمة، وباسمهما ارتكب جرائم ومغامرات طائشة كبدت الدولة خسائر فادحة(٤).

ويعيب ثيوفانيس على جستنيان الثانى أنه كان صغير السن وأحمقًا ومرتبكًا فى إدارته، وكان لا يستشير أحدًا، مخالفًا التقاليد المعمول بها(٥)

---

(١) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٢) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٤.

(٣) Oman, The Byzantione Empire, Op. Cit., P. 173

(٤) الناصرى، الروم، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 507

ويحدد استروجورسكي، وهو المتعمق في دراسة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وأباطرتها، موقفه من شخصية الإمبراطور جستنيان الثاني، وما شاب فترة حكمه للإمبراطورية من أحداث وتطورات بقوله: لم يكن على شئ من الذكاء أو التوازن والحذر، والعدالة التي تميز رجل الدولة، فقد كان بطبيعته سريع الانفعال والغضب والاندفاع، متأثرًا بجده – قنسطانز الثاني – في ميولة، مشبعًا بروح الثيوقراطية والاستبداد، دون رحمة أو شفقة، وهي الروح التي ميزت الأسرة الهرقلية، فقد جرى وراء التشبه بجستنيان الكبير في عظمته وتصرفاته[1] بحثًا عن الشهرة، ولكن هذا جرَّ عليه من المشكلات التي لطخت سمعته، وسمعة عهده، ورغم أنه كان شابًا غير ناضج، إلا أنه كان يشتعل طموحًا للمجد والعظمة[2].

وهناك من يعقد مقارنة بين جستنيان الثاني ووالده قنسطنطين الرابع فيذكر أن قنسطنطين تميز بالعدالة الرزينة وبعد النظر والعقل الثاقب، بينما كان جستنيان الثاني يفتقر إلى الحرص وبعد النظر والاستقرار، إذ كان ذا طبيعة مندفعة ورثها عن جده، وكان الإمبراطور الشاب يمتلك الجرأة المندفعة بغير حساب، والمقدرة بغير اتزان، وتعوزه التجربة والكفاح ليصقلا هذه الصفات يمكن توجيهها الوجهة السليمة[3].

وهناك من يسم جستنيان الثاني وعهده بالقساوة والوحشية، والطغيان المتزايد[4].

---

(١).بلغ من تعلقه بشخصية جستنيان الأول ، أنه عندما تزوج ابنه خان الخزر أطلق عليها اسم ثيودورا، وهو اسم زوجة جستنيان الأول الشهيرة، وذلك كي تكتمل صورة التشابه بينهما، انظر صفحة (٢٤٧) من هذا الفصل.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129.

(٣) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٤) ج. هسي، العالم البيزنطي، مرجع سابق، ص ١٢٩.

ولكن رغم كل هذه الصفات التى التصقت بالإمبراطور جستنيان الثانى، ووسم بها عهده، وشخصيته المثيرة للجدل، فإن المؤرخين لا يجدون مفرًا من الاعتراف بأن الإمبراطور هو خير ممثل للأسرة الهرقلية رغم اندفاعه واستبداده كان حاكمًا موهوبًا، تميز بالنشاط والشجاعة والمحاولات الدؤوبة، كان حريصًا على إدراك حاجات الدولة والعمل على تحقيقها، معتزًا بأسرته وتاريخها، حرصه على العرش والسيطرة(١).

ومع أن جستنيان الثانى، الإمبراطور ذا العهدين كان محل خلاف واضح لدى المؤرخين المحدثين من خلال فترتي حكمه وتعامله خلالهما، إلا أن المتبقى من الموسوعات التاريخية التى سردت تاريخ حكمه مثل حوليات البطريرك نيكوريوس Breviarium of Patrich Nikephoros، وحولية ثيوفانيس تصور أنه بدون تمييز عن أى طاغية، قاس، محب للسلطة، وعديم الرأفة، فالدرسات الحديثة عن بيزنطة تنحو إلى إعادة تقييم الفترة الأولى لحكمه (٦٨٥ - ٦٩٥م) على اعتبار أنها فترة بناءة، ذات أهمية كبرى، أكثر مما تعترف به المصادر، إلا أن الغالبية من الطرفين يتفقون على أن فترة حكمه الثانية (٧٠٥ - ٧١١م) كانت فترة إرهاب حقيقى(٢).

والواقع أن جستنيان الثانى يدين لوالده قنسطنطين الرابع، بأصابع الدولة المستقرة التى حققها والده، خاصة بعد انتصاراته الحاسمة، وتصديه للتوسعات الإسلامية. فقد استقرت العلاقة مع المسلمين على توقيع معاهدة يدفع بموجبها المسلمون إتاوة سنوية للدولة البيزنطية، ودخلت الدولة الإسلامية بعد توقيع هذه المعاهدة، وفى أعقاب معاوية بن أبى سفيان فى سلسلة من الأزمات والفتن الداخلية، التى أضعفت الحكم الأموى، وشغلته عن التعامل مع الدولة البيزنطية، بل إن الأمويين كانوا حريصين طوال هذه الفترة على المحافظة على المعاهدة التى وقعوها مع البيزنطيين، وعلى استمرار أداء التزاماتهم المالية التى ألزمتهم بها المعاهدة مع الدولة البيزنطية.

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129; Bury; Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٢) Constance, (Head); Towards a Reinterpretation of the second reign of Justinian II, Vol. 39; Bruxelles, 1970, P. 14.

ولعله من المفيد أن نلقى نظرة عاجلة على الأوضاع السياسية في الدولة الأموية آنذاك، بما يعطينا لمحة سريعة عن نواحي الضعف التى كانت تمر بها الدولة الأموية عندما تولى جستنيان الثانى عرش الإمبراطورية البيزنطية.

فقد أعقب فشل المسلمين فى فتح القسطنطينية وتكبدهم خسائر فادحة وفاة الخليفة معاوية بن أبى سفيان سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م، تاركًا لابنه يزيد عرش الخلافة ينازعه عليه كثير من كبار رجال الدولة الإسلامية، وخاصة فى الحجاز والعراق(١).

وقضى يزيد شطرًا كبيرًا من حياته، مستفيدًا من فترة السلام مع البيزنطيين، وهو يحاول التصدى للمعارضين لحكمه، فى محاولة لانقاذ عرشه والصمود أمام المعارضات التى اشتعلت فى أكثر من ناحية من الدولة الإسلامية، وكان أهم المعارضين الحسين بن على بن أبى طالب (رضى الله عنه)، وعبد الله بن الزبير(٢).

وتوفى يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣م(٣) وبويع ابنه معاوية خليفة للمسلمين فى الشام، فلم يمكث إلا أربعين يومًا حتى مات(٤). وقبل وفاته خطب فى الناس قائلاً: إنى وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوى كما تركها الصديق لعمر، وأن شئتم تركتها شورى فى ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب. وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل من على المنبر ودخل منزله فلم يخرج منه حتى مات(٥)

---

(١) ابن الجوزى، المنتظم، مصدر سابق، جـ ٥، ص ٣٢٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٢٨٦، ٣١٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ ٨ ص ٢٣٦. وقيل أن وافاته كانت فى القرن الرابع عشر من شهر ربيع الأول وهو ابن ثمان وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل ثمانية أشهر.

(٤) الطبرى، مصدر سابق، جـ ٥، ص ٥٠٣.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ ١ ص ٢٣٨. ويصفه ابن كثير بأنه كان رجلا صالحًا ناسكًا ولم تطل مدته، وهناك خلاف على الأيام القليلة التى حكم فيها.

وكادت ولاية المسلمين أن تخرج من بنى أمية إلى عبد الله بن الزبير الـذى تكاثر أنصاره ومؤيدوه حتى فى دمشق ذاتها[1]، ثم ما لبث مروان بـن الحكـم أن تصدى للأمر وحصل على بيعة الناس فى دمشق ليكون خليفة يواصل مسيرة الحكم فى بنى أمية، وكان ذلك فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ / يونيـو ٦٨٣ م[2]. ومما يذكر هناك أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع استغل هـذه الأوضـاع التـى أضحت عليها الدولة الإسلامية فى أعقاب وفاة معاوية والصراع السياسى الذى حل بالدولة الإسلامية، فأراد أن يؤكد انتصاراته ويحقق مزيدًا من المكاسـب، فزحـف بجيوشه عبر الحدود الجنوبية ليدك حصون ملاطية ويجلى العرب عـن مـرعش وذلك سنة ٦٨٣م/ ٦٤هـ[3] واستمرت جيوش البيزنطيين تحاول توسيع دائرة نفوذها وسيطرتها فى جنوب آسيا الصغرى وأرمينيا.

واستجاب الإمبراطور قنسطنطين الرابع للطلب الذى قدمه الخليفـة الجديـد عبد الملك بن مروان لعقد معاهدة سلام، وكان قد أعلن خليفة فى أعقاب وفاة والده مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م بعد أن أمضى فى الحكم تسعة أشـهر [4]، وكان طاعنًا فى السن ويحيط به الأعداء والمتربصون.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، جـ ٣، ص ٣٢٦.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ ٨، ص ٢٤١.

(٣) أسد رستم، الروم جـ ١، ص ٢٦٤. وملاطية بلدة من بلاد الروم قديمة تتاخم الشام، واتخذها المـسلمون مقرًا للصوائف وزادوا من مساكنها (الحموى، جـ ٥، ص ١٥٣). أما مرعش فهى مدينة فى الثغر بـين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وأقام بها آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد حـصنا مـسورًا يعرف بالمروانى (الحموى، جـ ٥، ص ١٠٧).

(٤) يروى ابن كثير قصة وفاة مروان بن الحكم بقوله: إن وفاته كانت فى ثالث أيام رمـضان سـنة ٦٥هـ، وكان سبب وفاته أنه تزوج بأم خالد امرأة يزيد بن معاوية وأراد بتزوجه لها أن يصغر ابنها خالد فـى أعين الناس، وذات مرة سمعه ما يكره عن أمه، ولما أخبر أمه بذلك قررت أن تنـتقم منـه فوضـعت الوسادة على وجهه وتحـاملت عليها هى وجواريها حـتى مات. ابن كثير: البدايـة والنهايـة، جـ ٨، ص ٢٥٧.

وكذلك يشير الطبرى إلى هذه الرواية، جـ ٥، ص ٦١٠، ٦١١ وكذلك ابن العبـرى، ص ١١، وكـذلك يروى اليعقوبى الرواية ذاتها، كما يذكر رواية أخرى بأنه مات مسمومًا: اليعقوبى، جـ ٢، ص ٢٥٧.

وتم توقيع معاهدة سلام بين البيزنطيين والمسلمين سنة ٦٨٥م / ٦٥هـ[1]، وما لبث الإمبراطور قنسطنطين الرابع أن توفى فى ذلك العام نفسه ليخلفه فى الحكم ابنه جستنيان الثانى.

(١) إبراهيم خميس: معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين، مرجع سابق، ص ٢٨٣. والملاحظ أن هناك خلافًا كبيرًا بين المصادر الإسلامية والبيزنطية حول المعاهدات التى عقدت بين الدولتين وتواريخها وعدد بنودها وظروفها، وقد قام الدكتور إبراهيم سلامة فى بحثه هذا بدارستها والمقارنة بينها ومحاولة التقريب بين مجموعة المصادر الإسلامية ومجموعة المصادر البيزنطية، وقد استفدنا من محاولته فى جدولة وترتيب تلك المعاهدات.

تجديد المعاهدة مع المسلمين:

أصبح على رأس الدولتين قيادتان جديدتان وشابتان، وكان لا بد أن تنشأ سياسة جديدة وعلاقات مختلفة تعززها الظروف والأوضاع التي كانت عليها الدولتان السياسي والعسكري، ومدى الاستقرار فيهما.

كانت الظروف والأوضاع في صالح الدولة البيزنطية، وضد الخلافة الأموية، فالأوضاع في بيزنطة كانت مستقرة، بينما كانت في الدولة الإسلامية على عكس ذلك، حيث كانت الخلافة الأموية تسيطر فقط على بلاد الشام ومصر، بينما كانت الحجاز وأجزاء من العراق تحت سيطرة عبد الله بن الزبير، والمعارضون للخلافة الأموية يتزايدون[١]

وأراد جستنيان الثاني استغلال هذه الظروف المواتية فنقض معاهدة سنة ٦٨٥م[٢] وحرك جيوشه لقتال المسلمين[٣]، وفي الوقت نفسه حرك أعوانه من المردة في بلاد الشام للثورة ضد الحكم الإسلامي والذين بدورهم لمسوا ضعف الخلافة وكثرة أعدائها المحيطين بها[٤].

---

(١) ابن كثير، مصدر سابق جـ ٨، ص ٢٦٠.

(٢) يذكر أرشيبالد لويس أن عبد الملك بن مروان هو الذي نقض المعاهدة إذ قطع الإتاوة المتفق على تسليمها للقسطنطينية لوقف العمليات الحربية، (القوى البحرية، ص ٩٩). بينما تذكر المراجع الأخرى أن جستنيان الثاني هو الذي نقض المعاهدة من واقع معرفته بأوضاع الدولة الإسلامية ، وهذا ما نعتقده إذ لا يعقل أن يبادر عبد الملك بن مروان إلى نقض المعاهدة وهو يعلم حقيقة أوضاعه وظروف دولته. انظر: الباز العريني، ص ١٥٧. أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٤. محمد مرسي الشيخ، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٣. العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٥ سديو: خلاصة تاريخ العرب، ص ٧٨.

(٣) أسد رستم، الروم جـ ٨ ص ٢٦٤.

(٤) ابن كثير، مصدر سابق، جـ ٨، ص ٣١٣.

ولكن عبد الملك بن مروان سارع للتصدى لهذا الأمر، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور جستنيان الثانى[1]، تحمل مشروعًا لتجديد المعاهدة المعقودة بين الدولتين فى أواخر أيام قنسطنطين الرابع، والتى عرفت بمعاهدة ٦٨٥م[2]. ووصلت إلى القسطنطينية سفارة إسلامية على رأسها حميد بن حريث بن بحدل الكلبى وكريب بن أبرهة بن الصباح الحميرى، ومعها الهدايا والألطاف[3].

واستطاعت السفارة أن تصل فى القسطنطينية إلى اتفاقية جديدة عرفت باتفاقية سنة ٦٨٩م / ٧٠ هـ، وبدت بنودها ظاهريًا فى صالح الإمبراطورية البيزنطية، حيث تقرر بموجبها أن تدفع الدولة الإسلامية لبيزنطة مبالغ كبيرة من المال تفوق تلك التى كان منصوصًا عليها فى الاتفاقية السابقة، وثلاثمائة وستين عبدًا سنويًا، وثلاثمائة وستين جوادًا كريمًا[4]، وأن يقسم خراج ولايات أيبريا وقبرص وأرمينيا مناصفة بين الدولتين، كما تضمنت الاتفاقية بندًا جديدًا وهامًا هو قيام الإمبراطورية البيزنطية بنقل المردة (الجراجمة) من داخل ومن تخوم الدولة الإسلامية إلى مناطق أخرى فى أراضى الدولة البيزنطية، وأن تكون مدة الاتفاقية عشر سنوات[5].

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 506.

(٢) من المؤرخين من يرى أن جستنيان لم يكن يريد بتحركاته وتحريك المردة إلغاء اتفاقية سنة ٦٨٥ م وإنما كان يريد إرهاق الدولة الإسلامية فى فترات إضطرابها، وتحقيق مكاسب جديدة. انظر Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332 وإبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٦.

(٣) الطبرى، مصدر سابق، جـ٦، ص ١٥٠. تاريخ اليعقوبى ، مصدر سابق جـ ٢، ص ٢٦٩. منبجى، مصدر سابق، ص ٧٨، هامش رقم (٢).

(٤) وهناك خلاف بين المؤرخين حول المبالغ التى التزم عبد الملك بدفعها للإمبراطور البيزنطية، فيذكر البلاذرى (فتوح البلدان، ص ١٦٤) وابن كثير (جـ ٢، ص ٣١٣) أنها كانت ألف دينار فى كل جمعة، فيما يذكر المنبجى (ص ٧٨) أنها كانت كل يوم ألف دينار وفرس وغلام، ويذكر ثيوفانيس (Theophanes, P.506) أنها كانت ألف قطعة ذهبية وجوادًا وعبدًا يوميًا. بينما يذكر أرشيبالد) ص ٩٩ أنها كانت ٥٠٠ رطل من الذهب و ٣٦٥ أسيرًا و ٣٦٥ حصانًا. ويلاحظ أن المصادر الإسلامية جعلت المبلغ أسبوعيًا، فى حين أن المصادر البيزنطية جعلته يوميًا فى محاولة لتبرير قيام الإمبراطورية بالموافقة على نقل المردة من بلاد الشام إلى خارج الأراضى الإسلامية.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406; Ostrogorosky, Op. Cit.. P.129، المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٨.

والواقع أن هذه الاتفاقية قد شغلت جانبًا كبيرًا من نقاشات المؤرخين والمحللين وتباين وجهات نظرهم حيال بنودها ودرجة الذكاء والدهاء السياسى للموقعين عليها.

فالبعض نظر إليها كانتصار جديد للإمبراطور جستنيان الثانى الذى استطاع أن يحصل على زيادة جديدة فى الإتاوة السنوية التى كان على الدولة الإسلامية تقديمها لدولته، أكثر من تلك الإتاوة التى كان يحصل عليها والده [١]، حيث رأى الإمبراطور فى الحصول على المبلغ الضخم من خزينة الدولة الإسلامية، رمزًا لعظمة الدولة البيزنطية وقوتها. والبعض الآخر نظر إليها على أنها انتصار لعبد الملك بن مروان الذى استطاع أن يشترى السلام بالمال فى أشد الأوقات حاجة إليه لتدبير أمور دولته التى كانت تحيط بها الفتن والأعداء والثائرون المتربصون بها من الداخل[٢] خاصة وأن هذا السلام يعطيه فرصة لترتيب أمور دولته، واستجماع قوته، ويحمى بلاد الشام من الوقوع فى قبضة البيزنطيين[٣].

واعتبرت هذه الاتفاقية بما حوته من بنود - وبالذات نقل المردة - دليلاً على حنكة عبد الملك السياسية وبعد نظره، وفى الوقت نفسه دليلاً على قصر نظر معاصره الإمبراطور البيزنطى أو قلة إدراكه[٤]. حيث أن الخليفة استطاع من خلال هذا البند التخلص من خطر دائم التهديد للأسطول الإسلامى وللأراضى الإسلامية، وكان عبئًا على المسلمين، وبؤرة من بؤر المشكلات والاضطرابات فى الدولة، خاصة وأن الدولة الإسلامية لم تستطع أن تحكم سيطرتها على هؤلاء المردة[٥].

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.229.، الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) أسد رستم، أنطاكية، جـ ٢، ص ٦٥ Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 215،

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ ٢، ص ٣١٣.

محمد ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان والدولة الأموية (الطبعة الثانية، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٩م) ص ٢٠٨.

(٤) Bury, Op. Cit.. Vol. II, P. 331.

(٥) العدوى، قوات البحرية العربية، مرجع سابق، ص ٦٨.

وشكلت قضية نقل المردة وتهجيرهم بهذا الشكل الجماعي، تحت إشراف وقوة الدولة البيزنطية واحدة من النقاط السلبية التي أخذها المؤرخون البيزنطيون والغربيون على الإمبراطور جستنيان الثاني، وصبوا عليه بسببها جام غضبهم، وسخريتهم من قلة إدراكه وقصر نظره. حتى أن ثيوفانيس وهو المؤرخ الرئيسي لهذه الفترة وصفه بالأحمق والفاشل في الأمور السياسية(١)، وأنه بنقله للمردة قاست رومانيا (آسيا الصغرى) كل أنواع المقاساة على يد العرب حتى يومنا هذا(٢). (يقصد أيامه أي حتى خواتيم القرن الثامن الميلادي) ويصف بيوري هذه العملية بقوله: "إن جستنيان قد بتر القوة الرومانية بإزالة الحائط النحاسي ألا وهو المردة"(٣). ويصف فينلاي هذا التصرف بقوله: "لقد كان نقل المردة من الشام من أكبر الأخطاء التي ارتكبها جستينيان الثاني، لقد قضى على بسالة أولئك المحاربين تمامًا"(٤) ويذكر فاسيليف: "أن المردة كانوا حائطًا نحاسيًا حمى آسيا الصغرى من هجمات العرب، وبإجبارهم على الانتقال إلى داخل الإمبراطورية وتفريقهم أدى إلى تقوية تحركات العرب في عمق آسيا الصغرى". ويضيف فاسيليف مستغربًا من هذا التصرف: "لا يوجد أي سبب كاف للنظر إلى هذا الحادث الخطير، وإعادته إلى أسباب دينية كما يرى المؤرخ الروسي كولاكوفكي Kulakoveke، والذي نظر إليه على أنه موقف أملاه احترام الإمبراطور لنصارى كانوا يحكمون من قبل أناس لهم عقيدة غريبة" ويؤكد فاسيليف أن هذا النزوح كان سياسيًا بالدرجة الأولى، وأملته العقلية السياسية(٥).

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 507.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 506.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 331.

(٤) Finlay, Op. Cit., Vol. I. P.387.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 215،
وهناك من يشير إلى الجانب الديني من ناحية أخرى، فيذكر أن من بين أسباب الموافقة على نقلهم أن المردة كانوا نصارى على المذهب المونوفيزتي المخالف لمذهب الدولة، ولذلك لم تنظر إليهم الدولة البيزنطية بارتياح نظرًا لمذهبهم البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين، خاصة في هذه الفترة التي كانت الدولة قد اتخذت قرارها بالتخلي عن تلك المذاهب، التي كانت سائدة في الشرق، ولم تعد في حاجة إلى مجاملة أولئك القوم الذين أصبحوا تحت حكم الدولة الإسلامية. انظر: قنسطنطين السابع، إدارة الإمبراطورية، مصدر سابق، ص ٨٥.

ويقول محرر موسوعة كمبردج للعصور الوسطى: "إن جستنيان استفاد من اثنى عشر ألفا من المردة الذين فرقهم فى أنحاء إمبراطوريته، وربما كانت تلك الخطوة قد زادت من قوته الحربية، ولكن ربما تكون تلك القوات ذات فائدة أكبر لو بقيت ضمن حدود الدولة الإسلامية" (١) ويأسف ستراتوس على نقل المردة ويصفهم بأنهم "كانوا شوكة فى لحم السلطة الإسلامية شمال سوريا ولبنان"(٢).

وهناك من يدافع عن قرار الإمبراطور ويبحث عن مبررات له، فيقول ليندسى Lindasy متسائلاً: "هل فعل جستنيان الثانى ذلك لأنه لم يكن أمامه خيار سوى قبول شروط العرب؟ أم لأن سياسته العامة كانت ترمى إلى تجميع القوى القادرة على المقاومة حول بيزنطة، وعلى أساس أنه رأى أن يكون المحاربون الأشداء على مقربة منه؟! أم لأنه أدرك تهديد نظام ملكية الأرض الذى كان المردة يمثلونه، وأراد أن يقضى عليه بنقلهم من الشام، وإعادة توزيعهم فى مناطق أخرى؟ ويحتمل أن يكون أحد هذه الأسباب أو كلها مجتمعة هو الدافع للإمبراطور على المردة، وتوطينهم فى مناطق أخرى"(٣).

ويرجع أستروجورسكى عملية نقل المردة إلى سياسة توطين الأجناس، ونقل السكان إلى الأماكن التى كانت تشهد فراغا بشريًا، وهى سياسة أقدمت عليها الإمبراطورية فى مراحل مختلفة من تاريخها(٤).

على أية حال، وأيًا كانت نظرة هؤلاء المؤرخين إلى موافقة الإمبراطور جستنيان الثانى على نقل المردة، فإن الإمبراطور قد سارع إلى تنفيذ هذا البند، حيث أرسل الاستراتيجوس ليونتيوس Leontios على رأس فرقة بيزنطية إلى أرمينيا لنقل المردة(٥).

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.409.

(٢) Stratos, Op. Cit., Vol. 4, P.39.

(٣) Lindasy , Byzantium into Europe, London, 1929, P.129.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.129.

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 507.

ويذكر الدكتور أسد رستم نقلاً عن تاريخ الطائفة المارونية لمؤلفه أسطفان الدويهى، أن الإمبراطور جستنيان الثانى بعث بقائده إلى أمير المردة يوحنا متظاهرًا بطلب النجدة منه ضد العرب، جاء القائد إلى قب إلياس حيث مسكن الأمير، فلقى ترحابًا وتكريمًا وجلس يحدث الأمير عن غزو العرب، ثم أشار إلى جنده – وكانوا على علم بمقصده – فوثبوا على الأمير فقتلوه، وفتكوا بكثيرين من بطانته، ثم أعتذر إلى الأمير سمعان – ابن أخت الأمير يوحنا – معيدًا الكلام عن رغبة الإمبراطور (الفسيلفس) فى أن يتلقى نجدة المردة، وطفق يزين لهم أن يصحبوه إلى القسطنطينية، فأجابوه إلى ما طلب، وتجمهر اثنا عشر ألفًا منهم يتزعمهم الأمير سمعان، وساروا إلى الإمبراطور[١]. ويذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور انتقل شخصيًا إلى أرمينيا ليشرف على عملية إيواء النازحين من المردة[٢]. ثم قام بعد ذلك بتوزيعهم فى تراقيا وأرمينيا وكزيكوس وأنحاء أخرى من آسيا الصغرى[٣].

وكانت النتيجة المباشرة لنقل المردة من بلاد الشام ومن حدودها الشمالية أن أصبحت حدود الدولتين متاخمة لبعضها البعض، وبلا جماعات حاجزة تعطل تقدم المسلمين فى آسيا الصغرى، كما كان يفعل المردة الذين عرفوا بأنهم حائط آسيا الصغرى الفولاذى[٤].

فى المقابل ونظرًا للتأثيرات الكثيرة التى أحدثها هذا النقل للمردة إلى خارج الأراضى الإسلامية وبعيدًا عن حدودها، وتحت إشراف وضغط مباشر من الإدارة البيزنطية، فإن المؤرخين اعتبروا ذلك دليلاً ناصعًا على حنكة عبد الملك السياسية وبعد نظره، وعدّوه انتصارًا كبيرًا له، حيث استطاع أن يتخلص من بؤرة

---

(١) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٦٥.
(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 507.
(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 331.
(٤) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٥.

المشكلات فى دولته، فقد كان المردة يلعبون دورًا خطيرًا داخل الدولة الإسلامية ويعطلون نشاطها وتقدمها العسكرى فى آسيا الصغرى، وفى الوقت نفسه فقد اعتبروا ذلك قصر نظر من الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى، الذى عرض باستجابته لمطالب عبد الملك، الإمبراطورية لخطر جديد سرعان ما ظهرت آثاره، حيث أغراه المال الذى قدمه الخليفة لسرعة الاستجابة دون أن ينتبه لخطورة هذه الخطوة على دولته، وعلى حدودها التى أصبحت متاخمة مباشرة لحدود الدولة الإسلامية.

السياسة الداخلية والخارجية للدولة فى عهد جستنيان الثانى:

وجد الإمبراطور جستنيان الثانى فى معاهدة السلام التى عقدها مع المسلمين، والمبالغ المادية التى أصبحت ترد إليه منهم، فرصة للاهتمام بالشئون الداخلية للإمبراطورية، ويبدو أن شره الإمبراطور للأموال وانصرافه إلى المغامرات ورغبته فى التشبه بجستنيان الأول فى البناء والتشييد والإسراف فيهما، مما جعله يثقل على رعاياه بأعباء مالية ضخمة، وتحصيل هذه الأموال دون شفقة أو رحمة، والاعتماد فى تحقيق ذلك على التشدد فى جمع الضرائب، دفعه لأن يوكل تصريف السياسة الداخلية للدولة بشكل كبير إلى اثنين من الوزراء ممن اكتسبوا سمعة فى التعامل مع المواطنين. الأول يسمى ثيودوتوس Theodotus، وكان راهبًا ورئيسًا لأحد الأديرة، وعينه الإمبراطور مسئولاً عن الشئون المالية، والثانى خصىّ فارسى داهية يدعى ستيفانوس Theophanes وكان يتولى تصريف أمور القصر الإمبراطورى، ومسئولاً عن الخزانة الخاصة للقصر(١).

وقد تسلط هذان الوزيران على كل مقدرات الإمبراطورية، واستشرى الفساد والفوضى فى الداخل. وكان نتيجة تصرفاتهما أن كثرت المصادرات والاستيلاء على الأموال باسم الإمبراطور، وكثرت جرائم التعذيب والموت لمن يعترضون على إجراءاتهما، وتسببت تلك الإجراءات فى زيادة الكراهية لحكم جستنيان، وتلويث عهده، والنقمة عليه، ويذكر المؤرخون أنه نتيجة لهذه الإجراءات فقد تحولت القسطنطينية إلى سجن كبير.(٢)

Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 324. (١)
Oman, Op. Cit., P. 174. (٢)

وفى الجانب السياسى كان من النتائج المباشرة لتوقيع معاهدة السلام مع المسلمين، أن انطلق الإمبراطور جستنيان فى مغامرة جديدة لمهاجمة السلاف والبلغار، خاصة وأنه لم ينس تلك الهزيمة الفادحة التى تعرض لها والده فى حربه مع البلغار، والمكانة التى أصبح عليها هؤلاء فى أعقاب توقيعهم لمعاهدة سلام مع والده وحصولهم على إتاوة سنوية من الإمبراطورية، واستشعر جستنيان الثانى تنامى دولة البلغار وخطرها على الإمبراطورية.

جرد جستنيان الثانى حملة عسكرية عام ٦٨٩م / ٧٠ هـ، قادها بنفسه لمحاربة السلاف والبلغار(١). واستطاعت هذه الحملة أن تحقق انتصارًا كبيرًا، حيث توغل الإمبراطور عبر أقاليم استقرت فيها قبائل سلافية حتى وصل إلى بالونيكا التى كانت تناضل لعدم الوقوع تحت يد البلغار(٢). وكانت منطقة البلقان تموج بأعداد ضخمة من السلاف الذين زادوا من ضغطهم بعد أن انضم إليهم البلغار.

وكان لنجاح هذه الحملة نتائج كبيرة، فقد أدت إلى توطيد مركز سالونيكا كقاعدة هامة للإمبراطورية البيزنطية، وأصبحت مرتبطة بإقليم تراقيا، إلى جانب تأكيد السلطة المركزية الإمبراطورية على إقليم ستريمون Strymon الذى يقع شمال سالونيكا(٣)

وكذلك كان من نتائجها أن برزت سلطة الإمبراطورية فى البلقان، حيث سمح الإمبراطور جستنيان الثانى – مثل سلفه قنسطانز الثانى – ببقاء المجتمعات السلافية داخل حدود الإمبراطورية بشرط خضوعها للسيادة البيزنطية، فقد تبلورت سياسة الدولة فى هذه المنطقة بأن تقوم هذه العناصر بزراعة الأراضى التى هجرها أصحابها تحت وطأة الغزو الخارجى وأن تتقبل الحضارة البيزنطية، واللغة والمعتقد الدينى، وتنخرط فى جند الثيمات للدفاع عن الإمبراطورية، وصولاً إلى كسب دماء وعناصر جديدة منتجة(٤).

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 498، ويذكر ثيوفانيس أن من بين أهدافه من هذه الحملة أيضًا الحصول على أسرى من السلاف والبلغار لضمهم إلى جيوشه التى كانت تشهد نقصًا كبيرًا
(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.130.
(٣) وسام فرج، السلاف فى شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق، ص ١٥٤.
(٤) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 173; Oman, Op. Cit., P. 173.

على أن أهم نتيجتين تمخضت عنهما الحملة كانتا أولاً: توجيه رسالة واضحة إلى البلغار، والعمل على طردهم بعيدًا عن تراقيا وإقليم سالونيكا. ووضع حاجز بينهم وبين السلاف لعرقلة تكوين دولة قوية تهدد الإمبراطورية(١).

وأما النتيجة الثانية الهامة، فهى قيام الإمبراطور جستنيان الثانى فى أعقاب انتصاره على الصقالبة بتهجير عدد كبير منهم بلغوا أكثر من ثلاثين ألفًا، وقد كون منهم فرقة عسكرية نقلها إلى آسيا الصغرى ليعوضوا النقص الهائل فى عدد سكانها، وليعملوا على حمايتها من الغزوات الإسلامية، وضمهم إلى ثيم الأوبسيق Opsikion. كما استفاد منهم إقليم بثينيا Bithynia الذى كان يشهد نقصًا حادًا فى السكان.

وأراد الإمبراطور جستنيان الثانى أن يصبغ انتصاره هذا بصبغة دينية، وأن يوطد علاقته بالهيئات الدينية فى سالونيكا، ففى غمرة الاحتفالات بهذا النصر، أصدر مرسومًا منح فيه كنيسة القديس ديمترى فى سالونيكا عددًا من الامتيازات والهدايا والهبات، وأعفى الكنيسة من الضرائب، معترفًا بفضل قديسها فى منحه هذا الانتصار(٢).

وبهذا النقل والتهجير للسلاف إلى آسيا الصغرى، يكون جستنيان الثانى قد تابع ما فعله سلفه قنسطانز الثانى من توطين للسلاف فى آسيا الصغرى، ولكن بشكل أوسع، وقامت هذه الجماعات السلافية بتقديم قوة عسكرية قوامها ثلاثون ألف رجل، سلحهم الإمبراطور وأسماهم بـ "الجيش المختار"، مما أدى إلى زيادة المقاتلين فى الجيش البيزنطى، فى الوقت الذى عمل هؤلاء السلاف على إنعاش الريف الذى كانت الهجمات المعادية قد استباحته، وأحدثت نقصًا هائلاً فى سكانه وإنتاجيته(٣).

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.406.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 508. ويحدد ثيوفانيس موقع ثيم الأوبسيق بأنه يشغل المنطقة الشمالية الغربية للأناضول، إلى الغرب من ثيم الأرميناك الذى يقع إلى الشمال من ثيم الأناضول

(٣) عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٨٧.

ويبدو أن الظروف التى تولى فيها الإمبراطور جستنيان الثانى العرش قد شهدت نقصًا كبيرًا فى سكان الإمبراطورية، لذلك فقد نشطت حركة النقل والتهجير فى عهده، وكان من بين الذين هجروا المردة، ثم السلاف الذين تم تهجير بعضهم إلى آسيا الصغرى، وأعترف للبعض الآخر بحق البقاء فى البلقان لملء الفراغ الذى كانت تعانيه الإمبراطورية فى تلك الأنحاء، وخاصة فى شرق مقدونيا وتراقيا والإقليم المحيط بسالونيكا، حيث كانت كثافة السكان البيزنطيين قليلة جدًا، وحتى يشكلوا واقيًا من التسلل البلغارى.

وشمل النقل والتهجير أيضًا طائفة من القبارصة الذين تم نقلهم إلى جزيرة "كزيكوس" بعد استعادتها من المسلمين، وقد وصف ثيوفانيس هذه العملية بأنها كانت فاشلة، لأن عددًا كبيرًا منهم قد هلك غرقًا، والبعض الآخر مات بسبب الأمراض[١]

وبطبيعة الحال فإن حركة النقل والتهجير هذه التى توسع فيها الإمبراطور جستنيان الثانى، لمواجهة إحدى أزمات الإمبراطورية فى فترة حكمه وهى فراغ بعض المواقع الخطيرة والحساسة من السكان، قد كلف الخزينة أموالاً طائلة، وكلف الإدارة جهودًا مضنية[٢]، إلا أن هناك من يرى أن ذلك كان مفيدًا للدولة البيزنطية لأنه غذى الإمبراطورية بدماء جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة من منطقة إلى أخرى[٣]، وهناك من ينظر إليها على أنها سياسة عملية، إذ سدت حاجة جوهرية للدولة[٤].

---

(١) Theophanes. Op. Cit., P. 509; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 323.

وهناك من يرى أن من أهداف الإمبراطور فى نقل طائفة من السكان من قبرص إلى أنحاء أخرى من الإمبراطورية هو الرغبة فى الأضرار بمصالح الخلافة الإسلامية، حيث يقل نصيبها من الجزية المفروضة على قبرص، والتى كان يتم اقتسامها بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وكذلك لأن أولئك المنقولين أصبحوا على مقربة من المسلمين. انظر: الباز العرينى، ص ١٥٩.

(٢) Foord, E; The Byzantine Empire, London, 1911, P.140.

(٣) هسى العالم البيزنطى، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٤) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٦٠.

على أن المستفيد الحقيقى من حركة النقل والتهجير خلال هذه الفترة هو نظام الثغور أو الثيمات، والذى شهد نقلة جديدة فى هذه الفترة من تاريخ الإمبراطورية، ودفعة كبيرة نتيجة لزيادة أعداد الجنود، جعلته أحد الأجهزة الرئيسية فى الإدارة البيزنطية، فقد شهد هذا النظام توسعًا كبيرًا واستكمل مقوماته، وأصبح مستقرًا وراسخًا، حتى أن قادته صاروا يحضرون جلسات المجلس الإمبراطورى ويشاركون فى أعماله(١).

ويبدو أن هذه القوة العسكرية التى توفرت للإمبراطورية البيزنطية قد أغرت الإمبراطور جستنيان الثانى، وجعلته يصم آذانه عن احتجاجات المسلمين عن تلك الخروقات التى كانت تقوم بها قواته للاتفاقية المعقودة بين الدولتين، فقد حدث أن قام القائد المسئول عن ثيم الأناضول ليونتيوس بإخضاع كل من ألبانيا وإيبريا، وإعادتهما إلى السلطة البيزنطية المباشرة، رغم النص عليهما فى الاتفاقية على أن تكونا مناطق غير خاضعة لأى من السلطتين الإسلامية أو البيزنطية(٢).

وكذلك احتج المسلمون على نقل أعداد من القبارصة إلى جزيرة كزيكوس، ولكن الإمبراطور لم يأبه لكل هذه الاحتجاجات(٣) بل ذهب به الغرور بعيدًا حتى أن ثيوفانيس يذكر أن الإمبراطور أرسل مهددًا عبد الملك بأنه لن يتقيد بالصلح المعقود بينه وبينهم(٤).

والواقع أن عبد الملك بن مروان كان مضطرًا للاكتفاء بالاحتجاج، لأنه كان ما زال مشغولاً بتوطيد أركان حكمه والتصدى للثوار والخارجين عليه، وكان أهمهم فى تلك الفترة عبد الله بن الزبير الذى كان يسيطر على الحجاز وأجزاء من العراق(٥).

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.133; Holdon, Op. Cit., P. 253.

(٢) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 231 .

(٣) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٥٩؛ Ostrogorosky, Op. Cit, P.131

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 509.

(٥) الطبرى، مصدر سابق، جـ ٦ ص ١٦٢، ١٧٤، ١٨٧، وهذه الصفحات تفاصيل استعادة عبد الملك للكوفة والبصرة بعد مقتل مصعب بن الزبير، والحجاز بعد مقتل عبد الله بن الزبير فى مكة. وكذلك ابن الجوزى، المنتظم، مصدر سابق، جـ ٦، ص ١١٠، ١٢٤

الأوضاع الدينية فى عهد جستنيان الثانى:

لقد كان التصدى للقضايا الدينية واحدًا من الأمور الهامة التى ركــز عليهــا أباطرة الأسرة الهرقلية، ومنهم الإمبراطور جستنيان الثانى، خاصة وأنــه أظهــر اهتمامًا مبكرًا بالمسائل الدينية وتركيزًا على التوجه الدينى، حتــى أنــه كــان أول إمبراطور يضع صورة للمسيح (عليه السلام) على العملة، وفى الوجه الآخر نقش عبارة عبد المسيح Servus Christi [(١)]. وتأكيدًا لهذا التوجه دعا الإمبراطور ســنة ٦٩١م / ٧٢هـ إلى عقد مجمع دينى كبير، خصصت أعمالــه لمعالجــة مــشكلات الكنيسة من حيث الإدارة والضبط، حيث لوحظ أن المجامع الــسابقة – وبالــذات الخامس والسادس – قد اهتمت بأمور العقيدة، وما ســادها مــن خلافــات حــول المنوفيزتية والمونوثولستية وغيرها من المذاهب[(٢)].

وعرف هذا المجمع بعدة أسماء منهــا: المجمــع الخــامس والــسادس، أو البنثكيتى Penthektos[(٣)] ويسمى فى آداب الكنيسة الغربية[(٤)] Quinisextum، وكذلك يعرف باسم مجمع ترولان Trullan، أى القبة نسبة إلى المكان الذى عقد فيــه فــى القصر الإمبراطورى[(٥)]. وهو فى الواقع ملحــق للمجمعــين الــسابقين الخــامس والسادس.

حيث عقد الأول سنة ٥٥٣م، وعقد الثانى سنة ٦٨١م.

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.138.

(٢) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، جـ ٢، ص ٥١.

(٣) أسد رستم، الروم جـ ١، ص ٢٦٨.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., P.138.

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225.

واشترك في هذا المجمع مئتان وسبعة وعشرون أسقفا، وقيل مئتان وأربعون، وكان أبرز المشاركين بولس بطريرك القسطنطينية، وبطرس بطريرك الإسكندرية، وجاورجيوس بطريرك أنطاكية، وأنسطاسيوس بطريرك المقدس، وأسقفي غورتيني (كريت) ورافقنا نائبين عن بابا روما[١].

وأصدر المجتمعون مائة واثنين قانونًا، كان أولهما التمسك بالعقيدة الأرثوذكسية كما جاءت في أعمال المجامع الستة، وكرروا شجب الهرطقة وحرم القائلين بها بما فيهم الباب أونوريوس، وثانيها تأييد القوانين التي سنها سلفاؤهم أعضاء المجامع السابقة[٢]. ثم سنوا بعد ذلك مائة قانون تعلقت بأمور الكنيسة والأخلاق المتدهورة، وكان منهم: علاقات الشمامسة بالقساوسة، وزواجهم ، والسن التي يجب أن يبلغها رجل الدين قبل سيامته، وتحريم الدين بالربا على رجال الدين، والرشوة للوصول إلى المناصب الكنائسية، وبحث الكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم، وأمور الرهبنة والأديرة والجمعيات السرية ، وعتق الرقيق، والتصاوير البذيئة والسحر والكهانة وأمر اليهود[٣] ومنع طلبة جامعة القسطنطينية من الاشتراك في الاستعراضات المسرحية، وإنكار صيام أيام السبت[٤] وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالكنيسة، والأمور الأخلاقية. وما يحقق تأكيد سيادة الإمبراطور على الكنيسة[٥]، ومكانة كنيسة القسطنطينية حيث تقرر أن لكنيستها التقدم أسوة بكنيسة روما القديمة، وأن تعظم مثل كنيسة روما في الأمور الكنسية، وأن يحسب بعدهما كنيسة الإسكندرية، ثم كنيسة أنطاكية، ثم بيت المقدس[٦].

---

(١) أسد رستم، كنيسة أنطاقية، جـ ٢، ص ٥١

(٢) أسد رستم، والمرجع السابق، نفس الجزء ونفس الصفحة.

(٣) أسد رستم، الروم جـ ١، ص ٢٦٨. وأيضًا: كنيسة أنطاكية، جـ ٢ ص ٥٢.

(٤) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 139.

(٥) د. وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٦) أسد رستم، نحن وروما والفاتيكان، مرجع سابق، ص ٢٥.

ودونت أعمال هذا المجمع في ست نسخ، واحد للإمبراطور، وخمس نسخ لكل واحد من البطاركة المشاركين، وأرسلت جميعها إلى روما ليعتمدها البابا سرجيوس الأول Sergius (٦٨٧ – ٧٠١م / ٦٨ – ٨٢هـ) ولكن البابا رفض التوقيع على قرارات المجلس بسبب وجود فقرات معينة تعترض عليها كنيسة روما، مثل: تحريم الصيام يوم السبت والسماح بزواج رجال الدين(١)

واستشاط الإمبراطور جستينيان الثاني غضبًا لهذا الرفض، وقرر أن يكرر ما فعله جده قنسطانز الثاني حين أمر أرخون رافنا بإلقاء القبض على البابا مارتن الأول، وإرساله مخفورًا إلى القسطنطينية (٢). وفعلاً أرسل مندوبًا إلى رافنا يحمل تعليمات للقبض على البابا، ولكن حامية رافنا وقفت إلى جانب البابا وساندته ضد النائب الإمبراطوري الذي كاد أن يقتل (٣). وأثبتت هذه الحادثة أن الظروف في إيطاليا وفي الإمبراطورية قد تغيرت، إذ كانت مشاعر سكان إيطاليا إلى جانب البابا هذه المرة بشكل قوي. وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن العداء عاد مرة أخرى بين بيزنطة وروما، وقضى على فترة السلام والهدوء القصيرة التي تحققت في فترة الإمبراطور قنسطنطين الرابع بين الطرفين.

وألقت هذه الأزمة بظلالها على أوضاع الإمبراطورية الداخلية، خاصة أن الإمبراطور كان يسعى إلى تحقيق أي دور في المسألة الدينية، يقارن بتلك الأدوار التي لعبها الإمبراطور جستنيان الأول، وهو الذي كان حريصًا على التشبيه به، فقد شعر بهزيمة كبيرة أمام رفض البابا اعتماد قرارات هذا المجمع الذي دعا إليه ورعاه وخطط له، وعدم قدرته على المساس به أو معاقبته، وشعر بالمهانه أكثر، إذ كيف وهو الذي اشتهر بالتقوى يرفض الأخذ بقرارات مجمعه الديني. يضاف

---

(١) Vasiliev, Op. Cit., Vol. I, p. 22; Ostrogorosky, Op. Cit., P.139; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 327

(٢) سبق أن ناقشنا ذلك عند الحديث عن الأوضاع الدينية في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني ص (٩٨)

(٣) الناصري، الروم، ص ٢٣٥، Camb. Med. Hist.Vol. II, P.408 وكذلك: Vasiliev, Op. Cit., Vol.II, p. 225.

إلى ذلك أن الأوضاع الداخلية كانت متأزمة أصلاً نتيجة لتصرفات وطغيان وزيريه ستيفانوس وثيودوتوس، وتردى سياسته الداخلية، مما انعكس بالتالى على سياسته الخارجية، والتى بلغت أسوأ درجاتها فى الهزيمة الفادحة التى تعرض لها فى الحرب التى شنها على المسلمين.

العلاقات الاقتصادية بين الدولتين:

ففى سنة ٦٩٢م / ٧٣هـ أعلن جستنيان الثانى الحرب على المسلمين بسبب وصول الإتاوة السنوية التى كان يرسلها عبد الملك إليه، بموجب اتفاقية السلام، فى شكل جديد، وصياغة إسلامية، مخالفة للمعهود، حيث كانت العملة التى تسلم بها الإتاوة فى السابق هى العملة البيزنطية، التى تحمل صورة الإمبراطور ونقوشه، أما العملة الجديدة فهى فى مسمى جديد، وعليها نقوش غريبة – على الإمبراطور – تحمل شعارًا إسلاميًا هو "لا إله إلا الله" (١). مما مثل تحديًا جديدًا للدولة البيزنطية، لم يجد الإمبراطور ردًا له سوى إعلان الحرب على المسلمين.

والواقع أن قضية تعريب النقود، او إيجاد عملة خاصة بالدولة واحدة من القضايا الهامة فى تاريخ الدولة الإسلامية، وتاريخ العلاقات بين الدولتين الأموية والبيزنطية، خاصة وأنها كانت واحدة من قضايا الصراع بين الدولتين، وترتب عليها نتائج كبيرة وهامة فى العلاقات السياسية والاقتصادية، وفى تجارة العصور الوسطى.

ويذكر المؤرخون أنه سبق التغيير فى النقود أو إحداث عملة إسلامية، تغيرات فى أوراق البردى والطرز التى كانت تصنع فى الدول الإسلامية وتقبل الدولة البيزنطية على استيرادها والتعامل بها(٢) وكانت عادة مصانع أوراق البردى

---

(١) هناك خلاف بين المؤرخين حول النص الذى حملته أول عملة ذهبية إسلامية، فبعضهم يذكر أنها كانت "أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" أسد رستم: الروم جـ ١، ص ٢٦٧. وهناك من يذكر أنها كانت "لا إله إلا الله" وسام فرج: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، ص ٤٩، وهناك من يذكر أنها كانت "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" حسان خلاق، تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٨م، ص ٥١. وهناك من يشير أنها حملت شهادة التوحيد والرسالة المحمدية، د عبد الرحمن فهمى: النقود العربية ماضيها وحاضرها، الفيصلية للنشر، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ص ٨. وغير ذلك من الآراء.

(٢) د عبد الرحمن فهمى، النقود العربية، مرجع سابق، ص ٣١.

والطرز أى الأقمشة، التى كان يعمل بها الأقباط المصريون، أن يكتبوا اسم المسيح (عليه السلام) وعبارة التثليث فى أعلى الورقة، ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن هذه الصيغة لا تتفق ومظهر الدولة الإسلامية، وأمر أن تستبدل بهذه الصيغة عبارة "قل هو الله أحد"(١). ولما وصلت القراطيس التى تحمل العبارة الإسلامية إلى بلاد الروم، استشاط جستنيان الثانى غضبًا، ولكنه فضل معالجة الأمر دبلوماسيًا فأرسل كتابًا إلى عبد الملك بن مروان مقرونًا بهدية فاخرة يطلب منه العودة إلى طراز التثليث الذى كان سائدًا من قبل قائلاً: "فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر من هاتين الخلتين أيتهما شئت وأحببت"(٢).

ثم ما لبث أن أضاف مهددًا: "وإنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابًا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهون"(٣). وحاول جستنيان الثانى إغراء عبد الملك بقبول عرضه حينما زاد قيمة الهدية التى بعثها إليه ثلاث مرات على التوالى، ولكن المسألة عند عبد المللك كانت تتجاوز الهدية إلى تنفيذ سياسة عليا للدولة الإسلامية، كان قد أخذ نفسه بها(٤).

وغضب عبد الملك لرسالة الإمبراطور وتهديده، وخشى اضطراب العملة بسبب هذا التهديد، وما قد يحدثه ذلك من أثر سيئ فى نفوس المسلمين، وبدأ يجمع مستشاريه الذين أشاروا عليه بالتمسك بما أحدثه على الورق، وأن يحرم دنانيرهم ويسك عملة خاصة بالدولة الإسلامية(٥).

---

(١) أسد رستم الروم، جـ ١، ص ٢٦٦.
(٢) حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين، مرجع سابق، ص ٣٥، نقلاً عن البيهقى (المحاسن والمساوئ)
(٣) البلاذرى، مصدر سابق، ص ٢٤١.
(٤) المنتظم، مصدر سابق، جـ ٦، ص ١٤٨.
(٥) تجمع معظم المصادر أن الذى أشار على الخليفة بذلك هو خالد بن يزيد بن معاوية، مثل البلاذرى (ص ٢٤١)،ابن الأثير (الكامل، جـ ٤، ص ٥٣)، ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ١٧٧)، ابن خلدون (جـ ٣، ص ١٠٠) بينما يذكر حسان حلاق نقلا عن البيهقى (المحاسن والمساوئ، جـ ٢، ص ٢٣٥) أن الذى أشار بذلك رجل فاضل هو محمد بن على بن الحسين الباقر (تعريب النقود والدواوين، ص ٣٦)

والواقع أن إقدام عبد الملك على إصدار عملة خاصة بالدولة الإسلامية يشكل قضية هامة فى الصراع بين الدولتين شغلت جانبًا كبيرًا من نقاشات الباحثين والمؤرخين، فقد اعتبر أحدهم أن الأمويين بإصدارهم لهذه العملة قد هدفوا إلى شن حرب اقتصادية على الدولة البيزنطية(١) وتوجيه ضربة عنيفة لها، لأن استقلال الدولة العربية الاقتصادية، وامتلاكها لعملة خاصة يشكل خسارة كبيرة تضاف إلى خسائر بيزنطة العديدة فى مواجهتها للمسلمين(٢) كما أن ذلك كان بمثابة ثورة على الأوضاع النقدية، وبالتالى على الأوضاع الاقتصادية لعالم البحر المتوسط الذى سيطر عليه الصولد والنوميسما البيزنطيان(٣).

وهناك من يؤكد على الدافع السياسى لهذا العمل، فقد كانت الدولة الأموية فى عهد السفيانيين مشغولة بالسياسة الداخلية للدولة، فتركت الأوضاع الاقتصادية على حالها، وحين انتقل الحكم إلى المروانيين، واستقرت أوضاع الدولة فى عهد عبد الملك، بدأ يفكر فى إجراء إصلاح اقتصادى، فما أن تغلب على الأخطار التى كانت تهدده حتى انتهج سياسة جديدة، إذ قرر أن يستفيد من الأساس الاقتصادى الذى نتج عن اتساع الدولة لتحقيق غرضين هامين هما: تقوية السلطة المركزية وإرضاء العناصر العربية المحافظة التى كان معظمها يؤيد أعداء أسرته(٤).

لذلك فإن إصداره لعملة عربية، كان ضرورة لاستقلال الدولة، إلى جانب كونه رمزًا شائعًا ومحسوسًا يعبر عن جانب هام من اختصاص السلطة الحاكمة، ويعطيها الثقة الكاملة والضمان من التزييف، وهو مورد للدخل العام للدولة(٥)

---

(١) أرشيبالد لويس، القوة البحرية، مرجع سابق، ص ١٣٤ .
(٢) فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٣٩.
(٣) وسام فرج العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٣٠٣.
(٤) لوبيز: محمد وشارلمان: إعادة نظر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ترجمة توفيق اسكندر (دار المعارف، القاهرة ١٩٦١م)، ص ١٠٧.
(٥) المرجع السابق، ص ١١٨.

ثم إن عبد الملك لم يأت بشئ جديد، فقد عرفت الدولة الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين، وبدايات الدولة الأموية، سك العملة، ولكنها كانت على الطراز البيزنطى، ولم تكن كثيرة الانتشار، وكان استعمالها يقتصر على الداخل فقط، ولذلك لم تثر تلك النقود أى معارضة من الدولة البيزنطية[١]، ولكن الخطوة الجديدة لعبد الملك بما حملته من تغيرات وأهداف لإحلال عملة إسلامية جديدة محل تلك البيزنطية – التى كانت متداولة فى الدولة الإسلامية – هو الذى أثار الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورها، فعبد الملك بن مروان كان يهدف إلى تعريب دور السك وتعريب النقود التى تتداولها كافة الشعوب الإسلامية، والتوقف عن الدوران فى فلك العملة البيزنطية أو الارتباط بأسعارها وأوزانها[٢].

كان الخليفة يهدف إلى تحقيق الاستقلال المالى للدولة وإزالة المفاسد الاقتصادية وسلامة العملة، وتوفير الشروط للنمو الاقتصادى وانتشار الرخاء[٣].

وهناك من يرى أن تفكير عبد الملك فى تعريب النقود كان خطة مرسومة للتخلص من الإتاوة المفروضة عليه من قبل جستنيان الثانى، فقد قدر أن الإمبراطور البيزنطى لن يقبل ولو شكليًا مثل هذه النقود ذات الطابع الإسلامى، وقد أقدم على هذه الخطوة بعد شعوره بالقدرة على مواجهة البيزنطيين بعد أن قضى على الخارجين على حكمه[٤] فى الوقت الذى يرى فيه ثيوفانيس أن العرب لم يختاروا نقض الصلح ولكن خطيئة الإمبراطور وطيشه هما اللذان دفعا إلى الحرب[٥].

وعلى أية حال، فأيًا كانت الأسباب التى دفعت بالمسلمين إلى سك عملة إسلامية جديدة فإن الإمبراطور البيزنطى الذى كان مغرورًا بقوة الجنود السلاف

---

(١) عبد الرحمن فهمى، مرجع سابق، ص ٢٣، حسان حلاق، مرجع سابق، ص ٢١.
(٢) حسان حلاق، مرجع سابق ص ٣٧.
(٣) محمد ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان، مرجع سابق، ص ٢٢٢.
(٤) Gibbon.Op. Cit., Vol. III, P. 214.
(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 510.

الذين استطاع ضمهم إلى قوته العسكرية رفض استلام الإتاوة بالعملة الجديدة، وقرر الزحف بجيشه المختار، وكل فرسان الثيمات، حيث أبحر من القسطنطينية إلى مدينة سباستبول (Sebastopolis)[١]، والتى تقع فى آسيا الصغرى على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين.

واستجاب المسلمون لهذا التحدى العسكرى سبق تقدم محمد بن مروان شقيق الخليفة وواليه على الجزيرة وأرمينية[٢]، بالجيوش الإسلامية والتقى الجيشان، وكان يقود الجيش البيزنطى الإمبراطور جستنيان الثانى واستعاض المسلمون عن الأعلام بتعليق نسخة من المعاهدة بينهم وبين الروم على رمح، ويبدو أن ذلك أغرى الإمبراطور جستنيان، بأن العرب لا يستطيعون الحرب ولا يرغبون فيها، وجعله يرفض الاستماع إلى مطالبتهم بتحكيم المعاهدة، فقد كان متلهفاً إلى خوض الحرب[٣]، وسرعان ما التحم الجيشان وكاد الإمبراطور جستنيان الثانى أن يحقق الانتصار ولكن سرعان ما انقلبت نتيجة المعركة لأن المسلمين استطاعوا الاتصال بالسلاف الذين كانوا عماد الجيش البيزنطى، وأغروا بعض قادتهم بالانضمام إليهم وترك الإمبراطور، ويبدو أن السلاف نتيجة للهزيمة القريبة التى تعرضوا لها أمام البيزنطيين، وسوء معاملة الإمبراطور لهم، ونقلهم من بلادهم إلى آسيا الصغرى، كانوا مهيئين لخيانة مثل هذه[٤]، حيث انحاز عشرون ألفاً منهم إلى جانب المسلمين

---

(١) تقع هذه بين سبسطية وسيواس في أرمينيا الثانية على الحدود بين الدولتين، وتعرف حاليًا باسم "سولو سراى" Sulusaray وهى على مقربة من البحر الأسود: أسد رستم، الروم جـ١، ص ٢٦٧.

(٢) البلاذرى، مصدر سابق، ص ٢٠٩. اليعقوبى، جـ٢ ص ٢٨١. ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٤١. الطبرى، ص ٢٠٢ المنتظم جـ٨، ص ١٤٩.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٤) تذكر الدكتورة عائشة أبو الجدايل (الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٨) باستغراب أن ثيوفانيس ذكر قولاً غريبًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يقود جيش المسلمين، وأنه أغرى قائد السلاف بالمال، وبذل له الوعود؟! وبالعودة إلى ثيوفانيس (P.511) ونجد أنه فعلاً ذكر اسم محمد مجردًا من أى صفة، وهذا هو الواقع إذ أن قائد المسلمين كان محمد بن مروان، ولعل سبب خلطها، واعتبارها ذكر ثيوفانيس لاسم محمد أنه كان يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم أنها لم تكن تعرف اسم قائد المسلمين فى معركة سباستول، وهو ما أشار إليه ثيوفانيس، وما أشارت إليه المصادر الإسلامية المذكورة فى الهامش رقم (٢) من هذه الصفحة بشكل واضح.

وقاتلوا فى صفوفهم، مما أدى إلى هزيمة سريعة للإمبراطور، وجعله يفـر مـن أرض المعركة مدحورًا(١).

لقد استطاع المسلمون أن ينفذوا إلى داخل المعسكر البيزنطى ويستغلوا حالة السخط والاستياء التى كان السلاف يعـانون منهـا بـسبب سياسـة الإمبراطـور جستنيان، وضغوطه عليهم، فاتصلوا بالقائد السلافى جيبولوس Gebulus، وأقنعـوه بالانقلاب على الإمبراطور، حيث انحاز إليهم ومعه عشرون ألف مقاتل سـلافى، مما قلب ميزان الحرب لصالح المسلمين، فحققوا انتصارًا كبيرًا (٢).

وكان لهذه المعركة الحاسمة، والتى وقعت سنة ٦٩٣م /٧٤٠هـ نتائج هامة وكبيرة على المعسكرين والدولتين الإسلامية والبيزنطية، فقـد تخلـصت الدولـة الإسلامية من الجزية التى كانت مفروضة عليها(٣). وأدى هذا الانتصار إلى ارتفاع شأن المسلمين حيث أصبح الباب مفتوحًا أمامهم واندفعوا عبر جبال طوروس داخل آسيا الصغرى، وحققوا انتصارات أخرى كبيرة(٤) وكان من نتيجة هـذه الهزيمـة كذلك أن ثار الزعيم الأرمنى سيمباد Simbatius على البيـزنطيين وانـضم إلـى المسلمين، وعادت أرمينيا التى كانت تابعة للدولة البيزنطية، مجددًا إلـى الحمايـة الإسلامية(٥) . مما أضاع كل الانتصارات التى استطاع قسطنطين الرابع تحقيقهـا فى السابق(٦).

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٢) Finaly, Op. Cit., I. P.389.

(٣) أسد رستم، الروم، جـ١، ص ٢٦٧. وسام، فرج، العلاقات البيزنطية الأموية، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 332.

(٥) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.407.

(٦) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 131 وكذلك Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 218.

وعلى الجانب الحضارى فإن من نتائج هذه المعركة أن أصبح الطريق ممهدًا أمام المسلمين للانطلاق فى جوانب أخرى من التعريب، حيث عربت الدواوين، وأسندت المناصب إلى المسلمين، وبدأت الدولة تستكمل مقوماتها(١).أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية فإنها قد فقدت موردًا ماليًا كان يأتيها سنويًا عن طريق الإتاوة التى كانت تتسلمها من المسلمين، والأهم من ذلك هو المهانة الكبيرة التى لحقت بها وحالة الاكتئاب الشديد التى تعرض لها الإمبراطور جستنيان الثانى حتى وصل غضبه والرغبة فى الانتقام أنه أمر بقتل بقية السلاف الذين ظلوا على ولائهم له، عقابًا لهم بما ارتكب أبناء جلدتهم من خيانته، فعند وصوله فى انسحابه إلى منطقة ليوكاتا Leucata بالقرب من خليج نيقوميديا، أمر بإعدام بقايا السلاف وكذلك إعدام زوجات وأطفال أولئك الذين خذلوه وانضموا إلى المسلمين(٢).

فى الوقت الذى أكرم فيه المسلمون أولئك السلاف الذين انضموا إليهم، واستفادوا منهم فى تحركاتهم القادمة فى آسيا الصغرى، حيث أثبتوا مهارة فى معرفتهم بـ "طوبغرافية" آسيا الصغرى، وقد أسكنوهم على الساحل السورى وفى جزيرة قبرص، فنجحوا وأثروا ثراءً كبيرًا(٣).

وعادت الصوائف والشواتى الإسلامية مرة أخرى بعد طول توقف، حيث واصل المسلمون هجماتهم فى جوف آسيا الصغرى، وسيرت من جديد صائفتان فى عامى ٧٥، ٧٦ هـ / ٦٩٤، ٦٩٥م واقتصر رد بيزنطية على غزو فاشل لمرعش عام ٦٩٥م / ٧٦هـ مما عد دليلاً على الضعف الذى عاشته الإمبراطورية البيزنطية(٤).

---

(١) عبد المنعم ماجد، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٦٩.

(٢) Theophanes, Op. Cit., P. 511.

(٣) أسد رستم، الروم، جـ١، ص ١٦٧. إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٨٠، Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 323.

(٤) وديع فتحى عبد الله: العلاقات السياسية، مرجع سابق، ص ٧٤.

على الجانب الآخر فتح هذا النصر الباب أمام المسلمين للتوسع في فتح أفريقيا حيث تراجعت الأساطيل والجنود البيزنطيون، واستطاع المسلمون استكمال فتح شمال أفريقيا[1].

كما أن هذه الهزيمة كانت مؤشرًا خطيرًا على فشل سياسة الاستيطان التى أقدم عليها الإمبراطور جستينيان الثانى عندما أرغم المردة والصقالبة (السلاف) وغيرهم على هجر مواطنهم التى عاشوا بها وتربوا فيها والنزول فى أقاليم لم يألفوها[2]، وكبد خزانة الإمبراطورية وإدارتها مبالغ طائلة من الأموال، وجهدًا كبيرًا مقابل نقل هؤلاء واستقرارهم.

---

(١) د عبد المنعم ماجد: مرجع سابق، جـ٢، ص ١٧٦.

(٢) حسنين ربيع، الدولة البيزنطية، مرجع سابق، ص ٩٧

الثورة على جستنيان الثانى، ونفيه:

كان من أهم نتائج هزيمة جستنيان الثانى فى موقعة سباستبول، ما انحدرت إليه الإمبراطورية من انهيار فى أوضاعها الداخلية، فقد أصبح الإمبراطور يشك فى كل من حوله، حتى المقربين إليه، لذلك فعندما ارتاب فى قائده الكبير ليونتيوس Lenottius أمر بإلقائه فى السجن، رغم أن هذا القائد خدمه بإخلاص[١].

وأصبح الامبراطور مكروهًا من جميع الطبقات، من الجيش ومن الأرستقراطية ومن العامة، وقد اكتسب عداوة الجيش من ملاحظة الجنود لانتقامه العنيف من السلاف، ومن القائد البيزنطى الذى خدم بإخلاص، كما اكتسب عداوة الطبقة الأرستقراطية بسبب السياسة الخاصة بجعل صغار الملاك العسكريين والفلاحين الأحرار هم العمود الفقرى للإمبراطورية، كما أن سياسته تظاهرت بكونها ضد الأرستقراطية بوجه عام، فقد هددت إجراءاته الاقتصادية الطبقة الأرستقراطية بالدمار الشامل، فى الوقت الذى لم تحقق رضاء العامة، لذا فقد كان مكروهًا من جميع الطبقات[٢].

ورغم الأزمة الداخلية التى عانت منها الإمبراطورية فإن جستنيان الثانى كان مهتمًا بالتشييد والبناء للمرافق التى تخصه، فقد استكمل بناء القصر الإمبراطورى، وشيد قاعتين غاية فى الاتساع والفخامة ليربط قاعة العرش Chrysotriclinium بقصر داخلى وحلبة سباق الخيل Hippodromos، وأطلق على إحدى القاعتين اسم Lausiacus وعلى الأخرى اسم Triclmium[٣]. وجاءت قمة الاستفزاز حين قرر الإمبراطور سنة ٦٩٤م / ٧٥ هـ هدم كنيسة فى القسطنطينية

---

(١) Oman, Op. Cit., P. 175 ومن هذه الأدوار تحقيقه عدة انتصارات على المسلمين لمزيد من التفاصيل انظر: Theophanes, Op. Cit., P. 501

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 140

(٣) Finlay, Op. Cit., P. 391 وأيضًا: عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٩٠.

ليقيم فى مكانها قصرًا له، وكلف بطريـرك القـسطنطينية كـاليكوس Kallinikos (٦٩٤ – ٧٠٥م / ٧٥ – ٨٧هـ) أن يصلى على الكنيـسة قبـل هـدمها، فتـردد البطريرك، ولكن الإمبراطور أجبره على ذلك، وبعد الصلاة تم الهدم ليشرع فـى بناء القصر[١] ليكتسب الإمبراطور بذلك عدوًا جديدًا هو رجال الدين والكنيسة.

لقد تحولت القسطنطينية فى عهد جستنيان الثانى إلى سجن كبير، فإلى جانب تصرفاته الطائشة، واصل الوزيران السيئان، تيودوتوس، سـتيفانوس، إرهابهمـا للمواطنين، وتفننا فى ابتكار وسائل التعذيب والإرهاب، والتى كان منها أن يعلـق الذين يمتنعون عن دفع الضرائب فوق دخان النار[٢] وأحاطت بالإمبراطور الـذى ملأ سجونه بالمعتقلين من المواطنين ومن رجال الجيش عوامل السخط والكراهية، وتعالت نذر الثورة التى تنادى بالانعتاق من جبروته وتـسلط وزيريـه، وتطالـب بإبعاده عن الحكم.

قام الإمبراطور جستنيان الثانى سنة ٦٩٥م / ٧٧ هـ بصورة مفاجئة بإطلاق سراح قائده لونتيوس Leontios، بعد أن مضى ثلاث سنوات فى الـسجن، وعينـه قائدأ لثيم هيلاس Hellas[٣]

وكان ليونتيوس فى آخر ليلة من ليالى سجنه، وقبل أن يعلم بإطلاق سراحه قد تلقى نبوءة من أحد أصدقائه من المتصلين بالكنيسة والذى زاره فى السجن، بأنه سيصبح إمبراطورًا، ولكنه رد بأنه يتوقع الموت فـى أى لحظـة، لا أن يـصبح

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 513.

(٢) Ibid.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 514، وهناك من يعتبر أن إطلاق سراحه وتعيينه جاء ذريعة لنقله من العاصمة لكى يقتل فى مكان ناء دون محاكمة (Bury, Op. Cit, Vol. II, P. 328) ويذكر الدكتور أسد رستم باسم لاونديوس (الروم، جـ ١، ص ٢٧٠). وكذلك يسميه راسيمان، (الحضارة البيزنطيـة، ص ٤١)

إمبراطورًا[١] وعندما أطلق سراحه، وكان يستعد للانتقال إلى ثيم هيلاس، تلقى ليونتيوس نصيحة من راهب اسمه بولس، ليضرب ضربة جريئة وينقلب على الإمبراطور، خاصة وأن الشعب والجيش يسيرون وراءه ويؤيدون أى تحرك يقوم به[٢].

وكانت القسطنطينية مهيئة فعلاً للعب دور مثل هذا، فسارع ليونتيوس لجمع أصدقائه وخدمهم، وهاجم بهم السجن الذى كان يعج بالمساجين وكان معظمهم من الجنود الذين قضى بعضهم ست أو ثمان سنوات فى السجن، واستطاع أن يخلصهم ومدهم بالسلاح، حيث انطلقوا من هناك لمهاجمة قصر الإمبراطور وهم ينادون:

"كل النصارى إلى كنيسة أيا صوفيا" وأرسل مندوبين إلى المناطق الأخرى لينادوا بهذا النداء، وانضم إليهم العامة والساخطون، لينقض الجميع على القصر الإمبراطورى[٣]،ويبدو أن الحرس قد أخذتهم الدهشة، أو لعلهم كانوا مشاركين فى السخط، فلم تكن هناك مقاومة على الإطلاق[٤]

وسرعان ما تم القبض على الإمبراطور جستنيان الثانى، وعلى وزيريه المكروهين، حيث تم اقتيادهم فى صبيحة ذلك اليوم من أواخر عام ٦٩٥م / ٧٧هـ

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 514، قد لا تكون نبوءة، بل يبدو أن الكنيسة التى كانت حانقة على الإمبراطور كانت تخطط لشئ ما.

(٢) أسد رستم، الروم، جـ١، ص ٢٧٠، هذا يؤكد ما ذهبنا إليه فى الهامش السابق، بأن الكنيسة كانت تخطط لشئ ما، ففى المرة الأولى يتنبأ أحد رجالها لليونتيوس، وفى المرة الثانية ينصحه راهب بالثورة على الإمبراطور، وسنرى بعد ذلك أنها تبادر إلى تعيينه إمبراطورًا!

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 515

(٤) Oman, Op. Cit., P. 175

إلى ساحة سباق الخيل، وفى حضور جماهيرى كبير، تقرر عزل الإمبراطور – بعد حكم استمر ١٠ سنوات – وجدع أنفه، ونفيه إلى مدينة خرسون Cherson(١).

أما بالنسبة للوزيرين المكروهين فقد تم تسليمهما للعامة والساخطين حيث قاموا بتعذيبهم فى الشارع الرئيسى للعاصمة، ثم إشعال النار فيهما فى منطقة تسمى Bovis فى العاصمة البيزنطية(٢). ونادى المجتمعون هناك وبالذات رجال الدين بـ "ليونتيوس" إمبراطورًا على الدولة البيزنطية(٣).

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 515 ويبدو أن ليونتيوس قد أخذته الرأفة بالإمبراطور جستنيان فاكتفى بجدع أنفه ونفيه، إكرامًا لوالده قنسطنطين الرابع، بسبب الفوائد التى نالها فى عهده. ويبدو أن التشويه الذى حدث لجستنيان لم يكن شديدًا فما حدث للسانه لم يحرمه من القدرة على الكلام. كما أن جدع الأنف لا تعنى إزالتها بالكامل، وإنما كان الغرض منه إحداث عاهة تمنعه من العود لممارسة الحكم.
والمعروف أن عقوبة جدع الأنف وسمل العين من العقوبات التى كانت معروفة فى بيزنطة. وبسبب هذا التشويه أصبح جستنيان يعرف بالأشرم أو المجدوع الأنف، أو باليونانية رانيو تمتوس Rhinotemeus. =وتذكر إحدى الدراسات التاريخية أن جستنيان الثانى عندما كان فى السادسة والعشرين من عمره أصيب بمرض فى الأنف "رهنوكوبيا Rhino Kopia" وتعرض لآلام قاسية، وكان شديد الحساسية من أنفه، وعاش خائفًا من تشويه يصيبه فى أنفه، ويدوم معه مدى الحياة، فهل كانت هذه العقدة التى أصابته معروفة لدى الذين نفذوا فيه هذه العقوبة؟! عن مرض جستنيان انظر Head, Op. Cit, P.32. أما مدينة خرسون التى نفى إليها الإمبراطور فتقع فى شبه جزيرة القرم على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود، انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II, PP. 409, 410.

(٢) Theophanes, P. 515.

(٣) Ibid

الإمبراطورية البيزنطية في فترة مغتصبي العرش:

لقد كان هناك عاملان حاسمان وراء النهاية التى انتهى إليها الإمبراطور جستنيان الثانى، وأدت إلى الثورة عليه ثم جدع أنفه ونفيه إلى مكان ناء. كان العامل الأول هو تداعيات الهزيمة التى تعرض لها الإمبراطور أمام المسلمين فى معركة سباستبول الحاسمة والتى قادها بنفسه، وكيف أن هذه الهزيمة حولت الإمبراطور إلى شخص قلق متشكك فى كل من حوله ولم يعد يثق حتى فى أقرب المخلصين له. وكل ذلك انقلب إلى نزعة انتقامية شديدة اكتوى بنارها كثير من الجنود والقادة وكبار الموظفين فى القسطنطينية، وسبق أن ذكرنا أن شخصية الإمبراطور تميل إلى سرعة الاستثارة والميل الشديد لاستخدام العنف وعدم التروى أو الاتزان، مما أثر فى قراراته وتصرفاته.

والعامل الثانى هو السياسات الداخلية التى اتبعها الإمبراطور، فقد كان لها مردود عكسى سيئ، فمن طبقة النبلاء والأرستقراطية والإضرار بمصالحهم، وزيادة الضرائب والتشدد فى تحصيلها، إلى التورط فى مشروعات كبرى أثقلت كاهل الخزينة الإمبراطورية، والعمل على تمويل هذه الخزينة الخاوية بفرض مزيد من الضرائب والتعسف فى جمعها وتحصيلها، لإرضاء شغف الإمبراطور بالبناء والتشييد حتى يضاهى عهده عهد سميه جستنيان الأول، كل ذلك أدى إلى سخط المواطنين بمختلف طبقاتهم وفئاتهم، ولم يكن هناك أى طبقة سواء الجنود أو النبلاء أو رجال الدين أو العامة، تهتم ببقائه أو الولاء له. والواقع أن الإمبراطور جستنيان الثانى قد أدخل الدولة فى أتون من الفوضى والاضطراب، وأسهم بشكل فعال فى حرمان الدولة من جميع المكاسب والانتصارات ومزايا الاتفاقيات التى حققها والده قنسطنطين الرابع خلال فترة حكمه، ولم يستطع المحافظة عليها أو استثمارها بما يعود بالنفع على دولته وعلى علاقاتها الخارجية أو سياستها الداخلية.

بل إن هذه الفوضى التى شهدتها فترة حكم جستنيان الثانى ستستمر – كما سنرى – طوال السنوات العشر التى تلت نفيه إلى خرسون، ثم ستتواصل بعد عودته مرة أخرى وتمكنه من استعادة عرشه، وتستمر حتى تؤذن بالسقوط النهائى للأسرة الهرقلية التى حكمت الإمبراطورية قرابة القرن.

تسلم ليونتيوس العرش البيزنطى مدعومًا بتأييد الشعب والكنيسة ورجال الجيش[١]، وبدأ محاولته لإعادة ترتيب الأمور وبث الاستقرار فى أجهزة الدولة، ورغم أن التركة كانت ثقيلة جدًا، إلا أن الإمبراطور الجديد نجح إلى حد معقول. ولكونه عسكريًا متمرسًا فقد حفل سجله بالانتصارات، وبادر إلى تحسين الأسطول البيزنطى إحساسًا منه، وتوقعًا لجولة جديدة من الصدام مع المسلمين[٢]

والواقع أن السنتين الأوليين من حكم ليونتيوس مرت بسلام، ثم ما لبثت المشكلات أن توالت دفعة واحدة فى السنة الثالثة والأخيرة من حكمه، لتقتلعه من العرش، وتدخل الإمبراطورية فى طور جديد من الفوضى.

ففى سنة ٦٩٧م / ٧٨ هـ ثار سرجيوس Sergius حاكم مقاطعة لازيقا Lazica الواقعة عند نهاية الحد الجنوبى الشرقى للبحر الأسود، وأخذ يتقرب من المسلمين، ويظهر خضوعه لهم[٣].

وبدأ المسلمون يزحفون على آسيا الصغرى بجيش كبير غزاها يحيى بن الحكم فى صائفة ذلك العام[٤]، وحقق انتصارات كبيرة. وفى الوقت نفسه أرسل عبد الملك بن مروان جيشًا كبيرًا إلى أفريقيا بقيادة حسان بن النعمان الذى استطاع

---

(١) يذكر أسد رستم أن البطريرك كالينكوس عند مباركته لتعيين ليونتيوس قال: "هذا هو اليوم الذى صنعه الله" (الروم، جـ ١، ص ٢٧٠). ومما يذكر ان الإجماع الشعبى كان كبيرًا، وأن حزب الزرق هم الذين بادروا إلى مبايعة ليونتيوس إمبراطورًا، وكذلك فإن الجنود سرعان ما قاموا بتأييد هذه المبادرة مندفعين بحبهم وتقديرهم لقائدهم السابق، وسخطهم على تصرفات الإمبراطور.

(٢) وسام فرج، العلاقات بين الإمبراطورية والدولة الأموية، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 516.

(٤) الطبرى، جـ ٦، ص ٣٢١. ابن الجوزى ، المنتظم، جـ ٦ ص ٢٠٢.

أن يستعيد القيروان، وأن يستولى على قرطاجنة وأن يخربها، ولم يكن ذلك سهلاً على الإمبراطور البيزنطى خاصة وأنها كانت أهم المعاقل البيزنطية فى شمال أفريقيا[١]، ولذلك سارع الإمبراطور ليونتيوس إلى إعداد حملة بحرية كبيرة، وبذل جهدًا كبيرًا فى إعدادها، واختار لقيادتها واحدًا من أشهر قواد الإمبراطورية وأقدرهم هو بطريق صقلية يوحنا Patricius Jean[٢]. وكان المسلمون قد قاموا بإغلاق المدخل البحرى إلى الميناء بسلسلة قوية، إلا أن يوحنا نجح فى كسر هذه السلسلة ومهاجمة المدينة وطرد الحامية الإسلامية منها، بعد أن تعامل معها بقسوة كبيرة[٣].

وارتكن يوحنا إلى السهولة التى استطاع بها استعادة المدينة، لذلك لم يقم بأى مجهود لمحاولة تحصينها وقضى بها فصل الشتاء وهو مطمئن إلى عدم عودة المسلمين إليها، وشعرت معه الإمبراطورية البيزنطية بأنها قد استعادت سيطرتها على شمال أفريقيا.

ولكن عبد الملك بن مروان الذى يحيط بأوضاع الإمبراطورية البيزنطية وتراجع إمكانياتها العسكرية، سرعان ما بعث بمدد عسكرى بحرى وبرى إلى قائده حسان بن النعمان وذلك سنة ٧٩هـ / ٦٩٨م ، ولم تستطع السفن البيزنطية، التى وجدت نفسها مرغمة على الخروج من الميناء، المقاومة حيث دارت معركة بحرية كبيرة انتصر فيها المسلمون[٤]. واضطر البيزنطيون للانسحاب إلى جزيرة كريت فى البحر المتوسط، حيث عادت قرطاجنة مرة أخرى إلى يد المسلمين، وتحطمت آمال البيزنطيين باستعادة شمال أفريقيا.

---

(١) د. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٢) Theophanes, P. 516. أرشيبالد لويس، القوى البحرية، مرجع سابق، ص ١٠٠

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، مصدر سابق، ص ٢٠١.

(٤) أرشيبالد لويس، مرجع سابق، ص ١٠٠. وكذلك: Ostrogorosky, Op. Cit., P. 141

وفى كريت حدثت حادثة أكدت على استمرار الفوضى فى الإمبراطورية البيزنطية، وضعف سيطرتها حتى على قواتها العسكرية، فقد قام جنود الأسطول البيزنطي الذى انسحب إلى كريت – تحت وطأة الخوف من انتقام الإمبراطور لهزيمتهم، وعدم تمكنهم من تحقيق تطلعاته فى استعادة الممتلكات البيزنطية فى شمال أفريقيا – برفض العودة إلى العاصمة، ومن ثم إعلان التمرد والانقلاب على القائد يوحنا وقتله(١)، ثم سارعوا إلى تنصيب واحد منهم قائدًا عليهم، ليتطور الأمر إلى المناداة به إمبراطورًا على القسطنطينية(٢).

كان أبسيمار Apsimaros، القائد البحرى (Droungarios) لثيم كبير هايوت(٣)، هو الذى تم اختياره وإعلانه ليكون إمبراطورًا جديدًا، والذى سارع إلى جمع الجنود والإبحار بهم إلى القسطنطينية وعند وصولهم إليها قاموا بمحاصرتها.

ويبدوا أن الإمبراطور ليونتيوس استطاع أن ينظم مقاومة شعبية لتعطيل دخولهم إلى المدينة، والتصدى لهم لبعض الوقت، إلا أن القسطنطينية ما لبث أن سقطت نتيجة لرشوة قدمت لبعض حراس الأبواب(٤). وعند دخولهم إليها استباحها الجند، وقاموا بسلب السكان ونهب بضائعهم ومساكنهم، واستمرت الفوضى عارمة طوال أربعة أشهر، حتى استطاع أبسيمار السيطرة على العاصمة بفضل تأييد حزب الخضر له(٥).

---

(١) Theophanes, Op. Cit., P. 517.

(٢) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(٣) Theophanes, Op. Cit., P. 517. ويذكر أسد رستم أنه نائب القائد العام للأسطول وليس قائد ثيم كبيرهايوت (Kibyraiots) (الروم، جـ١، ص ٢٧١)

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 354

(٥) Theophanes, Op. Cit., P. 517 ويلاحظ أن حزب الزرق هم الذين أيدوا الإمبراطور السابق ليونتيوس، وسارعوا إلى إعلانه إمبراطورًا، بينما سارع حزب الخضر إلى تأييد أبسيمار وإعلانه إمبراطورًا فهل معنى ذلك أن الأحزاب عادت مرة أخرى للتدخل فى المسائل السياسية والصراع السياسى، أى استعادت الدور الذى كانت تقوم به قبل مجئ هرقل إلى الحكم، وقيامه بالقضاء على هذا الدور، وقصر على إحياء الحفلات والمشاركة فى سباق العربات؟! يبدو أن ذلك ما حدث، وأنه كان نتيجة من نتائج الفوضى التى دخلتها الإمبراطورية فى أواخر أيام أسرة هرقل، حيث عاد هؤلاء إلى التدخل فى الأمور السياسية.

للتعرف على موقف الإمبراطور هرقل من هذه الأحزاب وضربه لأدوارها، راجع الفصل الأول ص (٧).

وتمت المناداة به إمبراطورًا باسم تيبريوس الثالث Tiberius[1].

كان أول أعمال تيبريوس الثالث أن قام بإلقاء القبض على الإمبراطور ليونتيوس، وكرر معه نفس المصير الذى تعرض له جستنيان الثانى، إذ جدع أنفه، ونفاه إلى أحد الأديرة خارج القسطنطينية[2].

وإذا كانت العقوبة التى تعرض لها الإمبراطور جستنيان عقوبة مبررة، إذا قارناها بتلك الأعمال التى ارتكبها ضد المواطنين ورجال الجيش، فإن العقوبة التي تعرض لها الإمبراطور ليونتيوس تبدو غير مبررة، ولم يكن لهما هدف سوى إحداث عاهة مستديمة به تمنعه من العودة للمطالبة بالعرش أو التفكير فيه.

والملاحظة هنا أن عمليتى الاغتصاب التى تعرض لها العرش البيزنطى، أو أسرة هرقل قد جاءت فى المرتين من قائدين من قواد الثيمات العسكرية، فالمغتصب الأول (ليونتيوس) كان قائدًا لثيم الأناضول، وبعد خروجه من السجن، عُين قائدًا لثيم هيلاس، والمغتصب الثانى كان قائدًا لثيم كبير هايوت، وذلك يحمل دلالات كثيرة لعل من أهمها أن الثيمات العسكرية التى كانت فى الأساس من ابتكار الأسرة الهرقلية، ومحل عنايتها واهتمامها، أصبحت قوية وخطيرة لدرجة أن قادتها بدأوا يتطلعون لعرش الإمبراطورية ويصلون إليه. ودلالة أخرى أن طبقة رجال الجيش عادت للانغماس فى السياسة مما أدى إلى مزيد من الفوضى فى الإمبراطورية. لعل التساؤل المشروع هنا، والذى يشكل فى الوقت نفسه دلالة أخرى وهو: أين هو دور مجلس السناتو فى كل ذلك الذى كان يحدث فى العاصمة البيزنطية؟ فمن الواضح أن المجلس لم يكن له أى دور فعال فى مواجهة كل ذلك، وأنه قد أخذ فى التراجع وبدأ يفقد أدواره المؤثرة، فى أعقاب التحجيم الذى تعرض له على يد الإمبراطور قنسطانز الثانى، كما سبق وأوضحنا.

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 354، ويرجع بيورى عدم استعماله لاسمه الصريح وتغييره إلى تيبريوس بأنه اسم "أبسيمار" قد يكون من أصل جرمانى، وأن وجوده على العرش البيزنطى يستدعى أن يغير اسمه إلى اسم رومانى أو يونانى.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 177.

على أية حال أمضى تيبريوس الثالث فى الحكم فترة أطول من تلك التى أمضاها ليونتيوس إذ حكم طيلة الفترة ٦٩٨ – ٧٠٥م / ٧٩ – ٨٦ هـ، ويبدو أنه شعر بعدم قدرته على الصراع مع المسلمين فى جبهتين، فترك شمال أفريقيا نهائيًا للمسلمين، حيث أخذوا يتوسعون فيها وأقاموا بها منشآت وموانئ جديدة، ودورًا لصناعة السفن، ليترسخ فيها حكمهم ويتطلعون منها إلى فتوحات جديدة [١].فى الوقت الذى ركز جهوده على جبهة آسيا الصغرى، واتخذ فيها من الخطوات والوسائل ما يساعده على التصدى للمسلمين.

كان من هذه الخطوات تعيين شقيقه هرقل Herakleios قائدًا عامًا ووحيدًا لكل جنود الثيمات خارج العاصمة، وحمله مسئولية الدفاع عن آسيا الصغرى وخاصة الممرات الهامة فى إقليم قبادوقيا Cappadocia [٢]

ويبدو أن التوفيق قد حالف تيبريوس الثالث، وهو العسكرى والجندى المتمرس فى هذا التعيين، إذا استطاع هرقل أن يكوّن جبهة عسكرية قادرة على التصدى للمسلمين وتحقيق بعض الانتصارات عليهم [٣].

والواقع أن النجاح الذى حالف الإمبراطورية البيزنطية ربما يكون عائدًا إلى تلك الأحداث التى أحاطت بالدولة الأموية فى تلك الفترة، وجعل القوات البيزنطية تتقدم سنة ٧٠٠ م / ٨٠ هـ إلى شمال الشام وتصل فى تقدمها إلى مدينة سميساط حيث ارتكبوا مجازر كبيرة ونهبًا وسلبًا يفوق الوصف [٤].

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 141.

(٢) Theophanes, Op. Cit., p. 517.

(٣) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 355.

(٤) Theophanes, P. 518 ويذكر ثيوفانيس على سبيل المبالغة أن عدد القتلى بلغوا ٢٠٠,٠٠٠ قتيل، وفى الوقت نفسه يشكك فى هذا الرقم، ويذكر مترجم كتاب ثيوفانيس إلى الإنجليزية أن ميخائيل السريانى يذكر أن القتلى بلغوا خمسة آلاف. أما مدينة سميساط فهى على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم على غرب الفرات ويسكنها الأرمن (الحموى، جـ ٣، ص ٢٥٨).

وكانت الدولة الإسلامية قد تعرضت سنة ٧٩هـ / ٦٩٩ م إلى طاعون شــديد ضرب بلاد الشام، وأثر فيها تأثيرًا كبيرًا وأدى إلى وفاة عدد كبير من السكان مما أثر على المجهود العسكرى للدولة الأموية(١). كما تعرضت دمــشق إلـــى أزمــة سياسية حيث اندلعت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث فـــى خراســـان ضـــد الحكـــم الأموى، وامتدت إلى العراق، واستدعت إرسال عدة جيوش، وعدة صدمات حتـــى تم القضاء عليها(٢).

وعندما تخلص المسلمون من آثار هاتين الأزمتين استعادوا زمام المبـــادرة مرة أخرى حيث قاموا سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م بقيادة عبد الله بن عبد الملـــك بغـــزوة استطاعوا فيها فتح المصيصة(٣)، وأقاموا بها حامية إسلامية، وأعـــادو تحـــصينها لأنها كانت مهجورة، وتتمثل أهميتها فى أنها كانت خط الدفاع الأول عن أنطاكيـــة التى كانت تتعرض للهجمات البيزنطية المستمرة(٤).

---

(١) الطبرى، جـ ٦، ص ٣٢٢. ابن الأثير: الكامل، جـ٤، ص ٧٣. ابن الجوزى: المنتظم، جـ ٦، ص ٢٠٣.

(٢) كان عبد الرحمن بن محمد الأشعث أحد الجنود العاملين تحت قيادة الحجاج بن يوســف الثقفـــى والـــى العراق من قبل عبد الملك، وقد بعثه الحجاج، ثم حدث خلاف بينه وبين الحجاج أدى إلى ثورته عليـــه، ورجوعه إلى خرسان ومنها إلى البصرة حيث دخلها وأعلن خلع الحجاج وعبد الملك، وكثر مناصروه ومؤيدوه بعد أن فشل الحجاج فى التصدى له، واستمرت ثورته ثلاث سنوات واستغرقت جهـــدًا كبيـــرًا من الخلافة الأموية حتى أمكن القضاء عليها. لمزيد من التفاصـــيل انظـــر: الطبـــرى جـ ٦ ص ٣٤٢، ٣٦٦. ابن الجوزى: المنتظم،جـ ٦ ص ٢٣١، ٣٤٤. ابن الأثير: الكامل، جـ ٤، ص ٧٧ – ٩٠. ومـــن الجدير ذكره أن ثيوفانيس قد أشار إلى هذه الثـــورة ضـــد عبـــد الملـــك (Theophanes, P. 518)، واعترف بدورها فى تراجع المسلمين العسكرى، وتقدم البيزنطيين، وتحقيقهم بعض الانتصارات.

(٣) الطبرى، جـ٦، ص ٣٨٥.

(٤) فتحى عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق، جـ ١، ص ٣٧٣.

كما أدى سقوطها في يد المسلمين إلى سقوط إقليم أرمينيا الرابعة[1]. والواقع أن منطقة أرمينيا الحدودية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية كانت منطقة تجاذب وتأرجح بين القوتين، ويتغير ولاؤها إلى القوة الأعظم بين فترة وأخرى، وانطلاقًا من هذا التأرجح قام زعماء أرمينيا بالتمرد على الحكم الإسلامي، وأرسلوا إلى الإمبراطور البيزنطي تيبريوس الثالث يطالبونه بإرسال قوة بيزنطية لاستعادة أرمينيا[2]، حيث أرسل قوة عسكرية، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان والذي أزعجه هذا التمرد وما أعقبه من مذابح أرمنية ضد المسلمين، واستنصارهم بالبيزنطيين، سارع إلى بعث جيش بقيادة أخيه محمد بن مروان الذي استطاع إخماد التمرد بعنف وشدة، واستعاد السيطرة الإسلامية على أرمينيا[3].

---

(١) يقسم المؤرخون والجغرافيون المسلمون أرمينية إلى أربعة أقسام هي:

أ – أرمينية الأولى وتتكون من السيسجان، آران، تفليس، برذعة، البيلقان وشروان.

ب– أرمينية الثانية: جرزان، صغدبيل، باب فيروز، قباذ، والكلز.

جـ – أرمينية الثالثة: البسفرجان، دبيل، سراج طير، بغروند، والنشوى.

د – أرمينية الرابعة: شمشاط، خلاط، قاليقالا، أرجيش، وباجنيس.

البلاذري: فتوح البلدان، مصدر سابق، ص ١٩٧، وأيضًا:د عبد الرحمن عبد الغني، الحدود البيزنطية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤.

وأرمينيا الرابعة هو الولاية التي كونها جستنيان الأول واشتملت على مدينة ميافارقين Martyropolis وقلعة كيفاريزون Kitfarizon.

وسام فرج:العلاقات البيزنطية الأموية، مرجع سابق، ص ٥٩.

ويذكر ثيوفانيس أن الذي سلم أرمينيا الرابعة للعرب هو حاكمها الأرمني بانيس Banes (Theophanes, P. 519)

(٢) Theophanes, P. 520

(٣) ابن الأثير، الكامل، جـ ٤، ص ٩٥. وأشار ثيوفانيس إلى هذه المعركة وذكر أن المسلمين انتقموا من زعماء الأرمن وأحرقوهم أحياء (Theophanes, P. 520)، وإن كنا نشك في هذا الانتقام . إلا أن أحد المصادر الإسلامية يذكر أن محمد بن مروان قد قتل منهم خلقًا كثيرًا وحرق كنائسهم وضياعهم، وتسمى هذه السنة سنة الحريق، فالحرق كان للكنائس والضياع وليس للناس فهذا يخالف العقيدة الإسلامية. عن هذه المصادر انظر: العيني: عقد الجمان في تاريخ الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية) نقلاً عن وسام فرج، العلاقات البيزنطية الإسلامية، مرجع، ص ٦٠.

على جانب آخر استطاع هرقل شقيق الإمبراطور وقائد الجيوش البيزنطية في آسيا الصغرى تحقيق انتصار كبير على المسلمين في قليقية سنة ٨٥ هـ/٧٠٤م، وصد تقدمهم الذي كانوا يهدفون من ورائه إلى توسيع منطقة نفوذهم[١].

نستنتج من كل ذلك أن الإمبراطور تيبريوس الثالث قد بذل جهودًا كبيرة في التصدي للمسلمين، واستطاع أن يوفر القوة العسكرية اللازمة لذلك، وأن يصرف اهتمام الجنود والقادة العسكريين إلى الأزمات الخارجية وجبهات الحروب، ليأمن شرهم في الداخل، واستطاع في وقت من الوقات أن يستعيد بعض الأراضي التي فرط فيها الإمبراطوران السابقان[٢].

وانطلاقًا من خبرة الإمبراطور السابقة في الشئون البحرية - حيث كان قائدًا لثيم كبير هايوت - فقد أعطى اهتمامًا كبيرًا للأسطول البحري الذي وفر حماية كبيرة لشواطئ القسطنطينية، كما أنه قام بإعادة تعمير جزيرة قبرص، وأسكن جماعة من المردة الخبيرين بشؤون البحر في سواحل بامفيليا، وأعطى اهتمامًا كبيرًا لثيمه السابق كبير هايوت[٣]. ولكن ورغم كل هذا الاهتمام بالأسطول البحري، إلا أن الإمبراطور يبدو وكأنه قد استسلم لضياع شمال أفريقيا من الإمبراطورية البيزنطية ولم يبذل أي محاولة لاستعادتها.

كان تيبريوس يعيش فترة قلقة في الداخل، بل إن هناك من يفسر سر اهتمامه بالصراع الخارجي ليغطي فشله في الداخل، ولذلك نشط في بعث الجيوش إلى جبهات القتال حتى يصرف الجنود عن التفكير في الانقلاب عليه أو منافسته على العرش، وكان إحساسه بأنه إمبراطور غير شرعي مثار قلقه وهواجسه

---

(١) Theophanes, P. 520، ويبالغ ثيوفانيس في تصوير هزيمة المسلمين ويذكر أن عدد قتلى المسلمين بلغ اثني عشر ألف قتيل.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 177.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.410.

الدائمة[1]. حتى إن ثيوفانيس يذكر أن تيبريوس قام بنفى برادانس Bradanes ابـــن البطريق نيقفوريوس Nikephoros Patrician إلى كافالونيا Kaphaloinia، لأنه حلم بأنه سيكون إمبراطورًا [2]

ويبدو أن قلق تيبريوس كان له ما يبـــرره، إذ أنـــه مـــا لبـــث أن فـــوجئ بالإمبراطور الأسبق، والمنفى ومجدوع الأنف، جستنيان الثانى يعـــود مـــن منفـــاه ويحاصر القسطنطينية على رأس جيش بلغارى يقوده ملكهم تريفل Terbel.

---

(١) Bury. Op. Cit., Vol. II, P. 357.

(٢) Theophanes, P. 519، ويبدو أن أحلامه قد تحققت فيما بعد حيث سيصبح إمبراطورًا فـــى أعقـــاب التمرد الثانى على جستنيان الثانى، تحت اسم فيليبيكوس Philippikos.

عودة جستنيان الثانى إلى العرش البيزنطى:

لم يكن جستنيان الثانى، بما عرف عنه من روح قلقة، وشجاعة مشوبة بالمغامرة، ليستسلم للمصير الذى تعرض له، ولا المنفى الذى أودع به، بل ظل يتطلع لاسترجاع عرشه ومُلك أسرته، الذى سلب منه، ولم يهدأ له قرار وأخذ يبحث عن الإمكانات والأنصار والمؤيدين، ولكنه فشل فى أن يجد ذلك فى خرسون حيث كان منفيًا. ورغم بعده عن القسطنطينية إلا أنه كان شديد الحرص على متابعة كل ما يمر بها من أحداث، ولعل الثورة التى تعرض لها ليونتيوس وإبعاده عن العرش، فتح أمامه آمالاً جديدة بإمكانية عودته إذا توفرت له السبل المساعدة على ذلك، خاصة أنه لم يتعرض لأى حراسة عسكرية مشدوة، ويتمتع بحريته إلى حد ما[١]. ويبدو أن روحه القلقة وتحركاته لفتت انتباه حكام خرسون ومواطنيها بما يعتمل فى داخله، وبأنه كان يتحفز للعودة إلى القسطنطينية، وقدروا خطورة ذلك، خافوا من انتقام الإمبراطور البيزنطى، أو أن تتحول مدينتهم إلى ساحة للقتال أو لتدبير المؤامرات ضد الإمبراطورية البيزنطية، وبدأوا يتحركون فى الاتجاه المضاد، حتى أنهم فكروا فى قتله أو تسليمه إلى الإمبراطور تيبريوس[٢].

وعلم جستنيان بهذه النوايا عن طريق أصدقائه فى خرسون فسارع بالفرار إلى دورا Dora الواقعة فى الشمال الشرقى من كريميا Crimea، وهناك حاول الاتصال بخان الخزر Chazars، طالبا حمايته، وأحسن خان الخزر بوسيروس جليباروس Bouseros Gliabaros [٣] استقباله والترحيب به، وتفهم قضيته، ووعده بالمساعدة، ويبدو أنه فكر فى الاستفادة من هذه القضية خاصة وأنه كان لدولته أطماع سابقة فى أملاك الإمبراطورية البيزنطية، وبالغ الخان فى إكرام جستنيان

Camb. Med. Hist, Vol. II, P.411. (١)

Ostrogorosky , Op. Cit., P.141. (٢)

C. Head., Op. Cit., P. 16. (٣)

حتى إنه زوجه شقيقته، التى دخلت فى النصرانية وأطلق عليها جستنيان اسم ثيودورا Theodora، حتى تكتمل العظمة لديه، ويكتمل تطابقه بالإمبراطور جستنيان الأول وزوجته الشهيرة ثيودورا[١].

ولما علم الإمبراطور تيبريوس الثالث بهذه التطورات التى أقدم عليها جستنيان، وما يمكن أن تشكله من خطورة على عرشه، سارع ببعث سفارة إلى بلاط خان الخزر، تحمل الإغراء والتهديد فى ذات الوقت، ووعد الإمبراطور الخان بالكثير من الهدايا والأموال إذا سلمه جستنيان حيًا أو ميتًا[٢]، وتردد الخان طويلاً، ولكن يبدو أن الإغراء الإمبراطورى قد وافق هوى فى نفسه، كما أنه لم يشأ أن يفسد العلاقات الطيبة التى كانت تربطه بالإمبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة، فقرر أن يستجيب لطلب الإمبراطور تيبريوس الثالث[٣]. وأعد الخان خطة لتحقيق رغبة الإمبراطور، وفى الوقت ذاته تظاهر بأنه يعمل لمساعدة جستنيان، وأرسل قواته إلى فاناجوريا Phanagoria، على الشاطئ الشرقى لبوغاز كيرتش Kertch، حيث استقر جستنيان وأصدر إلى نائبه فى تلك الجهة وإلى حاكم البوسفور، الأوامر لمنع جستنيان من الهروب[٤]. ولكن جستنيان تلقى الإنذار فى الوقت المناسب، إذ أخبرته زوجته بخطة شقيقها لإلقاء القبض عليه، ورضوخه

---

(١) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 358، وثيودورا هى إحدى أشهر الشخصيات فى الإمبراطورية البيزنطية، وكانت راقصة فى المسارح الهزلية بالقسطنطينية قبل أن يتزوجها الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥م)، وكان لها دورها الكبير فى إنقاذ عرش زوجها حيث رفضت الهرب فى أعقاب ثورة (نيقا) التى قامت فى العاصمة ضد الإمبراطور جستنيان، وكان لها دورها الكبير والمؤثر حيث شاركت فى الحكم خلال فترة حكم زوجها، وتوفيت سنة ٥٤٨م نتيجة لإصابتها بسرطان الدم. لمزيد من التفاصيل انظر: الباز العرينى، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٢) Oman, Op. Cit., P. 178.

(٣) وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٧١.

لطلبات الإمبراطور، فسارع بإرسال زوجته إلى أخيها[1]، وعاد للهروب مرة أخرى حيث اتخذ طريقه إلى خرسون فى قارب من قوارب صيد السمك، وهناك انحاز إليه عدد كبير من أصدقائه وأعوانه[2]، وبعد مغامرات عديدة استطاع أن يصل إلى الساحل الغربى للبحر الأسود، واتصل بملك البلغار تريفل.

ورغم مواقف جستنيان السابقة والسيئة من البلغار، إلا أن تطلع زعيم البلغار لضرب الإمبراطورية، جعله يعقد اتفاقًا مع جستنيان الثانى لمهاجمة القسطنطينية[3].

ويتضح من توجه جستنيان الثانى إلى ملك البلغار لمساعدته فى استعادة العرش أنه كان مستعدًا أن يفعل أى شئ وأن يتوجه حتى إلى ألد أعدائه فى سبيل تحقيق طموحاته، ورغم علمه بمدى العداء الذى يكنه البلغار لدولته، ومدى خطورتهم على الإمبراطورية البيزنطية، فإنه لم يجد مفرًا من ركوب الصعب، حتى أنه قدم وعودًا لملك البلغار بتزويجه من ابنته، ووعودًا بالعطايا والمنح[4]. ولا شك أن ملك البلغار قد قابل كل هذه الوعود والمقترحات بالسرور، وأمضى جستنيان شتاء عام ٧٠٤م / ٨٥هـ فى مملكة البلغار يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية[5].

---

(١) تذكر الدكتورة عائشة ابو الجدايل (الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٥) أن جستنيان قد فر إلى ملك البلغار تصحبه زوجته شقيقة خان الخزر، وهذا غير صحيح، فإن تسلسل الأحداث بعد ذلك يؤكد أنه أرسلها إلى شقيقها.

(٢) Ostrogorosky, Op. Cit., P.142.

(٣) أسد رستم، الروم، جـ ١، ص ٢٧٢.

(٤) Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 360 ويبدو أن الزواج لم يتم، إذ اكتفى البلغار بالهدايا والمنح والأموال والأراضى الجديدة التى حصلوا عليها.

(٥) وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٣.

وفي مطلع عام ٧٠٥م / ٨٦هـ استيقظت العاصمة البيزنطية علـــى أســطول ضخم من البلغار والسلاف ومعهم جستنيان الثانى يحاصرون القسطنطينية، ووقف الجيش ثلاثة أيام متتالية عاجزًا عن اختراق أسوار القــسطنطينية الحــصينة، وزاد الأمـــر ســـوءًا بالنسبة لجستنيان أن ادعاءاتـــه ومـــطالبته بالــعرش قد قـــوبلت بالازدراء والسخرية(١).

ولم يستطع الإمبراطور تيبريوس أن ينظم أمر الدفاع عن العاصـــمة، فقــد زاده هذا الحصار ومشهد البلغار وهم يحاصرون المدينة قلقًا وخوفًا، ولم يستفد من الرفض الشعبى لعودة جستنيان الثانى(٢) واستماتت جستنيان الثـــانى فـــى اختـــراق أسوار القسطنطينية، فاستطاع وهو الخبير بجغرافية عاصمته أن يعثر على ممـــر مائى ضيق تسلل من خلاله، وتبعه بعض رجاله الشجعان، ليجد نفسه أمام القـــصر الإمبراطورى المعروف باسم بلاكرن Blacherne، والـــذى غـــادره الإمبراطـــور تيبريوس هاربًا(٣). وبسقوط القصر وهـــروب الإمبراطـــور ســـقطت العاصـــمة، وأصبحت نهبًا للبلغار والسلاف الذين سرعان ما اندفعوا إلى العاصمة البيزنطية(٤).

عاد الإمبراطور جستنيان الثانى إلى عرشه بعد عشر سنوات قـــضاها فـــى المنفى، بعيدًا عن عاصمته وعرشه وملك آبائه وأجداده، ويبدو إن حـــصيلة هـــذه السنوات العشر ستنقلب إلى حقد ورغبة فى الانتقام ملأت صدر جستنيان، وانقلبت وبالاً عليه وعلى الإمبراطورية البيزنطية.

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., P.142.
(٢) Camb. Head., Op. Cit., P. 16.
(٣) Theophanes, P. 523.
(٤) الناصرى، الروم، ص ٢٣٧.

كان أول أعمال جستنيان الثانى أن قام بمكافأة ملك البلغار على موقفه ومساعدته له، فأنعم عليه بلقب قيصر(١)، ومنحه الكثير من الأموال والهدايا، وإعادة الإتاوة التى كانت قد التزمت الإمبراطورية البيزنطية بدفعها للبلغار منذ عهد الإمبراطور قنسطنطين الرابع(٢)، كما منحهم إقليم زاجوريا Zagoria الذى يرجح أنه يقع بين جبال البلقان وخليج بورجاس Gurgas(٣).

ويرى أحد المؤرخين أن هذه المساعدة التى بذلها البلغار لتسهيل عودة الإمبراطور جستنيان الثانى إلى الحكم، والتى فرضتها المصالح المشتركة للطرفين، هى المرة الوحيدة التى كان فيها البلغار مفيدين للإمبراطورية البيزنطية، أو على علاقة حسنة معها(٤) وشهدت العلاقات بين الطرفين تحسنًا ملحوظًا، إلا أن هذا التحسن سرعان ما تبدل، لأن المطامع البلغارية كانت واضحة ودائمة البروز فى العلاقة بين الطرفين، فما هى إلا سنوات قليلة حتى قام جستنيان الثانى سنة ٧٠٨م / ٩٠هـ بخرق اتفاق السلام مع البلغار وجرد حملة لمحاربتهم، ورغم فشل هذه الحملة، إلا أنها أكدت عودة الصراع والتربص بين الطرفين مجددًا(٥).

---

(١) كان لقب قيصر يتلو فى المكانة لقب إمبراطور، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يمنح فيها هذا اللقب لحاكم أجنبي. وهو لقب يعطى لصاحبه الحق بالمشاركة فى التشاريف الإمبراطورية، حيث أتاح هذا اللقب لملك البلغار الجلوس بجانب الإمبراطور وتقبل ولاء البيزنطيين ويقال أن الإمبراطور جستنيان من فرط امتنانه لموقف ملك البلغار، وضع التاج القيصرى على رأسه وألبسه الرداء الأرجوانى الموشى بالذهب: Ostrogorosky, Op. Cit, P.143. وأيضًا: البازالعرينى، مرجع سابق، ص ١٧٢. وسام فرج، مرجع سابق، ص ٦٤

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.411.

(٣) وسام فرج، المسلاف فى شبه جزيرة البلقان، مرجع سابق ص ١٥٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٥٦، وقد تكون المرة الثانية حين قام البلغار بمهاجمة المسلمين، وخيانتهم بعد أن وعدوهم بالتحالف ضد الإمبراطورية البيزنطية. حينما كان المسلمون يحاصرون القسطنطينية فى عهد الوليد بن عبد الملك فى الحملة التى قادها مسلمة بن عبد الملك سنة ٧١٧م – ٩٩هـ.

(٥) Theophanes, Op. Cit.,525.

وكان العمل الأخطر الذى قام به الإمبراطور جستنيان بعد أن استعاد العرش هو إلقاء القبض على الإمبراطورين السابقين ليونتيوس، الذى كان قابعًا فى إحدى الأديرة، وتيبريوس الذى استطاع الفرار من القسطنطينية إلى أبولونيا – وهى إحدى قرى آسيا الصغرى – ولكن هروبه لم يدم إذ تم إلقاء القبض عليه وإعادته إلى القسطنطينية.

وكذلك تم القبض على هرقل القائد العام للثيمات – شقيق تيبريوس – ولم تشفع له الخدمات التى أداها للإمبراطورية، وعلى غيره من القادة العسكريين وأتباعهم ، حيث تقرر شنقهم جميعًا وتعليقهم على أسوار القسطنطينية[١].

ولم يقف انتقام الإمبراطور عند هذا الحد، بل إنه قرر سمل عينى البطريرك كالينكوس، الذى قام بتتويج الإمبراطورين السابقين، ليونتيوس، وتيبريوس الثالث، وطرده بعد ذلك إلى روما[٢].

وقد بالغ المؤرخون البيزنطيون والغربيون فى الحديث عن انتقامات جستنيان الثانى وتفاصيلها البشعة، ورموه بأنه رجل غير مسؤول ومحب للسلطة ومستبد، حتى ذهب البعض إلى المطالبة بإسقاط الفترة الثانية من حكمه باعتبار أنها سنوات لا قيمة لها أتى فيها الإمبراطور الأشرم أعمالاً لا تنسب إلا لرجل مخبول[٣]. ورغم ذلك فهناك محاولة جادة لإعادة الاعتبار للفترة الثانية من عهد الإمبراطور جستنيان الثانى من خلال الدراسة التى أعدتها المؤرخة Constance Head[٤]. وتؤكد فيها أن تصوير الإمبراطور جستنيان الثانى كإمبراطور لا يهدأ له

---

(١) Theophanes. P. 523، ويذكر ثيوفانيس أن عقوبة الموت شملت عددًا آخر من كبار الموظفين، الذين كانوا فى الخدمة أو خارجها ممن تعاونوا مع الإمبراطورين السابقين، وأنه وضع بعضهم فى أكياس وقذف بهم إلى البحر.

(٢) Ibid, 523

(٣) Bury. Op. Cit, Vol. II, P. 330،

(٤) هذه الدراسة بعنوان: Towards A Renterpretation of the Second Reign of Justinian II 705 – 711.

ونشرت هذه الدراسة فى مجلة Byzantion التى تصدر فى بروكسل العدد رقم (39)، عام ١٩٧٠ م، الصفحات (١٤ – ٣٢)

بال بعد قتل كل أعدائه أمر فيه إفراط في الخيال وتجن على الحقيقة [1]. ثم توضح ذلك بقولها: "إنه لجد مثير إيجاد بعض الأدلة المتفرقة من عدة مصادر، تلقى الضوء على العهد الثانى لجستنيان، هذه الأدلة قد لا تعنى الكثير، ولكن لو جمعت مع بعضها نجدها تفتح الطريق إلى إعادة تقييم المفهوم التاريخى السابق عن جستنيان، والذى جعلنا نعتقد بأنه غير مسؤول ومستبد ومحب للسلطة، أو حسبما شنع البعض عنه" [2] ثم تذكر بعض هذه الأدلة فتقول: "كل المؤرخين الذين وصفوا الإعدامات وتفاصليها البشعة، لم يذكروا أن الإمبراطور جستنيان الثانى كان قد عفا عن ثيودسيوس Theodosius ابن الإمبراطور أبسيمار (تيبريوس الثالث) الذى كان أخطر الناس على حكمه، لم يكن من السهل التعرف على هذه الحقيقة حتى صار ثيودسيوس ابن أبسيمار – الأسقف الرافض للإيقونات – أسقفًا لمدينة أفسوس Ephesus ومستشار للإمبراطور ليو الثالث Leo III، وابنه قنسطنطين الخامس"[3].

ثم تتساءل: "لماذا عفا جستنيان الثانى عن ابن الإمبراطور أبسيمار (تيبريوس الثالث)؟! وتجيب: أمر غير معروف حتى الآن، إلا أنه أمر لا ينسجم مع كونه متشف ومنتقم"[4].

ثم تذكر دلالة أخرى، فتقول: "ثمة تناقض آخر غريب لقول مؤرخى الحوليات أن جستنيان الثانى كان عازمًا على الانتقام السريع من كل أعدائه، يتمثل فى أنه أقام علاقة مع شخص كان يجدر به أن يحتقره ويكرهه، ألا وهو خان

(١) Contance Head., Op. Cit., P. 14.

(٢) Contance Head., Op. Cit., P. 15.

(٣) Contance Head., Op. Cit., P. 15. والإمبراطور ليو الثالث هو مؤسس الأسرة الإيسورية، وقد حكم من سنة (٧١٧ – ٧٤٠م / ٩٩ – ١٢٣هـ)، وابنه قنسطنطين الخامس، قد حكم من سنة (٧٤٠ – ٧٧٥م / ١٢٣ – ١٥٩هـ)، وكان ليو الثالث قد أفشل الحصار الإسلامى الثالث للقسطنطينية الذى قاده مسلمة بن عبد الملك، وكما أعلن الحرب على الأيقونات أو ما عرف بمحاربة الصور، وكذلك فعل ابنه قنسطنطين الخامس بصورة أكبر وأشد.

(٤) Ibid

الخزر بل إنه أسرع بطلب زوجته بعد أن عاد إلى العرش، وتوجهـا إمبراطـورة معه"[1] وتضيف إلى هذه الحقيقة: "ومن مصدر غير معروف كاتبه، ومـن زمـن يسبق المصدرين (ثيوفانيس ونكفوريوس) علمنا أن خـان الخـزر كـان قـد زار القسطنطينية بنفسه في زيارة رسمية، وقد استقبل أحسن استقبال. وهذه الزيارة تدل على أن جستنيان تغاضى عن ما يشعر به تجاه صهره بسبب خيانته لكـي يكـسبه كحليف لفترة على الأقل"[2]

ثم تختتم دفاعها أو إعادة تقييمها بقولها: "إن كل ما ذكر من أعمال انتقامية قد حصل فعلاً، ومحاولتي هذه ليست لدحض الاعتقاد بأن هنالك كثيرًا من الإجراءات الانتقامية قد حدثت، نعم كل ذلك قد حدث، ولكن لم يكن بهذه الكثرة وبمثل ما ذكره نيكفوريوس وثيوفانيس، وإلا لما غاب عن ملاحظة المعاصرين الغربيين"[3].

على أية حال، وأيًا كان الموقف من انتقامات جستنيان الثاني، فإن الـذي لا شك فيه أن الإمبراطورية البيزنطية في فترتها الثانية قد دخلت طورًا جديـدًا مـن الفوضى لا يمكن تجاهله أو التقليل من آثاره فـي أوضـاع الدولـة الداخليـة، أو علاقاتها مع القوى المحيطة والمتربصة بها. وكان أهم هذه القوى الدولة الإسلامية، التي أحسنت استغلال الأوضاع التي أصبحت عليهـا الإمبراطوريـة فـي التقـدم بجيوشها في أنحاء جديدة من آسيا الصغرى، ولم يستطع الجيش البيزنطي الذي فقد أحسن عناصره وقادته من جراء حملة التطهير التي قادها الإمبراطور في صفوف

---

(١) C. Head., Op. Cit., P. 16. وقد أشار ثيوفانيس أن جستنيان قد بعث بأسطول لإحضار زوجته من عند شقيقها خان الخزر، ولكن بعض سفن هذا الأسطول غرقت في البحر، وعندما علم الخـان بـذلك بعث إليه برسالة يوبخه على أن بعث إليه بكل هذا الأسطول، ويخبره أنه كان يكفـي أن يرسـل إليـه ليبعث إليه زوجته وابنه الذي ولدته أثناء غيابه، بدلاً من أن يتسبب بموت كل هؤلاء الناس. ثم كـان أن أرسل إليه الإمبراطور بعثة لاستلام زوجته وابنه: Theophanes, P. 523 . وكذلك يشير المنبجي إلى هذه الرواية بكل تفاصيلها وما انتهت إليه. المنبجي، مصدر سابق، ص ٧٨، ٧٩.

(٢) C. Head., Op. Cit., P. 16.

(٣) Ibid

القادة الذين كانوا مناوئين له أو متعاونين مع الإمبراطورين السابقين من التصدى لهم[١].

على الجانب الإسلامى تولى الخلافة الأموية الوليد بن عبد الملك، بعد وفاة والده عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ / ٧٠٦م[٢]. ولم تتوان أو تتوقف القيادة الإسلامية الجديدة عن شن غارات طوال الفترة الثانية لعهد جستنيان الثاني، وكان هدفهم وقف كل تهديد يأتيهم من ثيم الأناضول[٣]. وتذكر بعض المصادر أن جستنيان الثانى – رغبة منه فى البحث عن حلفاء، ووقف الصراع مع المسلمين – قام عند عودته إلى القسطنطينية واستعادته للعرش البيزنطى، بإطلاق سراح ستة آلاف من الأسرى المسلمين، وجدهم فى السجون البيزنطية من عهدى الإمبراطورين السابقين[٤].

وبعد فترة حاول الإمبراطور جستنيان الثانى تطوير العلاقات التجارية بين بيزنطة والخلافة الأموية، وكذلك تطوير العلاقة مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، إذ تذكر بعض المصادر الإسلامية أنه قام بإرسال العمال البيزنطيين وبعض المواد للمساعدة فى بناء المسجد النبوى الشريف بالمدينة المنورة، وأن الخليفة قد كتب إليه بذلك، فسارع إلى بعث مائة ألف مثقال من الذهب، وبعث بمائة عامل، وحمل أربعين جملاً من الفسيفساء لتزيين المسجد[٥].

---

(١) وسام فرج، العلاقات، مرجع سابق، ص ٦٥. وكذلك: Ostrogorosky, Op. Cit., P.143

(٢) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، جـ ٤، ص ١٠٢ – الطبرى، جـ ٦، ص ٤١٨. وكانت وفاة عبد الملك بن مروان فى منتصف شهر شوال، وكان يبلغ عند وفاته ستين عامًا، وقيل ثلاثة وستين عامًا.

(٣) د. عائشة أبو الجدايل، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٤) C. Head., Op. Cit., P. 16. وتستند هذه المعلومة على رواية ذكرها ميخائيل السريانى، وابن العبرى، ولا تشير إليها المصادر الإسلامية وانظر أيضًا: Camb. Med. Hist. Vol. II, P.411.

(٥) أشارت إلى ذلك عدة مصادر منها: الطبرى، جـ ٦، ص ٤٣٦. وابن الأثير، جـ٤، ص ١٠٩. ابن الجوزى، جـ ٦، ص ٢٨٤. ابن خلدون، تاريخه، جـ ٣، ص ١٣٢. ياقوت الحموى، معجم البلدان، جـ ٧، ص ٤٣١.

والواقع أن هذه المساهمة وإمكانية حدوثها قد أثارت جدلاً بين المؤرخين، فهي لم ترد إليها أية إشارة عند المؤرخين البيزنطيين، لذلك اعتبرها عدد من المؤرخين الغربيين المحدثين ضربًا من الخيال(١). كما اعتبرها أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين فكرة أسطورية غير قابلة للتصديق(٢). وقام المستشرق هاملتون جب (H. Gibb) بإلقاء الضوء على إمكانية أخذ ما كتبه الطبرى - وغيره من المصادر - باعتماد كلى، فإضافة إلى ما أورده الطبرى، قام جب بإيراد مقتطفات من ما كتبه مؤرخ آخر - يسبق الطبرى بمائة عام - هو ابن زبالة، والذى يقول إن الوليد بن عبد الملك أرسل يطلب من ملك الروم المساعدة فى بناء مسجد الرسول، ويقول إنه أرسل فسيفساء وما يفوق على العشرين عاملاً، وبعضهم يقول عشرة عمال وأن جستنيان قال: "لقد أرسلت لك عشرة عمال ولكنهم يساوون المائة" ويضيف ابن زبالة - كما يذكر جب - أن الإمبراطور جستنيان أرسل أحمالاً من الفسيفساء، وثمانين ألف دينار كإعانة مالية للعمال"(٣).

ويبدو الأمر محيرًا فعلاً، فهل حدثت هذه المساهمة أو الاستجابة البيزنطية، أم لم تحدث؟! وإذا كانت حدثت فلماذا أغفلتها المصادر البيزنطية، وهى التى كانت تتعقب كل نقيصة يقدم عليها الإمبراطور جستنيان الثانى، إذا اعتبرنا ذلك انتصارًا للمسلمين وانهزامًا للبيزنطيين؟!

ثم كيف يمكن أن تحدث هذه الاستجابة، فيما الحروب مستمرة بين الدولتين، ولم يكن هناك اتفاقية سلام بينهما أو هدنة عسكرية؟! وعلى الرغم من إجماع معظم المصادر الإسلامية على حدوث تلك الاستجابة البيزنطية، إلا أن هناك مصدرين هامين - بل وهما الأقدم - لم يشيرا إلى قدوم العمال الروم من

---

(١) Head., Op. Cit., P. 17

(٢) د. عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، جـ ٢، ص ١٨٥.

(٣) هاملتون جب، دراسات فى حضارة الإسلام، ترجمة د. إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٦٨، ٦٩. ولم نستطع العثور على مؤلف ابن زبالة الذى أشار إليه جب، ولكن المصادر المذكورة فى الهامش السابق أشارت إلى حدوث مثل ذلك.

القسطنطينية تنفيذاً لتعليمات الإمبراطور، للمشاركة فى إعادة بناء المسجد النبوى، أو حتى المسجد الأموى فى دمشق، وهذان المصدران هما: البلاذرى صاحب فتوح البلدان، والدينورى صاحب الأخبار الطوال[١]؟!

أم أن الأمر لم يكن استجابة أو مساهمة بيزنطية، وإنما كان التزاما، وقد التزمت به الإمبراطورية البيزنطية بسبب الهزائم العسكرية التى تعرضت لها، كما أشار ابن خلدون[٢]. أم أن هؤلاء العمال الذين ساهموا فى البناء سواء للمسجد النبوى، أو الأموى فى دمشق هم من الروم والسوريون والأقباط سكان البلاد التى كان يحكمها المسلمون سواء فى سوريا أو فى مصر، وأن الأمر قد اختلط على هؤلاء المؤرخين، فعدّوهم من روم القسطنطينية الذين بعث بهم الإمبراطور البيزنطى؟! ثم هل الأمر كان يحتاج فعلاً إلى أن يبعث الإمبراطور البيزنطى بعشرة أو عشرين أو حتى مائة من العمال المهرة من القسطنطينية، حيث لم يكونوا متوفرين فى البلاد الإسلامية، وبالذات من سكان البلاد الأصليين فى سوريا أو مصر أو أرمينيا أو غيرها من البلاد التى أضحت تحت حكم الدولة الإسلامية؟! وإذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسر شبه الإجماع لهذه المصادر الإسلامية؟! هل لأنها كانت تنقل عن بعضها دون تدقيق أو فحص للروايات؟!

على أية حال إذا سلمنا أن الإمبراطور جستنيان قد قام فعلاً بإرسال أموال وعمال ومواد للبناء إلى الدولة الإسلامية، وكان هدفه من تلك المبادرة إقامة علاقات سلمية معقولة مع الخلافة، وإيقاف الهجمات الإسلامية على الأراضى البيزنطية، فإن هدفه لم يتحقق، فرغم أن العلاقات التجارية والدبلوماسية كانت قائمة بين الدولتين، إلا أن الحملات الإسلامية داخل الأراضى البيزنطية، كانت مستمرة، بل إنها بلغت ذروتها عند اقتراب نهاية عهد الإمبراطور جستنيان، حيث

---

(١) عبد المنعم ماجد، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٢) ابن خلدون، تاريخه، جـ ٣ ص ١٣٢.

تكبدت قواته خسائر فادحة أمام المسلمين[1]. فقد تواصلت الهجمات الإسلامية حتى أنهم حاصروا طوانة Tyana التى تعتبر من أمنع الحصون بأطراف قبادوقيا، وتتحكم فى ممرات جبال طوروس، وكانت تدعم حصن قليقيا، وقد قام بفتحها مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة، وابن الخليفة العباس بن الوليد[2]. وفى أواخر أيام الإمبراطور جستنيان الثانى اشتدت الغارات الإسلامية على قليقيا فاحتلوا مواقع عديدة، حتى أن قوة إسلامية توغلت فى غاراتها حتى وصلت خريسبوليس Chrysoplis (سكودرى الحالية) فألحقت بها خسائر فادحة[3].

ويبدو أن الانتصارات المتوالية للمسلمين فى آسيا الصغرى وأرمينيا، قد جعلتهم يفكرون فى إعادة حصار القسطنطينية ومحاولة إسقاطها، وهو الأمر الذى تم بعد عدة سنوات فى عهد الأسرة التالية، الأسرة الأيسورية، إلا أنها فشلت كما فشلت سابقتها، لأسباب عديدة ليس هنا مجال الخوض فيها.

على الجانب الأوروبى كانت قضية رفض البابوية اعتماد مقررات المجمع البنثيكتى الذى دعا إليه الإمبراطور جستنيان وأشرف على جلساته، واعتمد قراراته[4]، خلال فترة حكمه الأولى، مازالت شغله الشاغل، ومحل اهتمامه وحرصه. وعندما عاد جستنيان للحكم فى بيزنطة كانت الأحوال قد تغيرت فى روما فقد توفى البابا سرجيوس الأول الذى رفض اعتماد مقررات المجمع، وكان خلاف جستنيان مع هذا البابا قد وصل إلى قمته لدرجة ان جستنيان كان قد أمر باعتقاله، إلا أن هذه المحاولة فشلت لأن مدينة رافنا والإيطاليين تصدوا لها وأعلنوا دعمهم للبابا، وكان أن سقط جستنيان ونفى واستمر البابا سرجيوس على كرسى البابوية حتى وفاته سنة ٧٠١م / ٨٢ هـ.[5]

---

(١) Head., Op. Cit., P. 18

(٢) ابن الأثير، جـ ٤، ص ١٠٩، وكذلك يشير ثيوفانيس إلى فتح طوانة: Theophanes, P. 526

(٣) الطبرى، جـ ٦، ص ٤٦٩.

(٤) سبق أن ناقشنا هذا المجمع وقراراته، ورفض البابوية لها على الصفحات (٢٢٠- ٢٢٣).

(٥) Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 225.

وعندما عاد جستنيان إلى الحكم كان من أول ما فعله هو الاتصال بالبابوية لإعادة المناقشة فى قرارات المجمع البنثيكتى، أملاً فى كسب التأييد وإيجاد حل للقرارات التى كانت موضع إشكالية واعتراض من البابوية.

كانت البابوية فى ذلك الحين قد آلت إلى البابا يوحنا السابع John VII (٧٠٥ – ٧٠٧م / ٨٦ – ٨٨هـ) الذى عرف بعمق تعليمه، ولباقته ولكنه عرف بالحياء الشديد[١]. وأرسل الإمبراطور اثنين من الأساقفة البيزنطيين، يحملون معهم مجلدات تحمل نصوص وقرارات المجمع، ورسالة من الإمبراطور يرجو فيها من البابا أن يعقد مجلسًا لمناقشة هذه المقرارات وأن يوافق على ما يرتضيه منها، ويرفض ما يتعارض مع معتقداته[٢].

ولكن البابا يوحنا لم يستجب للإمبراطور، وأعاد المجلدات إليه. وقبل أن يستطيع الإمبراطور أن يمارس أى شىء من الضغوط، ما لبث البابا أن توفى، ودخلت روما فى مشكلة إيجاد خلف له. وفى بداية سنة ٧٠٨م / ٨٩هـ تقلد البابا الجديد سيسنيوس Sisinnius منصبه، وهو عجوز ومريض وكان سورى الأصل، ولكنه ما لبث أن توفى أيضًا بعد عشرين يومًا من توليه المنصب البابوى[٣].

تلاه سورى آخر على المنصب هو البابا قسطنطين Constantine (٧٠٨– ٧١٥م / ٩٠ – ٩٧هـ) وتصفه المدونة البابوية بأنه كان رجلاً معتدلاً[٤]. وبدأ الإمبراطور اتصاله بالبابا الجديد على أمل أن يقنعه باعتماد مقررات المجمع البنثيكتى.

وفى أكتوبر سنة ٧١٠م / محرم ٩٢هـ.وبعد عدة شهور من التردد وافق البابا على السفر إلى القسطنطينية، وزيارة البلاط الإمبراطورى، وعلى طول الطريق أمر جستنيان بأن يعامل موكب البابا على النهج ذاته الذى يعامل به موكب الإمبراطور نفسه، وبعد رحلة استغرقت عدة أشهر وصل البابا والوفد المرافق له إلى القسطنطينية، ولاقاه على بعد سبعة أميال من العاصمة ابن الإمبراطور وولى

---

(١) Head., Op. Cit., P. 19.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412.

(٣) Head., Op. Cit., P. 19.

(٤) Ibid

عهده تيبريوس Tiberius[1]، وعدد من رجال الدين والدولة وشارك فى استقباله بطريرك القسطنطينية كيروس Cyrus (٧٠٥ – ٧١٢م / ٨٦ – ٩٤هـ). وعندما وصل البابا إلى القسطنطينية كان الإمبراطور فى نيقيه Nicaea، ولما بلغه خبر وصول البابا إلى العاصمة فرح فرحًا عظيمًا، سارع للكتابة إليه يدعوه لتنظيم لقاء بينهما فى نيقوميديا Nicomedia[2]

كان لقاء نيقوميديا احتفاليًّا أكثر مما هو لقاء لحل المشكلات العالقة، إذ انحنى الإمبراطور جستنيان الثانى فى تواضع، وتاجه فوق رأسه ليقبل قدم البابا، وبعد ذلك احتضن كل منهما الآخر كالإخوان. وفي يوم الأحد تقبل الإمبراطور الغفران، وسأل البابا أن يصلى من أجله للغفران من ذنوبه. ورغم أن الحولية البابوية قد وصفت الاحتفال الكبير بكل تفاصيله إلا أنها لم تشر إلى القوانين المختلف عليها بين البابوية والإمبراطور[3].

ولكن يمكن القول إن البابا والوفد المرافق له، وقد عقدوا جلسة مناقشات مطولة مع الإمبراطور، ووصلوا إلى درجة من الاتفاق بخصوص تلك القوانين. ويعود أغلب النجاح فى تلك المناقشات إلى الشماس جريجورى Gregory (الذى سيصبح فيما بعد بابا باسم جريجورى الثانى للفترة من ٧١٥ – ٧٣١م) الذى عمل علي إزالة كل أسباب سوء الفهم، وعجل بالوصول إلى اتفاق[4].

---

(١) كان تيبريوس هو ابن زوجته الخزرية شقيقة خان الخزر والتى سماها ثيودورا، ولذلك كان يعرف بالنصف خزرى وكان الإمبراطور قد أعلنه وليًا لعهده وعمره ما زال عامًا واحدًا، وكان عند استقباله للبابا يبلغ السادسة من عمره، ولعل تسميته باسم تيبريوس لأن جستنيان الثانى أراد أن يمحى اسم الإمبراطور السابق تيبريوس من قائمة الأباطرة البيزنطيين، بعد أن أعدمه ليخلد اسم ابنه. والغريب أن أجابيوس المنبجى يذكر تيبريوس ابن جستنيان الذى تشارك مع أبيه فى الجلوس على سرير الملك قد حكم لمدة سبع سنين، هذا غير صحيح إذ أن تيبريوس ابن جستنيان ما لبث أن أعدم مع والده فى الثورة التى قامت عليه بعد قليل، وبالتحديد سنة ٧١١ م / ٩٣هـ، والذى حكم سبع سنين هو تيبريو الثالث الذى سبق عودة جستنيان الثانى إلى العرش. انظر المنبجى، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412; Head., Op. Cit., P. 20.

(٣) أسد رستم، كنيسة أنطاكية، جـ ٢، ص ٥٣.

(٤) Head., Op. Cit., P. 20.

ويرى بعض المؤرخين أن الإمبراطور جستنيان الثـاني ذا الإرادة القويـة، والذى قلما يقبل برأى الآخرين، قد أذعن هذه المرة، بعد أن وصـل إلـى نتيجـة مؤداها أن إجبار البابوية على قبول تلك القوانين، أمر فيه كثير من العنت والعبث، ولا جـدوى منه، خـاصة وأن التعديلات التى أدخلها الشماس جريجـوري قـد لاقت قبوله[١].

وأكد الإمبراطور نواياه الحسـنة تجاه البابوية بتـجديد كـل امتيازاتـها، وعاد البابا إلى روما، حيث رحب به أهلها، وسـادت فتـرة مـن الـسلام بـين الإمبراطورية والبابوية[٢].

---

(١) Ibid

(٢)Camb. Med. Hist. Vol. II, P.412; Ostrogorosky, Op. Cit., p. 144; Vasiliev, Op. Cit., Vol.I, p. 226.

مقتل جستنيان الثانى ونهاية الأسرة الهرقلية:

كان التحرك الثانى للإمبراطور جستنيان الثانى فى الغرب، هــو مهاجمتــه لمدينة رافنا Ravenna، والتى كانت مقر الحاكم البيزنطى، أو الممثلية البيزنطية فى إيطاليا. ويرجع كثير من المؤرخين سبب مهاجمة الإمبراطور لها، وتخريبها وقتل الكثير من أعيانها ورجالها، إلى ما أظهرته هذه المدينة من عداوة له خـــلال فتــرة حكمه الأولى[1]، وهناك مصادر أخرى تعيد أسبابها إلى عوامل أخرى تكمن فـــى السلام الذى ساد بين الإمبراطورية والبابوية.

فالمدونة التاريخية الغربية التـــى كتبهـــا أجنلـــوس الرافينـــى Agnellus of Ravenna، فى القرن التاسع الميلادى وكانت مصدرًا لأهــم الـــتهم جديـــة ضـــد الإمبراطور جستنيان، تصف هجوم جستنيان الثانى على مدينة رافنـــا بأنـــه فعـــل شخص ذى طبيعة شريرة انتقامية[2] والطريقة التى وصف بها أجنلوس الإمبراطور جستنيان كانت لا تختلف عن وصف نيكفوريوس وثيوفانيس، إلا أنهم جميعًا – كما ترى هيد – لم يحيطوا بالحقائق الواقعية، التى يعود إليها الهجوم على رافنا، فهـــذا الهجوم كان قد وثق من طرف محايد هو (المدونة التاريخية الرســـمية للبابويـــة – The Liber Pontificolis of Rome)، فمن المؤكد أن جستنيان استعمل أساليب قاسية مع المدينة سيئة الحظ، ولكن السؤال هو لماذا؟! والإجابة ترد فـــى هـــذه المدونـــة الرسمية للبابوية، والتى تحتوى على وقائع عن أسباب الإجـــراءات التـــى اتخـــذها جستنيان الثانى ضد هذه المدينة على عكس ما زعم أجنلوس، وغيره من المؤرخين من الأسباب التى دفعت جستنيان إلى الانتقام من هذه المدينة [3].

---

(١) Ostrogorosky, Op. Cit., p. 144. وكذلك: البـــاز العـــرينى، الدولة البيزنطية، مـــرجع ســـابق، ص ١٧٣.

(٢) Head., Op. Cit., P. 21.

(٣) Head., Op. Cit., P. 22.

فقد دخل رئيس الأساقفة الجديد فى مدينة رافنا وهو الأسقف فيلكس Felix فى مشاجرات مع البابا قنسطنطين بعد فترة قليلة من تقليده منصبه.

والمعروف أن التنافس بين أسقف مدينة روما وأسقف مدينة رافنا قديم، وله تاريخ، وذلك التنافس والصراع ولّد كثيرًا من العنف الذى تفجر عدة مرات فى السنوات السابقة. ويبدو أن أساس هذه المشكلة هو مسألة الكبرياء الوطنى لمدينة رافنا، التى كانت العاصمة الرسمية للممثليةً البيزنطية فى إيطاليا، وزاد على ذلك، الاستياء المتعاظم من أن رئيس أساقفة رافنا كان يجب عليه أن يبايع ويطيع البابا فى روما. وعلى مدى حوالى ثلاثين عامًا قبل تقليد منصب البابوية لقنسطنطين كان التنافس بين روما ورافنا قد هدأ، وبات فى سكون. ولكن بعد مجيء الأسقف فيلكس رئيسًا للأساقفة فى رافنا تحرك العداء القديم بعنف(١) .

فقد رفض الأسقف فيلكس الإقرار بوثيقة بابوية تطلب منه أن يعد بعدم فعل شيء يمس وحدة الكنيسة، وسلامة الإمبراطورية، وحصل الأسقف فيلكس على تأييد قادة الحكومة المحلية لرافنا على رفضه، واعتبر ذلك التأييد فعلاً ثوريًّا، وأصدر الأسقف فيلكس وثيقة تماثل تلك التى أرسلها البابا، وقام بإرسالها إلى روما، لكن البابا قنسطنطين لم يكن راضيًا عنها، وعندئذ دخل جستنيان فى الصراع، حيث رأى أن أسقف رافنا قد تحداه وتحدى البابا أيضًا، لذلك بادر بإرسال أسطول بحرى إلى رافنا ولقن سكانها درسًا بليغًا، وهذه الأحداث حدثت فى وقت كانت العلاقة متقدمة وجيدة مع البابوية(٢). واعتبرت البابوية أن العقاب الذى حل بسكان رافنا عقابًا عادلاً لمن لم يطيعوا البابا(٣).

---

(١) Head., Op. Cit., P. 22.

(٢) Ibid

(٣) Head., Op. Cit., P. 23.

فما الذى حدث فى راڤنا؟! يذكر أجنلوس فى مدونته تفاصيل ما حدث بقوله:

أرسل جستنيان أسطولاً إلى راڤنا بقيادة النبيل ثيودور Theodoor، وعند وصوله أعلن عن احتفال كبير فى الميدان العام، ودعا لهذا الاحتفال كبار المسؤولين فى راڤنا، وأخذوا واحدًا بعد الآخر إلى داخل المخيم، وهناك ربطوا وأرسلوا إلى السفن ومنها إلى القسطنطينية، وكان من ضمنهم رئيس الأساقفة فيلكس. وبعد ذلك دخل الجنود إلى المدينة وأحرقوها وسلبوا ونهبوا ما فيها. وبعد أن وصل المسجونون إلى القسطنطينية أخذوا إلى الإمبراطور، والذى كان يخطط لقتل الجميع، إلا أنه رأى رؤيا دعته إلى حقن دماء الأسقف فيلكس، فلم يقتله، وقتل الآخرين بطرق فيها الكثير من التعذيب(١). أما الأسقف فقد حكم عليه بحكم مخفف رحمة به، واكتفى بسمل عينيه.

ويصور أجنلوس الراڤنى الطريقة التى أعمى بها فيلكس بقوله: سخن طبق فضى حتى تأجج من الحرارة، ثم أضيف إليه الخل وأجبر الأسقف على التحديق مباشرة فى الطبق حتى انطفأ بصره، ثم نفى إلى بونتس Pontus(٢)

ولكن راڤنا رغم هول ضربات وتصرف الإمبراطور لم ترضخ نهائيًا، وإنما استمرت دوافع الثورة كامنة بها، وقابلة للاشتعال فى أى وقت، وفى أواخر سنة ٧١٠م / ٩٢هـ قامت ثورة جديدة فيها، إلا أن الإمبراطور لم يحفل بها، لأنه كان مشغولاً بإخماد ثورة أخرى(٣).

كانت المدينة الثانية التى ارتبط اسمها بتصرفات جستنيان الثانى وانتقامه وتعذيبه هى مدينة خرسون Cherson، حيث أرسل إليها حملة عسكرية كبيرة، فى بداية عام ٧١٠م / ٩٢هـ، استخدم فى نقلها كل أنواع السفن المتوفرة فى العاصمة حتى سفن الصيد، وكان يرأس الحملة القائد ستيفن أسمكيتوس Stephen Asmiktos،

---

(١) Head., Op. Cit., P. 24.

(٢) Ibid

(٣) الباز العرينى، مرجع سابق، ص ١٧٤. وكذلك: Ostrogorosky, Op. Cit., P.144.

وقد تم تمويل الحملة من الضرائب التى حصل عليها الإمبراطور بعد أن زاد فيها من أعضاء مجلس الشيوخ ومن الحرفيين والناس العاديين، وكانت التعليمات أن يقتل جميع سكان خرسون، وأن يعين القائد إلياس Elias حاكمًا عليها(١).

وتقدم المصادر البيزنطية تفاصيل مثيرة عن نشاطات الحملة عند وصولها إلى خرسون، فيذكر ثيوفانيس أن القوات الإمبراطورية أنجزت المهمة وسيطرت على المدينة وخضع السكان لها. وأن القائد ستيفن أعدم سبعة من زعماء المواطنين بشوائهم أحياء، وأغرق آخرين بوضعهم فى أكياس ثم إلقائهم فى البحر، وأرسل عددًا آخر، منهم تودونوس Toudounos حاكم المدينة من قبل خان الخزر وزويلوس Zoilos زعيم المواطنين وثلاثين آخرين مع أسرهم إلى القسطنطينية. ثم جمع عددًا كبيرًا من الشباب وأرسلوا إلى القسطنطينية ليعملوا كعبيد، ولكن السفن التى كانت تحملهم فى طقس بارد تعرضت لعاصفة شديدة أتت على كل الأسطول، وبلغ عدد القتلى من الأسرى والجنود ٧٣,٠٠٠ قتيل (٢). ويذكر ثيوفانيس أيضًا أن الإمبراطور عندما سمع هذه الأخبار، تلقاها بفرح وسرور(٣).

والواقع أن كثيرًا من المؤرخين – وبالذات البيزنطيين – يعيدون أسباب هذه الحملة إلى أن الإمبراطور جستنيان أراد الانتقام من مدينة خرسون، بسبب موقفها منه عندما كان منفيًا إليها فى عهد الإمبراطورين المغتصبين للعرش (ليونتيوس وتيبريوس الثالث) ومحاولة حكومتها وسكانها خيانته وتسليمه إلى تيبريوس الثالث، لولا فراره إلى ملك الخزر ومنها إلى ملك البلغار(٤).

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. II, وتسميه موسوعة كامبردج باسم: Theophanes, Op. Cit., P. 527
P.414, Elijah

(٢) Theophanes, P. 527

(٣) Ibid

(٤) Ostrogorosky, P.124; Theophanes, P. 527. والواقع أن معظم المراجع تشير إلى هذا المبرر بوضوح.

ولكن المؤرخة Contstance Head التى أخذت على عاتقها دراسة وإعادة تقييم الفترة الثانية من حكم جستنيان تناقش هذا المبرر، وتذكر أسبابًا أخرى جديرة بالاهتمام لحملة جستنيان الثانى على خرسون.

فهى ترى أن ثيوفانيس ونيكفوريوس واللذان تتشابه معلوماتهما ووصفهما للأحداث كثيرًا، وقد اعتمدا على مصدر بيزنطى مفقود يسمى (المدونة ٧١٣ – Chronicl 713)، والتى كتبت فى عهد الإمبراطور التالى فيليبكوس وتحت رعايته[١].

وترى أن هناك أسبابًا أخرى دعت الإمبراطور جستنيان الثانى لتجريد حملته غير الانتقام من خرسون، فهو لو كان يريد الانتقام لما انتظر أكثر من خمس سنوات حتى يقوم بذلك، ولكن السبب فى رأيها، أن خان الخزر كان قد قام بالاستيلاء على خرسون، وأرسل حاكمًا لها، وهو ما يذكره المؤرخون البيزنطيون أنفسهم، ولكنهم لم يستطردوا فيه، وهذا ما دعاه لإرسال حملة لاستعادتها من صهره الذى كان لا يُعتمد أو يوثق به[٢].

ثم إن فيليبكوس الذى خلف جستنيان لم يكن يريد أن يصور خان الخزر على أنه عدو للإمبراطورية البيزنطية، لأنه كان السبب فى اعتلائه العرش، فأطماعه التوسعية هى العامل الذى جعل جستنيان يقوم بإرسال حملاته على مدينة خرسون، وأوصل فيليبكوس إلى العرش[٣].

---

(١) Head., Op. Cit., P. 26.

(٢) Ibid. ويشير الدكتور الباز العرينى، إلى أن خرسون والبوسفور كانت من أملاك الدولة البيزنطية، وبعد أن غادر جستنيان منفاه، استولى الخزر على تلك الجهات، فأرسل جستنيان تلك الحملة لاستعادة سلطان بيزنطة، ص ١٧٤ هامش رقم (٢). وذلك نقلا عن: Dunlop: The history of the Jewish Khozars

(٣) Head., Op. Cit., P. 27.

وهى ترى أن ما كتب عن فرح الإمبراطور وسروره عندما بلغتــه أخبــار الأسطول العائد من خرسون بالجنود والأسرى، مدعاة للعجب، لأن هــذا التقريــر احتوى على الكثير من الأشياء غير المنطقية، فإن فرح الإمبراطــور لغــرق كــل عسكره وسفنه، يدل على أن تلك الكتابة كانت بمثابة افتراءات مضادة للإمبراطور جستنيان الثانى. فبغض النظر عن مشاعر الإمبراطــور تجــاه ســكان خرســون والخزر، فإن ضياع مراكبه وعسكره لا يمكن أن يكون مفرحًا بالنسبة له [(١)].

ثم هى تشكك فى الرقم الذى ذكره ثيوفانيس – وغيره – عن عــدد الــذين ماتوا غرقًا بسبب العواصف، ترى أنه غير معقول ومشكوك فيه، وتــضيف: لــو سلمنا بذلك فإن عدد الأسرى والعسكر الذين غادروا إلى القسطنطينية لم يكن ليصل إلى ذلك العدد. وكذلك فإن عدد الأسرى لا يمكن أن يكون بذلك القدر لأن المدينــة كما علمنا من الأحداث التى تلت كانت ما تزال تعج بالسكان[(٢)]. ثم تضع فرضــية لما حدث، فترى أن ما يمكن تخمينه أن الإمبراطور أمر بانسحاب الجــزء الأكبــر من الحملة أملاً بأن تلغى تلك الحملة كليًّا[(٣)].

ويذكر ثيوفانيس أن الإمبراطور أراد مزيدًا من الانتقام من خرسون، إضافة إلى أن سكانها قد استنجدوا بخان الخزر وطلبوا مساعدته، فبادر إلى إرسال كتائب عسكرية من الخزر للدفاع عنهم وعن المدينة[(٤)]. ولذلك فمن الصعب تحديد أى من الجانبين كان يريد للحرب أن تستمر، وتدور رحاها. فقد نجح أهل خرســون فــى إقناع من تبقى من جيوش الإمبراطورية بقيادة "إلياس" بالانضمام إلــيهم، وتقــووا بتلك المساعدة العسكرية التى أرسلها خان الخزر، وعندما سمع الإمبراطور بــذلك قرر تغيير سياسته سريعًا، فقام بإطلاق سرح زوليوس (زعــيم المــواطنين فــى خرسون) وتدونيوس (المندوب الخزرى فى خرسون)، ويستنتج من ذلك أنهما لــم

(١) Head., Op. Cit., P. 28.

(٢) Ibid

(٣) Head., Op. Cit., P. 29.

(٤) Theophanes, Op. Cit., P. 527.

يقتلا – كما سبق وذكر ثيوفانيس – وإنما وضعا فى السجن، وأرسلهما على رأس قوة صغيرة مكونة من ٣٠٠ رجل إلى خرسون، واتفق معهما على أن يحاولا إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الحملة الأولى، وأن يعتقلا إلياس ويرسلا به إلى القسطنطينية[١]

ويتضح من ذلك أن سياسة الإمبراطور بدأت فى التخبط، إذ كيف تسند مهمة مثل تلك إلى رجلين كانا فى السجن، وتلقيا من التعذيب الإمبراطورى الكثير، وأحدهما كان خزريًا من المعسكر المعادى؟ ثم هل تستطيع هذه القوة الصغيرة أن تحقق ذلك بعد أن تقوى أهل خرسون بالمدد العسكرى الخزرى؟!

ويبدو أن محاولة جستنيان كانت متأخرة جدًا، فقد رفض سكان خرسون التعامل مع سفراء الإمبراطور. ولكنهم أظهروا لهم الترحاب وحسن التعامل ودعوهم إلى دخول المدينة ثم قتلوهم، وألقوا القبض على المتبقى منهم، ثم أرسلوا إلى ملك الخزر مندوبه السابق تدونيوس مع زويلوس، وفى الطريق مات هذا المندوب، وكعادة الخزر الجارية تم إعدام ٣٠٠ من العسكر البيزنطيين ليرافقوه إلى العالم الآخر[٢].

وكانت الخطوة التالية لمتمردى خرسون هى إيجاد بديل منافس للإمبراطور، وقد اختير لذلك الامتياز الصعب قائدًا أرمينيًا اسمه بارادانس Bardanes[٣]. وقام بتغيير اسمه الأرمنى إلى فيليبكوس Philppikos الذى ناسب مقامه الإمبراطورى الجديد.

---

(١) Theophanes, P. 528.

(٢) Ibid.

(٣) كان بارادانس قد رافق إلياس فى حملته على خرسون، وسبق أن ذكرنا أنه قد تعرض للنفى فى عهد تيبريوس الثالث عندما حلم أنه سيصبح إمبراطورًا، ولكن عندما عاد الإمبراطور جستنيان أعاده من منفاه فى كفالونيا، ورقاه إلى رتبة عالية فى الجيش الإمبراطورى، ويبدو أنه كان قائدًا محبوبًا، سهل التعامل وعرف باعتداله. انظر: Camb. Med. Hist. Vol. II. P.413; Theophanes. P. 498، والمنبجى، مصدر سابق، ص ٨١ ويسميه "ملعموس" وعدله المحقق إلى "فيليفيقوس".

وعندما علم الإمبراطور جستنيان بهذه التطورات في خرسون اتخذ إجراءات انتقامية من أسرة "إلياس" في القسطنطينية[1]، كما قام بإرسال قوات عسكرية بقيادة البطريق ماوروس Mauros، وزوده بتعليمات لهدم أسوار خرسون، وأن لا يبقى فيها حيًا. وعندما وصل ماوروس إلى خرسون بدأ في مهاجمتها فلجأ فيليبكوس إلى خان الخزر الذي زوده بجيش كبير وما لبثت قوات الإمبراطور أن غيرت ولاءها، وانضمت إلى فيليبكوس، خوفًا من العودة إلى الإمبراطور مهزومة[2].

وعندما سمع الإمبراطور بهذه الأخبار من خرسون، قام بخطأ ميداني خطير، فقد ترك القسطنطينية وتحرك بجيش كبير، ودعمت أطرافه قوات بلغارية أرسلها ملك البلغار ترفل وقدرت بثلاثة آلاف رجل[3]، إلى دامتريس Damotrys في آسيا الصغرى. في تلك الأثناء حدث أن قام المسلمون بتحريك التمرد ضد جستنيان في أرمينيا، وبما أن فيليبكوس كان أرمني الأصل، فقد ظن الإمبراطور أن هذا الشعب في أرمينيا له علاقة بما يحدث في خرسون وربما كان هذا تدبيرًا من فيليبكوس نفسه[4].

وعلم فيليبكوس بخروج الإمبراطور من عاصمته، فسارع ومعه الأسطول الروماني الذي استطاع تجميعه في خرسون إلى القسطنطينية، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى جستنيان الثاني دار باتجاه القسطنطينية وهو يزأر كالأسد. ولكن هذا حدث بعد أن فات الأوان لأن القسطنطينية كانت قد سقطت في يد فيليبكوس من

(١) يذكر ثيوفانيس أنه ذبح أطفال إلياس وهم في حضن أمهم، وأجبر هذه الأم على الزواج من طباخه الخاص، وكان هنديًا Theophanes, P. 258 وهناك من يذكر أن ذلك أمر غير مؤكد: Head, Op. Cit., P.30.

(٢) Theophanes, P. 528.

(٣) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.413.

(٤) Head, Op. Cit., P30.

غير معركة[1]. وحاول جستنيان العودة إلى معسكره فى "دامتريس"، ولكن على بعد اثنى عشر ميلاً من القسطنطينية، تصدى له إلياس الذى عاد فى صحبة فيليبكوس ووصلته التعليمات من القسطنطينية بإخلاء سبيل كل من يتخلى عن جستنيان، وسرعان ما تفرق عنه الجنود ولم يبق معه إلا القليل من المخلصين، وما لبث أن وقع فى يد إلياس الذى احتفظ لنفسه بشرف القضاء على الإمبراطور جستنيان الثانى، حيث ضربه ضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده[2].

وقام إلياس بإرسال رأس جستنيان الثانى إلى فيليبكوس الذى أصبح إمبراطورًا فى القسطنطينية، ومن ثم أرسلت رأس جستنيان أواخر عام ٧١١م / ٩٣هـ إلى روما، ومنها إلى رافنا ليعرض فى الميادين العامة[3]. وفرح سكان رافنا فرحًا كبيرًا ولكن الحال اختلف فى روما، إذ جاء فى المدونة البابوية الرسمية أن الحزن قد عم، وأن جستنيان كان الأكثر نصرانية وأرثونكسية[4].

أما ابن الإمبراطور وولى عهده تيبريوس فقد لقى مصرعه مبكرًا، حيث أمر فيليبكوس بقطع رأسه منذ الساعات الأولى لدخوله القسطنطينية.[5]

على هذا الشكل الدموى، الذى سبقه تخبط سياسى وعسكرى للإمبراطور جستنيان الثانى، وعنف ومقاومة وتبادل للولاء بين قادة الإمبراطورية ورجالها، وثورات هنا وهناك، وتململ فى الداخل وتراجع فى الخارج، سقطت الأسرة الهرقلية، سقوطها النهائى والأخير بالقضاء على جستنيان وولى عهده الأمير تيبريوس، بعد فترة حكم للأسرة استمرت قرنًا وعامًا واحدًا، تخللتها عشر سنوات حكم فيها مغتصبون من خارج الأسرة الهرقلية.

---

(١) Theophanes, P. 529.

(٢) Theophanes, P. 529.

(٣) Ibid

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. II, P.414; Head., Op. Cit.. P. 31

(٥) Theophanes, Op. cit., P. 529; Bury, Op. Cit., Vol. II, P. 366.

ودخلت الإمبراطورية البيزنطية دورة جديدة من الفوضى والاضطراب، وجد فيها المسلمون فرصة مواتية لتحسين مواقعهم العسكرية، وتوسعهم على حساب الأراضى البيزنطية.

ومضت ست سنوات من الحكم البيزنطى، قاد فيها الإمبراطورية ثلاثة من الأباطرة المغتصبين، قبل أن تظهر أسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الأيسورية، التى استطاع مؤسسها ليو الثالث الأيسورى أن يستولى على الحكم، ويضع حدًا للفوضى، وحقق أكبر إنجاز بيزنطى فى التصدى للمسلمين وإجهاض المحاولة الإسلامية الثالثة والأكبر لإسقاط القسطنطينية العاصمة البيزنطية.. وذلك طور آخر من أطوار الصراع الإسلامى البيزنطى.

الخاتمة

حكمت الأسرة الهرقلية الإمبراطورية البيزنطية في فترة هامة وحرجة من تاريخها الطويل، والذى يمتد إلى أكثر من أحد عشر قرنًا، فقد امتد حكم هذه الأسرة للإمبراطورية طوال القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى)، وهو قرن التحولات والتغيرات الكبيرة والكثيرة فى العصور الوسطى.

ولا شك أن هذه التحولات والتغيرات قد ألقت بظلالها، وبشكل حاد على الإمبراطورية ومسيرتها وعلى الأحداث التى واجهتها والتطورات التى تعرضت لها، والحروب التى خاضتها، والعلاقات التى سادت بينها وبين جيرانها والمحيطين بها. لقد افتتح القرن السابع الميلادى أحداثه بجولة من جولات الصراع المرير بين الدولة البيزنطية ودولة الفرس، وهو صراع يرجع إلى سنوات بعيدة وموغلة فى القدم تعود إلى قرون عديدة، حيث مثلت الدولتان القوتين الأعظم فى العصور القديمة ومطالع الوسيطة، ولعل هذه الجولة من الصراع كانت أهم هذه الجولات وأكثرها تأثيرًا وحسمًا.

فقد استغلت دولة الفرس الظروف والأوضاع التى أضحت عليها الإمبراطورية البيزنطية فى مطلع هذا القرن فقامت باجتياح أراضيها والتوسع فيها وسيطرت على أهم أملاكها فى آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر، ووصلت قواتها إلى حدود ليبيا. وتقلص نفوذ الإمبراطورية البيزنطية، ولم يعد تحت سيطرتها سوى العاصمة القسطنطينية وبعض ضواحيها، وشمال أفريقيا. وكادت الإمبراطورية البيزنطية أن تسقط وتختفى من الوجود مبكرًا.

وفى هذه الظروف الصعبة بدأت الأسرة الهرقلية حكمها واستطاعت بفضل القيادة الجديدة والحاسمة التى مثلها مؤسس الأسرة الإمبراطور هرقل، قلب الهزيمة إلى انتصار، واستعادة كل الأراضى المفقودة، بل وهزيمة الفرس فى عقر دارهم، بما مثل خاتمة لذلك الصراع المرير بين القوتين الكبيرتين والذى استمر عدة قرون، ليحسم فى القرن السابع لصالح الإمبراطورية البيزنطية.

ولم تكد الإمبراطورية البيزنطية تسترد أنفاسها حتى فوجئت بمواجهة قويـــة جديدة، أجهزت على انتصاراتها فقد ظهر المسلمون، والذين مثلت دولتهم الفتية قوة عظمى جديدة اصطدمت بالقوة البيزنطية، واحتلت مكان القوة الفارسية فى الصراع مع البيزنطيين، وأحالوا انتصاراتهم أمام الفرس إلى هزائم جديدة، وخاضوا معهـا صراعًا مريرًا استمر لقرون عديدة، وكانت ذروته فى القرن السابع الميلادى حين توسع المسلمون على حساب الإمبراطورية البيزنطية، واستخلصوا منها بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وأرمينيا وأجزاء من آسيا الصغرى، ووصلوا فـــى تهديدهم للإمبراطورية إلى عاصمتها الحصينة وتعددت مرات حصارهم لها خـــلال هذا القرن.

كما تعرضت الإمبراطورية لعدوان قوى أخرى تمثلت فى الصقالبة (الآفـــار والسلاف) والبلغار، وهى عداوات استنزفت جهدًا كبيرًا من أباطرتها، من جيوشها، ومن خزائنها، حيث إنها كانت مضطرة أحيانًا لشراء السلام مع هذه القوى بالمال.

كما أن الدولة البيزنطية خلال تصديها لهذه العداوات قامت بتطوير وسائلها العسكرية بما يتلاءم مع أوضاعها وظروفها، فأمام الفرس والمسلمين، ظهر نظـــام "الثيمات" العسكرى، الذى أوجده الإمبراطور هرقل، وخضع لمزيد مـــن التطـــوير والإضافات فى عهد خلفائه من بعده، حتى غدا أهم المنجزات العسكرية البيزنطيـــة التى طورتها الإمبراطورية فى هذا القرن، وأصبح هذا النظام بما قدمه مـــن حـــلٍ لمعضلة إمداد الإمبراطورية بجيش وطنى يتحمل تبعات الدفاع عن أراضـــيها دون أن يمثل ضغطًا كبيرًا على خزانتها، عن طريق استيطان هـــؤلاء الجنـــد لـــبعض الأراضى، وتولى إحيائها والدفاع عنها، هو الحل الأمثل للخروج من أزمة الجنـــود المرتزقة الذين أرهقوا خزانة الدولة فى الماضى ولم يحسنوا الدفاع عن أراضـــيها عند الاحتياج إليهم.

كما أن البيزنطيين قاموا فى هذا القرن وفى خضم هذه الأحداث بتطوير سلاح آخر عندما أطبق الحصار الإسلامى على عاصمتهم القسطنطينية، وذلك السلاح هو النار البحرية الذى لعب دورًا خطيرًا فى وقف الزحف الإسلامى الذى كان يهدف إلى إسقاط العاصمة الإمبراطورية، وهو سلاح فعال حافظ البيزنطيون على أسراره قرون عديدة، وكان سر الأسرار للدولة وأباطرتها.

كذلك فإن كثرة الهجمات التى كانت تتعرض لها حصونهم وقلاعهم، وأسوار عاصمتهم، دعتهم إلى ابتكار خاص للإنذار المبكر وتطويره.

وعمل الإمبراطور هرقل على أن يرسى نظامًا جديدًا لوراثة العرش، ورغم الهزة التى تعرض لها العرش البيزنطى فى أعقاب وفاة الإمبراطور هرقل بسبب الوصية التى تركها الإمبراطور وحاول فيها أن يعطى الأمان لزوجته مارتينا التى كان الشعب ورجال الكنيسة كارهون لها وناقمون على زواج الإمبراطور منها، وهى ابنة أخته بما عد مخالفة صريحة للعرف والقانون والشرع، حيث نص فى وصيته على مشاركتها فى العرش، مما أحدث أزمة عنيفة، إلا أن نظام وراثة العرش الذى كان يهدف الإمبراطور هرقل إلى ترسيخه فى أسرته، ما لبث أن أصبح له قاعدة ثابتة فى عهد خلفائه من بعده، حيث ترسخت وراثة العرش فى الابن الأكبر للإمبراطور، وأصبحت هى القاعدة التى تحتكم إليها الأسر التى توالت على حكم الإمبراطورية البيزنطية فيما بعد.

ورغم أن حداثة الأباطرة الذين توالوا على الحكم من أسرة هرقل كانت السمة البارزة لهذه الفترة، إلا أن هؤلاء الأباطرة – رغم صغر سنهم – قد نجحوا فى حكم الإمبراطورية والسيطرة على مقاليدها، والحفاظ على عرشها فكان لبعضهم منجزات كبيرة مثل الإمبراطور قنسطنطين الرابع الذى تصدى لأولى المحاولات الإسلامية لإسقاط القسطنطينية.

كما أن هؤلاء الأباطرة شاركوا – مثل والدهم الإمبراطور هرقل – في قيادة معظم الجيوش التى خاضت حروبًا على جبهات مختلفة دفاعًا عن الإمبراطورية، وكانت مشاركة الأباطرة قبلهم محدودة أو لا تكاد تذكر وذلك بسبب الاحتياطات التى اتخذت للحفاظ على حياتهم.

وهناك سمة بارزة أخرى ظهرت بوضوح خلال فترة حكم الأسرة الهرقلية، هى التقلبات المذهبية التى سادت الإمبراطورية خلال هذه الفترة، فمن محاولات التوفيق التى أقدم عليها الإمبراطور هرقل إلى تأييد المونوفيزتية، ثم الانقلاب عليها بتأييد المونوثولستية، إلى نفض الإمبراطور قنسطنطين الرابع يده من المذاهب الشرقية برمتها، إلى محاولات جستنيان الثانى التقرب من البابوية ثم صراعه معها، ثم عودة الوفاق معها مرة أخرى فى فترة حكمه الثانية.

لقد تعرضت العلاقة مع البابوية فى روما خلال فترة حكم الأسرة الهرقلية إلى تجاذب فريد من الاقتراب والابتعاد، وبلغت حدة هذا التجاذب درجة قيام الإمبراطور قنسطانز الثانى بإلقاء القبض على البابا مارتن الأول، وتقييده بالسلاسل والحكم بنفيه حيث مات فى منفاه متأثرًا بجوعه وأمراضه. وقيام الإمبراطور قنسطنطين الرابع بعقد مجمع دينى خضع فيه لتوجهات بابا روما ومعتقداته الدينية، ثم قيام الإمبراطور جستنيان الثانى بعقد مجمع دينى بمشاركة بابوية، وعندما رفض البابا اعتماد قرارات هذا المجمع حاول جستنيان الثانى أن يكرر معه ما فعله جده قنسطانز الثانى مع البابا مارتن الأول، ولكن محاولته فشلت وكان مضطرًا خلال عودته الثانية للحكم إلى مسايرة البابوية وأخذ اعتراضاتها فى الحسبان.

لقد شغل الصراع مع المسلمين جانبًا كبيرًا من فترة حكم الأسرة الهرقلية، ابتداءًا من عهد هرقل مؤسس الأسرة، إلى خاتمة الأسرة فى عهد آخر أباطرتها جستنيان الثانى، ورغم أن الصراع شمل جولات كثيرة من المعارك العسكرية العنيفة، التى كان لها تأثيرها المباشر على مقدرات الإمبراطورية العسكرية وعلى

تناقص الأراضى التى تقع تحت سيطرتها لصالح المسلمين، إلا أنه تخلل الفترة عقد ثلاث معاهدات سلام بين الطرفين سعى إلى الأولى البيزنطيون، وسعى إلى الثانية والثالثة المسلمون بسبب ظروف وتغيرات داخل الدولة الإسلامية، وكان الوصول إلى اتفاقية سلام بين الدولتين له ثمنه، ومقابله، وتأثيراته على أوضاع ومخططات وتحركات كلتا الدولتين.

لقد كان الاقتصاد أحد الميادين التى دار عليها الصراع البيزنطى الإسلامى فى القرن السابع الميلادى / الأول الهجرى، وإذا كان المسلمون فى بداية الفتوح الإسلامية لم يحدثوا سوى تغييرات طفيفة فى تجارة البحر المتوسط، الذى كان يسمى بحر الروم أو بحيرة رومانية، إما بسبب نقص خبراتهم أو لعدم استعجالهم السيطرة على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية فى الأراضى التى أصبحت تحت حكمهم، فقد استمروا يطبقون الأنظمة الإدارية البيزنطية، ويتداولون العملة البيزنطية، ويتعاملون فى دواوينهم ومراكز صناعاتهم بالأنظمة البيزنطية، حتى ان اللغة اليونانية بقيت كما هى لغة الإدارة الحكومية، إلا أن كل ذلك ما لبث أن بدأ يتغير بالتدريج حين استكملت الدولة الإسلامية مقوماتها، وحققت انتشارها وسيطرتها على نواحى التجارة، وأهمها البحر المتوسط، فبدأت بتغيير الدواوين والعملة والأنظمة، فعربت الدواوين، وأوجدت عملتها الإسلامية الخاصة، وفرضت التعامل بها فى أنحاء الدولة الإسلامية، وأحدثت تغييرات فى دور الطراز وصناعة الورق، مما أغضب الدولة البيزنطية، وجعلها تشعر أن هذه التغييرات هى حرب اقتصادية يهدف المسلمون من خلالها إلى زعزعة الوجود البيزنطى اقتصاديًا بعد أن تم زعزعته على الأرض عسكريًا. ورغم الاعتراض البيزنطى، وإعلانهم الحرب على الدولة الإسلامية لهذا السبب إلا أن المسلمين لم يتراجعوا عن خطتهم وعن تصميمهم على استكمال بناء الدولة اقتصاديًا، بعد أن تحقق لها الوجود السياسى والعسكرى على حساب الإمبراطورية البيزنطية.

إن العلاقات التى سادت بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية رغم مظهرها الحربى البارز، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تبادل اقتصادى وثقافى، وتأثيرات متبادلة بين الدولتين أو القوتين العظميين للعصور الوسطى. وكان تأثير هذه العلاقة كبيرًا على الدولتين وعلى الحضارتين الإسلامية والبيزنطية.

ورغم كل الظروف المحيطة والأحداث المتوالية، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل الدور الذى لعبته الأسرة الهرقلية فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فهى بلا شك قد أخذت بيد هذه الدولة، وانتشلتها من كثير من أزماتها، وأمدت فى عمرها، وكان لها أدوارها التى جاء بعضها فى أصعب وأحرج الظروف والأزمات التى مرت بالإمبراطورية.

ورغم أن أباطرتها الأربعة الكبار كانوا يتمتعون بصلابة الرأى والاستبداد مع شئ من المزاج السوداوى، إلا أن كلا منهم قد أدى دوره بارزًا فى الإمبراطورية وفى تشكيل تاريخها، فإلى جانب عملية الإنعاش العسكرى وإعادة التنظيم التى قام بها هرقل، فإن الفضل يعود إليه فى إنقاذ القسطنطينية من الوقوع فى أيدى الفرس الذين وصلوا إلى مرمى رمح منها.

أما قنسطانز الثانى فقد احتمل عنف هجمات المسلمين المتتالية وتعامل معها، إلى جانب التصدى للصقالبة فى البلقان، فى حين نجح قنسطنطين الرابع فى إنقاذ العاصمة البيزنطية من المسلمين، واستمرت المواجهة مع المسلمين والصقالبة والبلغار فى عهد جستنيان الثانى.

ولعل القرن السابع الميلادى، الذى حكمت خلاله الأسرة الهرقلية، كان من أهم القرون التى مرت بها الإمبراطورية وأخطرها بما اشتمل عليه من صراعات وتغيرات وتبدلات، وإذا كان لهذه الأحداث أثرها فى انحسار نفوذ الإمبراطورية وفقدانها لكثير من الأراضى التى كانت تحت حكمها وسيطرتها، بما شكل نتيجة سلبية على الإمبراطورية، إلا أن هذه السلبية قد رافقها فى الجانب الآخر جوانب

إيجابية، إذ ترافق معها إعادة تشكيل حدود الإمبراطورية والتجديد فى أنظمة الحكم وأجهزة الإدارة، وتفعيل قواها العسكرية والاقتصادية وأعطاها فرصة للتركيز على ما تبقى تحت يد الدولة من أملاك، وأفرز تغيرات ثقافية وحضارية، كما أفرز قيادات فاعلة كان لها أثرها فى إطالة عمر الدولة وانتشالها من أزماتها.

ولا شك أن الإمبراطورية البيزنطية تدين لهذا القرن بأحداثه وتطوراته، ولهذه الأسرة بالأدوار التى لعبتها فى إطالة عمرها وضخ دماء جديدة فى مسيرتها التى تواصلت إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى عندما حان سقوطها على يد المسلمين عام ١٤٥٣م / ٨٥٧ هـ فسقطت عاصمتها القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين، وذهب ريحها وتلاشى وجودها، لتختفى من جغرافية العالم، وتبقى فى تأريخه وذاكرته ومسيرته الحضارية.

المصادر والمراجع

أولاً المصادر العربية

ابن الأثير [أبى الحسن على بن عبد الواحد الشيبانى] (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م) الكامل فى التاريخ، بيروت: دار الفكر.

الأزدى، محمد بن عبد الله (١٩٧٠م) تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

ابن الأعثم [أبو محمد أحمد بن الأعثم الكوفى] (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) الفتوح، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن إياس [أبو البركات محمد بن أحمد] (١٩٦٠م) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، سلسلة كتاب الشعب، القاهرة.

البلاذرى [الإمام أبى الحسن أحمد بن يحيى] (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨) فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن الجوزى [أبو الفرج عبد الرحمن بن على] (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

الحموى، ياقوت [شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى](١٩٩٥م) معجم البلدان، ط ٢، بيروت: دار صادر.

ابن حوقل [أبو القاسم محمد الموصلى] (١٩٧٩م) صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة.

ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٧٧م) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت: دار الكتب اللبنانى.

ابن خياط، خليفة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) تاريخه، ط ٢، تحقيق: د. أكرم ضياء العمرى، الرياض: دار طيبة.

الدينورى، [أبو حنيفة أحمد بن داوود] (١٩٥٩م) كتاب الأخبار الطوال، بغداد: المطبعة الشرقية.

الذهبى، [شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان] (١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "عهد معاوية بن أبى سفيان"، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، بيروت: دار الكتاب العربى.

السيوطى، [جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر] (١٩٦٨م)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

الطبرى، [أبو جعفر محمد بن جرير] (١٩٦٩م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: (د. ن).

ابن عبد الحكم، [عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم] (١٩٦١م) فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، القسم التاريخى، القاهرة: لجنة البيان العربى.

ابن العبرى، [غريغوريوس الملطى] (١٩٥٨م) تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطوان صالحانى، ط ٢، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

ابن الفراء، [أبو الحسين بن محمد] (١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق صلاح الدين المنجد القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ابن كثير، [أبو الوفاء الحافظ بن كثير] (د. ت) البداية والنهاية، وبيروت: مكتبة المعارف.

الكندى، [أبو عمر محمد بن يوسف] (١٩٠٨م) كتاب الولاة والقضاة، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين.

المسعودى، [أبو الحسن على بن الحسن بن على] (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط ٢، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة: (د. ن).

المقريزى، [تقى الدين أبو العباس أحمد بن على] (د. ت) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط ٢، القاهرة: مكتبة الثقافة العربية.

ابن المقفع، سايروس (١٩٧٨م) تاريخ بطاركة الإسكندرية، سلسلة التراث العربى المسيحى، القاهرة: دار العالم العربى.

المنبجى، [أغابيوس بن قسطنطين] (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) المنتخب من تاريخ المنبجى، أنتخبه وحققه: عمر عبد السلام التدمرى، طرابلس: دار المنصور.

ابن هشام، [أبو محمد عبد الملك] (١٩٧٤م) السيرة النبوية، تحقيق وتقديم: طه عبد الرؤوف، القاهرة، (د. ن).

اليعقوبى، [أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح] (د. ت) تاريخ اليعقوبى، جـ٢، بيروت: دار صادر.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة

أحمد، عزيز (١٩٨٠م) تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة: د. أمين توفيق الطيبى، بيروت: الدار العربية للكتاب.

إسكندر، فايز نجيب (١٩٨٣م) الفتوحات الإسلامية لأرمينية "١١ - ٤٠هـ / ٦٣٢ - ٦٦١م" جـ١، سلسلة مؤرخى الأرمن فى العصور الوسط، (جيفوند)، الإسكندرية: دار نشر الثقافة.

إسماعيل، ليلى عبد الجواد (١٩٨٥م) الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة: دار النهضة العربية.

أومان (١٩٥٣م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: مصطفى طه بدر، القاهرة: الدار القومية.

باقر، طه، رشيد فوزى وهاشم، رضا جواد (١٩٧٢م) تاريخ إيران القديم، بغداد، مطبعة بغداد.

بتشر، ن (١٩٠١م) تاريخ الأمة القبطية، ترجمة تادرس، القاهرة، د.ت.

بتلر، ألفرد. ج (١٩٨٩م) فتح العرب لمصر، ترجمة: محمد فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، القاهرة: المركز العربى للنشر والتوزيع.

برينيا، حسن (١٩٧٩م) تاريخ إيران القديم، ترجمة: محمد نور الدين والسباعى محمد، القاهرة: (د. ن).

بل، هـ. آيدرسن (١٩٧٣م) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ط ٣، ترجمة: د. عبد اللطيف أحمد على، بيروت: دار النهضة العربية.

بورفيرو جنتيوس، قنسطنطين السابع، (١٩٨٠م) إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة وتحليل: د. محمود سعيد عمران، بيروت: دار النهضة العربية.

بينز، نورمان (١٩٥٠م) الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: حسين مؤنس ومحمود يوسف، القاهرة: الدار القومية.

تاوظروس، إسحاق عبيد (١٩٧٢م) الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة: دار المعارف.

توفيق، عمر كمال (١٩٧٧م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

جب، هاملتون (١٩٧٤م) دراسات فى حضارة الإسلام، ط٢، ترجمة : د.محمد يوسف نجم و د. محمود زايد، بيروت: دار العلم للملايين.

أبو الجدايل، عائشة سعيد شحاتة (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى "الأول الهجرى" دراسة فى التطورات والتغيرات، الرياض: المفرد للنشر والتوزيع والدراسات.

الجنزورى، علية عبد السميع (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

حتى، فيليب (١٩٦٥م) موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة: د. أنيس فريحة، بيروت: دار الثقافة.

حلاق، حسان على (١٩٧٨م) تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى، بيروت: دار الكتاب اللبنانى.

حمزة، عاد ل عبد الحافظ (١٩٩٧م) الصرب بين البيزنطيين والبلغار، مجلة المؤرخ العربى، العدد (٥) المجلـد الأول، (ص ٣٣٥ - ٣٦٣) القـاهرة: اتحـاد المؤرخين العرب.

حورانى، جورج فضلو (د. ت) العرب والملاحة فـى العـصور القديمـة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة: د. السيد يعقـوب بكـر، مراجعـة: د. يحيـى الخشاب، القاهرة الأنجلو المصرية.

الحويرى، محمود محمد (١٩٨٦م) اللمبارديون فـى التـاريخ والحـضارة، القاهرة: دار المعارف.

(١٩٩٦م) مصر فى العصور الوسطى، القاهرة، عين للدراسات والبحـوث الإنسانية والاجتماعية.

خماش، نجدت (١٩٨٧م) الشام فى صدر الإسـلام، دمـشق: دار طـلاس للدراسات والترجمة والنشر.

داهموس، جوزيف (١٩٨٧م) سبع معارك فاصلة فى العـصور الوسـطى، ترجمة: د. محمد فتحى الشاعر، سسلسلة الألف كتاب الثانى (٤١)، القاهرة الهيئـة العامة المصرية للكتاب.

الدورى، تقى الدين عارف (١٩٨٠م) صقلية: علاقتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربى حتى الغزو النورمندى، سلسلة دراسات (٢٤٠)، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام العراقية.

الرافعى، عبد الرحمن وعاشور، سـعيد (١٩٧٠م) مـصر فـى العـصور الوسطى، القهرة: مكتبة النهضة المصرية.

رانسيمان، ستيفن (١٩٦١م) الحضارة البيزنطية، سلسلة الألف كتاب (٣٧٩)، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: زكى على، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ربيع، حسنين محمد (١٩٩٠م) دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة: دار النهضة المصرية.

رستم، أسد (١٩٨٨م) الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، مج ١، ط ٢ بيروت: منشورات المكتبة البولسية.

(١٩٨٨م) كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مج ٢، ط ٢، بيروت: "المكتبة البولسية.

(١٩٩١م) نحن ورومة والفاتيكان، ط ٢ بيروت : منشورات المكتبة البولسية.

(١٩٩١م) حرب فى الكنائس، ط ٢ بيروت، المكتبة البولسية.

الريس، محمد ضياء الدين (١٩٦٩م) عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، ط٢، القاهرة: مطابع سجل العرب.

سالم، السيد عبد العزيز والعبادى، أحمد مختار (١٩٩٣م) تاريخ البحرية الإسلامية "فى مصر والشام" ٢ مج، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

ساليفان، ريتشارد أ. (١٩٨٥م) ورثة الإمبراطورية الرومانية "الغرب الجرمانى – العالم الإسلامى – الدولة البيزنطية" ترجمة وتقديم: د. جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

السمارائى، عبد الجبار (١٩٨١م) الرسائل التى بعث به النبى إلى ملوك الدول المجاورة، مجلة الفيصل (٥٥) الرياض: دار الفيصل.

السعدنى، محمود إبراهيم (١٩٩١م) تاريخ روما القديم، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

سلامة، إبراهيم خميس (١٩٩٤م) معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى، مجلة كلية الآداب "٤١" ص ٢٦٦ – ٢٦٧، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية.

سيديو (١٤٠٠هـ) خلاصة تاريخ العرب، ط ٢، بيروت: دار الآثار.

الشاعر، محمد فتحى (١٩٨٩م) السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس "عصر جستنيان"، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الشناوى، أحمد وخورشيد، زكى ويونس: عبد الحميد (١٩٣٣م) دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة: دار الفكر.

الشيخ، حسين (١٩٩٦م) الرومان، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

الشيخ، محمد محمد مرسى (١٩٩٥م) تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية: دار المعارف الجامعية

(١٩٩٦م) تاريخ مصر البيزنطية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

طرخان، إبراهيم على (١٩٦٦م) المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، سلسلة الألف كتاب (٥٩٦)، القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٦١م) أوروبا العصور الوسطى، ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

عاقل، نبيه (١٩٦٩م) الإمبراطورية البيزنطية، دمشق: (د. ن).

(١٩٧٥م) خلافة بنى أمية، ط٣، دمشق (د. ن).

عباس، إحسان (١٩٧٩م) العرب والمردة فى تاريخ قنسطنطين المولود فى الأرجوان، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الأولى، ع ٣، (ص / ٣ – ٩)، بيروت.

العبد الغنى، عبد الرحمن محمد (١٤١٠هـ / ١٩٨٩م) الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية (٤٠ – ٣٣٩هـ / ٦٦٠ – ٩٥٠م)، حوليات كلية الآداب، الحولية الحادية عشرة، الرسالة الحادية والسبعون، الكويت: مجلس النشر العلمى – جامعة الكويت.

عبد الله، وديع فتحى (١٩٩٠م) العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامى، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

العدوى، إبراهيم أحمد (١٩٥١م) الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة: (د. ن).

(١٩٦٣م) الأمويون والبيزنطيون "البحر المتوسط بحيرة إسلامية" ط ٢، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

(١٩٦٣م) قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، القاهرة: مكتبة نهضة مصر.

العرينى، الباز (١٩٥٦م) أجناد الروم، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

(١٩٥٧م) كتاب والى المدينة، مجلة كلية الآداب مج ١٩، القاهرة: جامعة القاهرة.

(١٩٨٢م) الدولة البيزنطية "٣٢٣هـ / ١٠٨٠م) بيروت: دار النهضة العربية.

عمران، محمود سعيد (١٩٨١م) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت: دار النهضة العربية.

(١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية، "الحضارة الإسلامية وعالم البحار"، بحوث ودراسات، القاهرة: اتحاد المؤرخين العرب.

الغمراوى، على (١٩٧٧م) مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط، ط٢، القاهرة: دار المعارف.

فاسيليف أ. أ (د. ت) العرب والروم، ترجمة: د. محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة: د. فؤاد حسن على، القاهرة: دار الفكر العربى.

فرج، وسام عبد العزيز (١٩٨٣م) دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية "الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ – ١٠٢٥م"، الإسكندرية: مطبعة ومصنع إسكندرية للكراس.

(١٩٨٥م) دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية.

(١٩٨٦م) العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب

(١٩٨٣م) السلاف فى شبه جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثلاثون، (ص ١٤١ – ٢٠١) القاهرة.

فيشر، هـ. (١٩٦٩م) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى

زيادة والسيد الباز العرينى، ط٥، مج ١ القاهرة: دار المعارف.

كاشف: سيدة إسماعيل وسرور، جمال الدين وعاشور: سعيد عبد الفتاح (١٩٩٣م) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور "تاريخ مصر الإسلامية"سلسلة تاريخ المصريين (٦٣) القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.

كانتور، نورمان (١٩٩٣م) العصور الوسطى الباكرة، ترجمة وتعليق: د.قاسم عبده قاسم، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

كريستيس، آرثر (١٩٥٧م) إيران فى عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، دار النهضة العربية.

لوريمر، جون (١٩٨٨م) تاريخ الكنيسة مج ٤، القاهرة: دار الثقافة.

لويس، أرشيبالد. ر. (١٩٦٠م) القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط "٥٠٠ – ١١٠٠م"، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مراجع: محمد شفيق غربال، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ماجد، عبد المنعم (١٩٧١م) التاريخ السياسى للدولة العربية "عصر الخلفاء الأمويين" ط٤، مج٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ماهر، سعاد (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ط ٢، جدة: دار المجمع العلمى.

محمد، عبد الرحمن فهمى (١٩٨٧م) النقود العربية ماضيها وحاضرها، مكة المكرمة: دار الفيصلية.

محمود، حسن أحمد (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م) الإسلام فى حوض البحر المتوسط، القاهرة: دارالفكر العربى.

موسى، هـ (١٩٦٧م) ميلاد العصور الوسطى، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الألف كتاب (٦٢٣)، القاهرة: عالم الكتب.

مؤنس، حسين (د. ت) فتح العرب للمغرب، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

(١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط "الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية"، ط٢، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

لوبيز، ج (١٩٦١م)، محمد وشارلمان: إعادة نظر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ترجمة توفيق اسكندر، دار المعارف، القاهرة.

الناصرى، سيد أحمد على (١٩٩٣م) الروم - تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالشرق العربى، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى.

هسى، ج. م. (١٩٨٤م) العالم البيزنطى، ط ٣، ترجمة وتعليق وتقديم: رأفت عبد الحميد، القاهرة: دار المعارف.

هلال، إبراهيم (١٩٧٨م) حديث هرقل، القاهرة، مؤسسة سجل العرب. وير، تيموثى (١٩٨٢م) الكنيسة الأرثونكسية فى الماضى والحاضر، ترجمة: هاشم الحسينى، بيروت: دار النور.

يوسف، جوزيف نسيم (١٩٨٤م) تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية

Alexander, S.S. (1977) Heraclius, Byzntium Imperal Edolgy, Amsterdam، Inspeculm.

Baynes, N. H. (1974) Byzantina Studies and Other Essays, London: Grenwood Press.

Baynes, N, D. (1952) The Byzantina Empire, 2nd ed., U.S.A., A.M.S Press. Baynes, and Moss. (1948) Byzantium, London: Oxford.

Browning, R.(1980) The Byzantine Empire, New York: Charles Scribner's Sons.

Brooks، E.W. (1915) The Brother of Emperor Constantine 4, London: 30 Historical Review.

Bury, J. B. (1989) The History of The Later Roman Empire, From Arcadius to Iren, London: n.p

Bowle, J. (1979) History of Europe, London, Secker and Warburg.

Cameron, A. (1995) The Byzantine and early Islamic Near East, U.S.A: parwin press.

Dieal, Ch. (1969) History of the Byzantine Empire, trans by: George. B.I., New York: A.M.S. Press.

Ensslin, W. (1967) the Government and Adminstration of Byzantine Empire, 2^{nd}. ed., Vol. 4, Camb, med, hist.

Fahmy. A.M. (1966) Muslim, Sea-Power in The Estern Mediterranean from the Seventh to Tenth Century A.D. Cairo: National Publication Printing House.

Finaly, G. (1977) History of Greece, Vol.1, London: Oxford.

Foord, E. (1911) the Byzantine Empire, London: Methuen and co. ltd.

Fretnklin; S. and Shepard, J. (1992) Byzantine diplomacy, London: ashgare publishing company.

Gibb, A.R (1958) Arab - Byzantine Relation Under the Umayyed caliphte, in Dumbarton Daks papers، xii.

Gibbon, E. (n.d.) The Decline and fall of the Roman Embire, 3 Vol. New York: Modern Library.

Gwatkin, H.M. and Whitney, J.P. (1967) Cambridg Medieval History, Vol.2, Cambridge: University Press.

Haldon, J.F. (1997) Byzantium in the seventh centuey, Revised Edition، Cambridge: University Press.

Kaegi, W.E. (1981) Byzantine Military (471- 843), U.S.A: Coronet Book.

Kremer, R. (1958) Orinte under the caliphs, London; Cambridge: University Press.

Lindasy, J. (1909) Byzantium into Europe, London: n.p.

Oman. Ch. (1954) Art of War in the Middle Ages, 2^{nd}.ed., New York: Henry Holt Books.

(1962) The Dark Ages, London: Weiden Feld and Nicolson.

Oman, C.W. (1892) the Byzantine Empire, London: T. Fisher Unwin.

Ostrogorosky, G. (1968) History of Byzantine State, Second edition, London: Basil Blackwell.

Pattenden, P. (1983) The Byzantine Early Warning System, Bruxelles: Byzantion Tom, LIII.

Pirenne, H. (1961) Economic and Social History of Medival Europe, English Trans. London: Longman.

(1965) Mohamed and Charlemagne, 4^{th}. ed., translated by Bernard Mial, London: George Allen and Unwin Ltd.

Sear, D. (1994) Byzantine Coins and their values, London: Batsford (B.T.).

Stephenson, C. (1943) Mediaeval History, New York:Barnes and Noble Books.

Stratos, A.N. (1968) Byzantium in the sevnth Century, (602- 634). Vol. 1, Trans by: Marco Ogilvie grant, Amsterdam, T.J. Press.

Theophanes (1997) the chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine and Near Eastern History (AD 248-913), Edited by: Cyril Mango and Roger Scott, Oxfprd.

Vasiliev, A.A. (1957) History of the Byzantine Empire، Vol. 1, U.S.A: the University of Wisconsin Press.

Warren, T. and Tready, G (1982) The Byzantine State Finances in the Eighth & Ninth centuries, London: Over Look Press.

Whitby, M. (1958) The Long Walls of Constantinaple, Byzantion, Tom LV, Bruxelles.

الخرائط

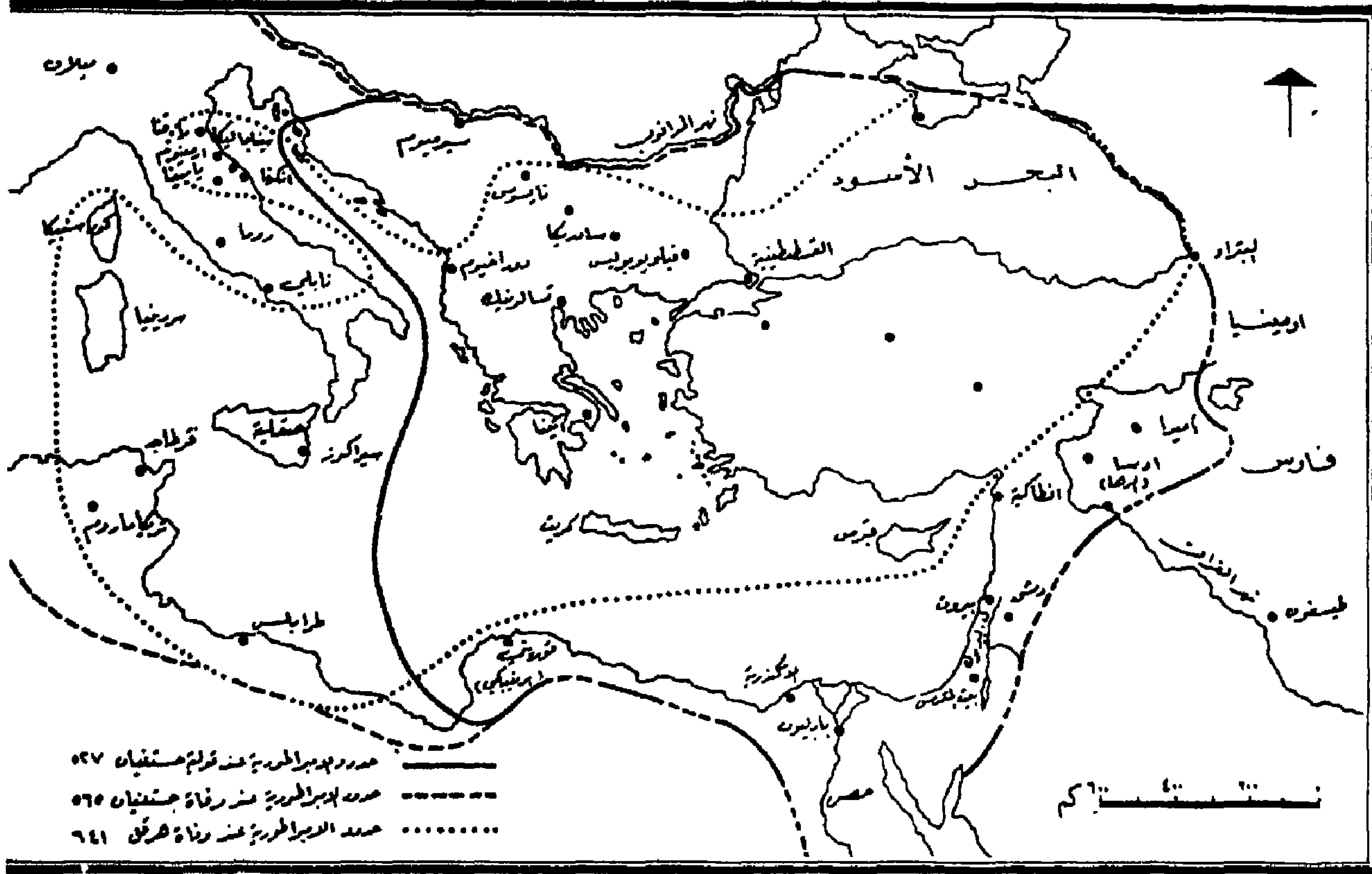
حدود الإمبراطورية البيزنطية من عام ٦٢٨/١٢٠٥م

حدود الإمبراطورية سنة ٦٢٨ م

حدود الإمبراطورية سنة ١٢٠٥ م

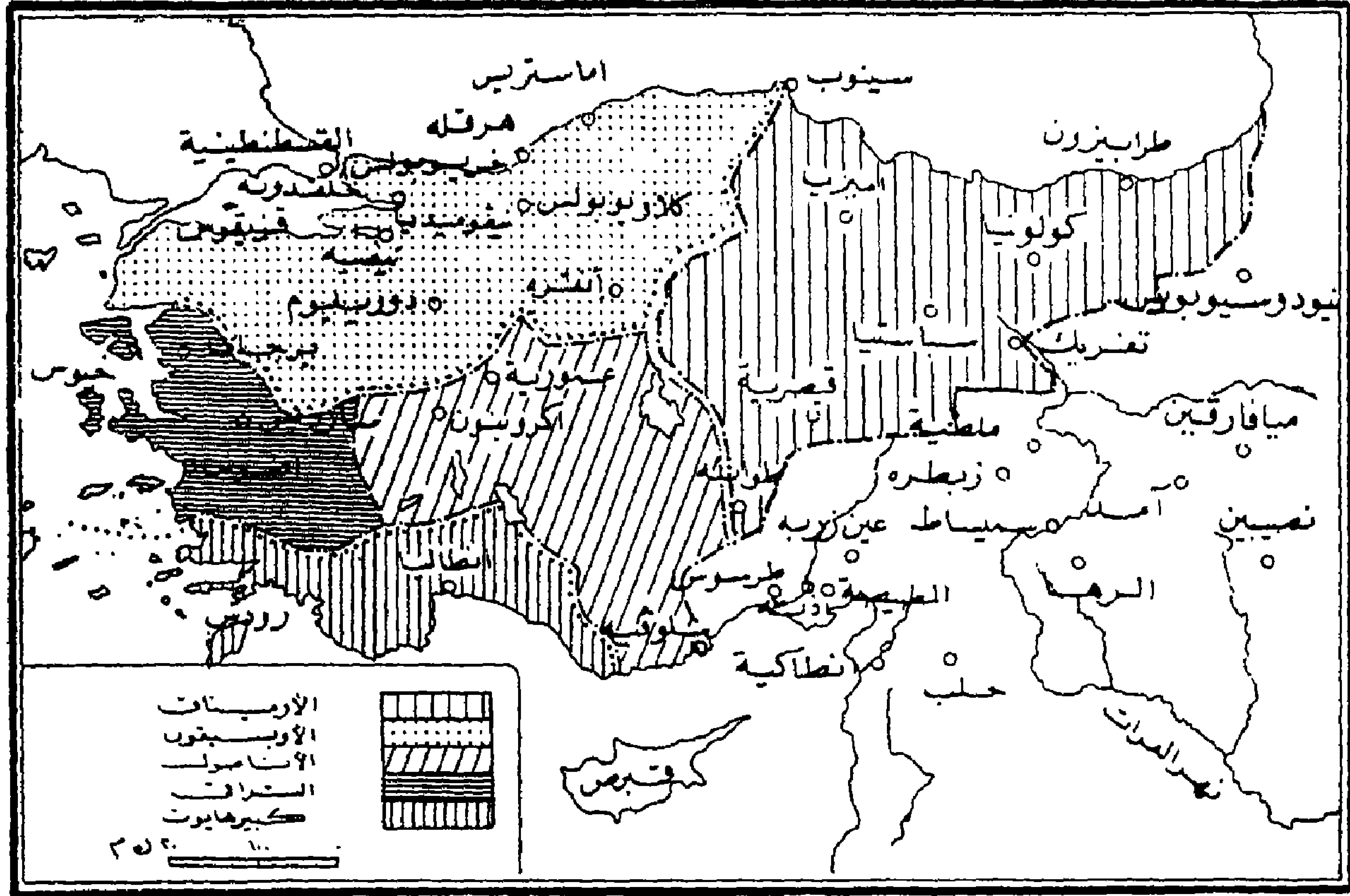
John Bowle, Ahistory of Europ, p. 180: نقلا عن

حدود الإمبراطورية البيزنطية من عام ٥٢٧/٦٤١



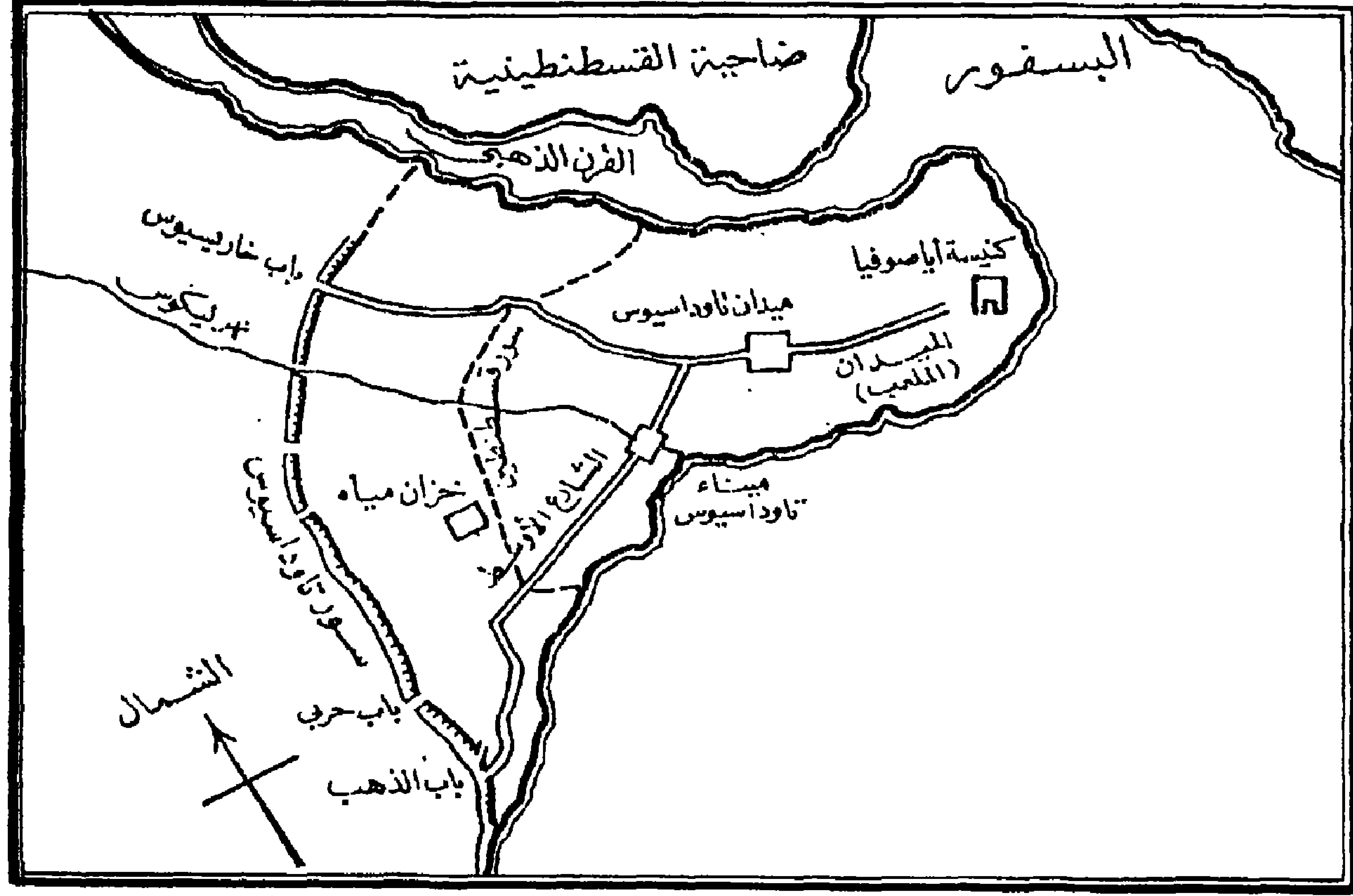
نقلا عن: Browning The Byzantine Europ. p. 16

الثيمات البيزنطية من القرن السابع إلى القرن التاسع



نقلا عن: Camb, med, hist, IV, p. 76

القسطنطينية تحت حصار الأسطول الإسلامي في عهد قسطنطين الرابع



نقلا عن: إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص١٤٩

الإمبراطورية البيزنطية فى أواخر أيام الإمبراطور جستنيان الثانى



Haldon, Byzantium in the seventh century, P. 65 :نقلا عن

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

المؤلف فى سطور:

عمر يحيى محمد

رئيس قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة.

من مواليد جدة.

رُقِّىَ إلى درجة أستاذ مشارك بتاريخ ١٤٢٩/٢/٦هـ.

ثم رئيس لقسم التاريخ بتاريخ ١٤٢٥/٨/١٢هـ.

حصل على دكتوراه الفلسفة فى التاريخ من جامعة الملك عبد العزيز بتقدير امتياز.

حصل على درجة الماجستير فى التاريخ من جامعة الملك عبد العزيز بتقدير امتياز.

عمل قبل التحاقه بالجامعة فى الصحافة المحلية، وتدرج فيها فى عدة مناصب منها:

محررًا ثم سكرتيرًا للتحرير فى مجلة "اقرأ" لمدة خمس سنوات.

رئيس تحرير مكلف لمجلة "اقرأ" لمدة عام ونصف.

رشح ليكون رئيسًا لتحرير مجلة "اقرأ" ولكنه قدم استقالته ليتفرغ للتحضير للماجستير والدكتوراه.

عمل مديرًا للتحرير للتطوير بجريدة المدينة السعودية لمدة ستة أشهر.

عمل مديرًا للشؤون الصحفية بمكتب جريدة الندوة الإقليمى فى جدة لمدة عام.

كتب فى العديد من الصحف والمجلات السعودية والخليجية، وكان له عمود أسبوعى فى جريدة "سعودى جازيت" الصادرة باللغة الإنجليزية عن مؤسسة عكاظ لمدة عامين وعمود فى جريدة الندوة وجريدة البلاد.

أعد عددًا من البرامج الإذاعية لإذاعة جدة وشارك فى العديد من اللقاءات والحوارات الإذاعية والتلفزيونية.

يشارك بفاعلية فى الكثير من المنتديات والفعاليات الثقافية فى مدينة جدة.

عضو اللجنة الإعلامية العليا بجامعة الملك عبد العزيز.

عضو الهيئة الاستشارية لجريدة أخبار الجامعة الصادرة عن كلية الآداب والعلم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز.

عضو اتحاد المؤرخين العرب القاهرة، والجمعية التاريخية السعودية، وجمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون الخليجي.

لديه عدة أبحاث منشورة أو مقبولة للنشر فى العديد من المجلات العلمية.

عمل مستشارًا غير متفرغ لمعالى وزير الحج للفترة من ١٤٢٦/٦/١٥هـ إلى ١٤٢٧/٦/١٥ هـ.

له عدد من الأبحاث المنشورة.

صدر قرار ترقيته إلى درجة أستاذ مشارك بتاريخ ١٤٢٩/١/١٥ هـ.

التصحيح اللغوى: **سوزان عبد العال**

الإشـــراف الفنى: **أنجـــى جـــورج**

المجلس الأعلى للثقافة

يقوم هذا الكتاب بدراسة الأوضاع التى كانت عليها الإمبراطورية البيزنطية خلال فترة حكم الإمبراطور هرقل، وما تطورت إليه الأوضاع بعد وفاته سنة ٦٤١م/٢٠هـ حتى نهاية حكم خلفائه من أسرته سنة ٧١١م/٩٣هـ، فقد شهدت الإمبراطورية خلال هذه الفترة تطورات سياسية واقتصادية وعسكرية، تركت آثارها -فيما بعد- على الأوضاع الداخلية للإمبراطورية وعلى علاقتها بالمسلمين وبالقوى الأخرى من لاتين وبلغار وخزر، وكل ذلك تمّ تناوله بالتفصيل فى إطاره التاريخى.

